

مكتبة توفيق دياب



اللمحات

سياسيات
روحيات
اجتماعيات
خلقيات
ادبيات

المجموعة الأولى

[ملتزم التوزيع والنشر]

دار التوزيع والطباعة والنشر

٥٣ شارع ابراهيم باشا — أمام شبرد

6- 130 35 33 2
11764507



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة



اللمحات

AC
106
D59
V.1

سياسيات
روحيات
اجتماعيات
خلقيات
ادبيات

المجموعة الأولى

بسم الله
محمد توفيق دياب

التمن
٤٥ صاغا

الطبعة الأولى
مطبعة النهضة
٤٠ شارع فرانكا (ساحة شارع الفداوى)
١٩٤٧

فدائی

الحی ولد و صلاح

فنی علیہ

نفحة مشكورة

بقلم الصديق الجليل أنطون الجميل باشا

محمد توفيق دياب بك - كاتباً وخطيباً

إذا كان لابد للكتاب عادةً من توطئة أو مقدمة تعرف كاتبه وتمهد لموضوعه ، فما كان أغنى هذه « اللمحات » — التي بين يديك ، أيها القارئ — عن كل توطئة أو مقدمة . فمؤلفها — وهو الكاتب المشهور والخطيب المفوّه — غنى عن التعريف . وموضوعها أو موضوعاتها — وهي مجموعة مقالات نشرت في الصحف السيارة ، ومحاضرات أُلقيت في الأندية العلمية والسياسية ، وبحوث وأحاديث أذاعها المذيع في البلدان العربية — تقدّم نفسها بنفسها ، فلا تحتاج إلى تقديم ولا إلى تمهيد . فما كان أحرانى بأن أحجم عن كتابة هذه الكلمة ، فلا أتعرض للتقصير ، ولا أحول دون بلوغ القارئ تواءاً إلى ما هو واجد في الصفحات التالية من طرائف . على أن زمرة الأدباء التي تضم المؤلف وتضمّني في ناديها أرادتني على ذلك ، فصعدت بإرادتها متهباً في أول الأمر ، ثم أقدمت مرتاحاً إلى التحدث عن أخ كريم .

* * *

منذ ثلاثين عاماً أعلنت الصحف أن شاباً مصرياً عاد من إنجلترا ، وقد تلقى فيها ، إلى جانب ثقافته الجامعية ، دروساً في فن الخطابة والكلام ، سيحاضر في الجامعة المصرية القديمة عن فن الالتقاء . فأقبلنا على سماع المحاضر الشاب ، فإذا هو يلقي دروساً مفيدة في مخارج الحروف والجل ، ونبرات الصوت ، والتعبير عن المعاني بحركات اليدين وملامح الوجه ، مما لاغنى عنه لكل من ينبري للكلام في المواقف العامة ، بل للتحدث في المنتديات الخاصة ، إذ من الثابت أن الأسلوب الذي نعبر به عن المعنى كثيراً ما يؤثر في السامع تأثيراً أبلغ من المعنى نفسه . وكان المحاضر اللبق

يقرن دروسه النظرية بأمثلة عملية تزيد في طرافة درسه وترسيخ فائدته في الأذهان .
ولم يلبث هذا الشاب النابه أن أدرك مكانة ملحوظة بين مواطنيه في مواقفه
الخطابية ، سياسية كانت أو ثقافية أو اجتماعية . ونزل في الوقت نفسه إلى ميدان
الصحافة فكانت له فيه جولات موفقة ، كبيرة الأثر ، بعيدة المدى .
هكذا عرفنا توفيق دياب أول ما عرفناه .

ثم أخذ نجمه يلمع ويتلأأ ، حتى اقتعد مكانة عالية بين لداته من أبناء الجيل .
وكانت شابة قلمه في بلاغتها تنافس لهاة لسانه في صدق لهجتها وفصاحتها . فنبه ذكره
خطيباً في مواقف السياسة والمحاضرة والمناظرة ، كما استطارت شهرته كاتباً في الصحافة
بنظراته في « السياسة » ثم بلمحاته في « الأهرام » . ولم تشأ نفسه الطليقة الوثابة
وروحه النزوع إلى الحرية التقيّد بخطة صحيفة يصدرها غيره ، بعد استقالته من الجامعة
المصرية سنة ١٩٢٨ — فأصدر صحفاً مستقل بتوجيه سياستها بلغ عددها اثنتي عشرة
صحيفة نالتها يد التعطيل ، حتى أصدر جريدة « الجهاد » التي استمرت ثمانى سنوات
إلى قبيل الحرب الأخيرة . وقد نشر فيها فصولاً رنانة في مختلف الشؤون القومية
والدولية ، كان لها دوى كبير ، وحملت اسمه إلى كل بلد يقرأ اللغة العربية .

ثم كانت الحرب الأخيرة وما صاحبها من رقابة شديدة على كل ما يكتب
ويقال ، فألقى قلمه وحبس لسانه ، وعكف على داره يدرس ويطلع ، ويرتاد في المساء
بعض المنتديات الأدبية يسمر مع رهط من خلانه ، إلى أن أطلقت الأقلام وفك
عقال الألسنة بعد الحرب فعاد إلى الكتابة في الصحف والمجلات ، وإلى الكلام
من أعلى المنابر وأمام المذياع . هذا هو الجانب المعروف لدى الجمهور عن توفيق دياب .
أما الجانب المجهول فقد أزاح هو الستار عنه قليلاً في بعض فصول هذا الكتاب .

قال عن نشأته الأولى في مقاله « طريق الهدى » (صفحة ١١٨) :

« نشأت تقياً نقياً كالأبرار من أبناء المسلمين ، عيوفاً حيمياً كالأطهار من أبناء
الريف ، ربما سنجت لى سائحة الهوى ، وأنا فتى مشبوب الصبا ، فأزويها بالكبت

في زوايا النفس الباطنة ، لا عجزاً عن الفرصة ، ولكن صوناً للمروءة ونزاهة عن الدنس . ومازلت كذلك حتى رمتني الأيام برفيق السوء . كان أصبر مني على الدرس ، وأسبق في السن ، وأجراً على المغامرة . كان في العشرين يكبرني بعامين ، وكان يعجبني ذكاؤه ، ويزدهيني اخاؤه ، ويسحرنى منه مظهر الأريب العليم بأسرار الحياة . لقد اتخذته إماماً ومرشداً ، فكان لي إماماً ، ولكن في غير مسجد ولا محراب . وكان لي مرشداً ، ولكن إلى غير هدى ولا صواب . ثم افترقنا كل إلى سبيله ، ولولا صحبته لظل عهدي بالشباب مرآة صافية » .

واسمعه بعد ذلك ، وقد رحل إلى لندن ، ينشد العلم والمعرفة يقول : « فإذا أنا في بحر الجحى » ، أمواجه ملايين من الخلق ، لهم علوم وفنون ، وحضارة ومجد تليد وطارف ، وفيهم جمال وفينا شباب » .

وهناك تفتحت لنفسه الفتية مغاليق الدنيا بما فيها مما يردع وما يغري ، وتكشفت له أسرار الحياة بما فيها مما يسوء وما يرضى ، فعاد من لندن في حالة نفسية وصفها أروع وصف في مقال له وجهه إلى الإنجليز في شخص « جون بول » (صفحة ١٠٢) فقال : « أعزني سمعك ، فإذا أعزتنى سمعك فإنما تعيره رجلاً تعلم لفتك وهو غلام ، ودرس في عاصمتك وهو شاب ، ثم عاد إلى بلاده وفي صدره شعلة من نار الحماسة ونور المعرفة . أما الحماسة فللمثل العليا التي قرأها في كثير من كتبكم ، وأخذها عن كثير من علمائكم . وأما المعرفة فبوجوه الإصلاح التي لا بد منها لكل شعب يريد النهوض ، أعنى إقامة نهضته على أساس متين من الأخلاق ، وإشعار ذوى السلطان أو العلم أو المال بأن سلطانهم وعلمهم ومالهم إنما هي أدوات في أيديهم لخدمة المجتمع ، وأن قوام الحياة لأدنى المواطنين يجب أن يكون : غذاء يكفيه ، ومسكناً صحياً يؤويه ، ورعاية طبية تحميه أو تشفيه ، وطرفاً من التربية والتعليم يسمو بإنسانيته ويحقق نفعه لنفسه وللوطن » .

« بهذه الروح الفتية النقية عاد صاحب هذا الحديث من بلاده ، — يا مستر جون بول — وعاد قبله وبعده عشرات بل مئات من إخوانه المصريين . وقد أعجبهم

من دياركم وعلومكم وآدابكم ما أعجبه ، وخليهم من سحر تقديسكم للحرية الفردية والإرادة القومية والعزمات الصادقة الشعبية ما خلبه — وهي تطمح كل يوم إلى مزيد من العدل ، ومزيد من المساواة في نعم الحياة .

« عدنا من معاهدكم ومجامعكم ، لا أوعية من فخار صبت فيها علوم ومعارف ، بل عدنا مشاعل حرارتها من القلوب ، وضوءها من الرؤوس . عدنا نحمل إلى أمتنا رسالة الحياة ، لاهياة الرضى بالواقع الذليل ، وإحالة الذنب على المقادير ، بل حياة أرواح خلقت لتفطن ، وتجد ، وتعلو ، لا لتغفل ، وتلهو ، وتلصق بالتراب » .

في هذه السطور التي اقتبسناها من « اللوحات » ، صورة دقيقة لابن الريف الهادى الوادع الطاهر ، وريب العاصمة البريطانية الدائبة الحافلة بصنوف الحياة ، وهي صورة معظم شباننا الذين رحلوا ويرحلون إلى عواصم أوروبا وأمريكا للتحقق والاستزادة من العلم والعرفان .

كان إذن شأن الفتى توفيق في ذلك شأن غيره من الشبان . ولكن نفسه كانت كاللوح الحساسة يرسم فيها ما ينعكس عليها من الصور ، وكان خياله كالشمع اللين ينطبع عليه ما تطبعه يد الحياة . فظل في كتاباته وخطبه يضرب على وتر الأخلاق ، وقد اقتبسها من ريفه ، وعلى وتر المثل العليا ، وقد أخذها من دراساته ومطالعاته . وهو لا يزال كثير الارتياح لمزركته في الريف ، وكثير الإقبال على القراءة ، يفتدى حياته المعنوية من هذه وتلك ، فيجمع إلى روحانية الشرق ثقافة الغرب ، مع نزوع ظاهر إلى الصوفية والأخذ بالمذاهب الروحية . يبدو لك ذلك في خطبه ومقالاته ، وترى أنه يسود ما يكتب وما يقول إيمان متين وطموح إلى المثل العليا . فهو مؤمن بتطور الناس ، طموح إلى تحسين حالهم المادية والمعنوية . وهو مؤمن بطبائع الأشياء ، طموح إلى تسييرها في سبيل الخير والصلاح .

ويغلب على كتابته الأسلوب الخطابي ، حتى لا تكاد تستطيع أن تتحدث عنه كاتباً إلا تمثلته خطيباً . وهو لا يكتب ولا يخطب إلا إذا هزته العاطفة ، واستثاره الشعور ، فتنبض أقواله بالحماسة . وقد قالوا إن الإنسان المجرد من الحماسة لا يفيد

تفكيره إلا زهداً في الحياة ، وإن أعزل أمراض النفس وأفتكها جهود العاطفة .
والأستاذ توفيق دياب في منجاة من هذا المرض .

وقد ساعده في أسلوبه الكتابي وبيانه الخطابي ما أدره من مطالعة كتب
الفرنجية من الأفكار والمعاني العصرية ، وما اكتنزه من مراجعة كتب العرب من ثروة
لفظية قلما ظفر بها كاتب . فهو وإن لم يتعرض ، فيما نعرف له من بحوث ، لشؤون
اللغة ، عالمٌ بأسرارها ، خبير بمفرداتها وأساليبها ، يناقش في ضبط الألفاظ وتركيب
الجل مناقشة اللغوي البصير . وهذا ما مهد له تأدية ما يريد من المعاني ، كاتباً أو متحدثاً ،
بلغة فصيحة وعبرة مليحة . فهو يكتب ويملي ، ويحاضر ويرتل ، بالسهولة التي يقرأ
بها ، فيندفع كالسيل الذي لا تستطيع شواطئه أن تضبط أمواجه المتدفقة .

وإذا عمد إلى صورة من الصور أو شكل من أشكال البديع ، خيل إليك أنه
ماضي لاستيفائها ، أو أنه ذاهب فيها على سبيل الترشيح في الاستعارة ، كما يفعل غيره ،
ولكنه سرعان ما يتركها إلى سواها ، غير آبه لاستقصائها ، لأن هناك صوراً شتى ترحم
خياله وتندفق على لسانه أو قلمه .

لا أعرف هل نظم الشعر في صباه ، ولكني لا أستبعد ذلك لما في أسلوبه من
موسيقية اللفظ ، ووزن العبارة ، وتقطيع الجمل . كما أنه لو انصرف إلى الحماسة لكان
الحامى المدره ، لما له من ذلاقة اللسان ، وسلامة اللهجة ، ولباقة الحجة ، حتى إذا لم تجد
حجة المنطق والفكر أسعفته حجة العاطفة والشعور . ولكنه آثر أن ينصرف إلى المرافعة
في القضايا العامة ، فكان فيها من الحاميين المعدودين . ولقد كان لهذا الذي أسميناه
حجة العاطفة والشعور كبير الأثر في تحول مجرى حياته في غير مرحلة من مراحلها .

* * *

هذه صفحات عابرة شاء لها التقليد المعروف أن تتصدر هذا الكتاب بمثابة
تمهيد أو مقدمة « للمحات » . فإن كنت أيها القارئ ممن سمعوا الأستاذ دياب بك
خطيباً أو قرأوه كاتباً ، فإنها لن تنبئك بمجيد . وإن كنت ممن لم يقرأوه ولا سمعوه
— وهذا ما أشك فيه — فإنها سترسم لك عنه صورة تتضاءل خطوطها ، وتنصل
ألوانها ، إذا ما سمعته وقرأته في « اللحات » التي بين يديك .

أنظروا الجميل

الى القارى الكريم

لبث هذا القلم المتواضع يعالج الكتابة فى الصحف عامة ، وفى الصحف التى أصدرها خاصة ، أكثر من ثلاثين عاماً من الزمان ، حتى ليربو ما كتب على ألفى مقال .

ولم يقف جهده طيلة هذه الحقبة الجديدة على الكتابة ، بل كثيراً ما خطب ، وحاضر ، وأذاع .

ولما كان جمع بعض ما تفرق من هذه الآثار ، مما قدم به العهد أولاً يزال ماثلاً فى الأذهان ، عملاً قد لا يخلو من نفع قلّ أو أكثر — رأيت أن أختار للقارى الكريم فصولاً من نتاج القلم واللسان ، منها الطوال ومنها القصار ، ولكنها لا تعدو أن تكون « لمحات » — بالقياس إلى البحوث المستفيضة التى قد يستنفد علاج أحدها كتاباً برمته . وقد رأيت أن لا أتقيد فى عرض هذه اللمحات بتاريخ إلقيائها أو كتابتها ، ولا بتشابه موضوعاتها ، فأقرن كل نظير إلى نظيره ، فى باب للسياسات ، وباب للاجتماعيات وآخر للتربية والأخلاق مثلاً — وإنما سقتها مساق التخفيف على القارىء ، والترويح عنه ، بسرعة التنقل به بين أجواء الفكر وألوان العاطفة .

هذا — وقد تحررت أن لا تكون هذه اللمحات مما تذوى ثمرته بانهاء مناسبتها وانقضاء ساعته . فلم أنشر منها إلا ما ينطوى على معنى صالح للبقاء مستقلاً عن طوارىء الحداث .

فإن تصادف هذه اللمحات — على تواضعها — من قراء العربية قبولاً حسناً أردقتها بمجموعات أخرى من قطوف الماضى والحاضر إن شاء الله .

محمد توفيق دياب

(١) بأي ميزانه تزنه الحياة

سيداتي وسادتي :

ذلك السر الغامض ، الذي يبدأ بالميلاد وينتهي بالوفاة ، ذلك السر الغامض الذي نسميه الحياة ، ونرى أنفسنا في غماره متدافعين إلى الأمام أو متراجعين إلى الوراء .
ذلك البحر الخضم ، الذي تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى إذا سبحنا فيه شوطاً قصر أو طال ، نزعتنا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل .
هذه المعركة التي نساق إليها غير مختارين ، ونفصل عنها غير مختارين ، هذه الحياة ما هي ؟ وما غايتها ؟ ولماذا ولدنا ولماذا نموت ؟

ليت أحداً يستطيع الجواب عن هذا السؤال في كلمة أو كلمات . إذن لاستراح الفلاسفة وأصحاب المذاهب المختلفة في كنه الحياة . فقديمًا كان ، وإلى اليوم مازال هذا السر الرهيب موضوع البحث الملح ومثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكرين .
وليس عجباً أن يفكر الفلاسفة في مرمى الحياة ، وإنما العجب أن لا يفكر في مرمى الحياة جميع الناس ! نولد أجنة وندرج أطفالاً ، وننشأ صبية ونراهق فتياناً ، ونستوى رجالاً ، ونبلغ الكهولة ، وتدركننا الشيخوخة إن قدر لنا أن نَعْمُر . ثم ماذا ؟ ثم تجف الشجرة وتذوى الأزاهير ويتساقط الورق ، وما هو إلا نفس أخير نلفظه فإذا نحن رفات ! وذلك دون أن نفكر يوماً لماذا ولدنا ، ولماذا حيينا ، ولماذا نموت . ودون أن نفكر من أين جئنا وإلى أين نعود . وهل جئنا من عدم لنعود إلى عدم ، أم جئنا من وجود لنعود إلى وجود ؟

وأنت مع ذلك إذا أخذت سنة من النوم ، ثم استيقظت فوجدت نفسك في غرفة لا عهد لك بها ، فلن تستقر على حال من الدهش ، حتى تعرف ما هذا المكان ، ومن ذا جاء بك إليه ، وكيف جاء بك ، ولماذا ؟

ستطل من نوافذ الغرفة لترى على أى حديقة أو فناء تشرف .

ستفتح الباب ، فإن كان موصداً عاجلته حتى يفتح أو يتحطم . فإذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر يمنة ويسرة فى ذهول وحيرة ، ثم جعلت تطوف بأرجاء الدار مسائل نفسك : أين أنا ؟ وما هذه الدار ؟ ولمن ؟ وفى أية مدينة ؟ ولن يهدأ لك بال أو يستقر لك حال حتى تلقاك سيدة هى أشبه ما تكون بالمرضات ، فتنبئك بأن هذه الدار — عافاك الله — مستشفى ، وأن إغماءة طارئة غشيتك ، فخاف عليك والدك ، فأسرع بك إليه ، حتى إذا بشر الطبيب أباك بأن الأمر هين لا خطر فيه ، آثر لك الإقامة هنا أياماً ، إلى أن تستعيد صحتك فترجع إلى دارك سليماً معافى !

حينئذ تدرك حقيقة المكان ، ومن جاء بك إليه ، وما السبب ! فإذا عرفت أن الغاية هى استشفائك مما بك ، لم يزدك علمك بهذه الغاية إلا أخذاً بأسبابها واستيفاءً لشرائطها ، حتى يتم لك منها ما أراد والدك وما أصبحت تريده لنفسك .

هذا شأننا من الدهش والتساؤل إذا طوحت بنا الطوائح إلى مكان نجمله ! فما بالناس تبعثنا إلى هذه الدنيا قوة خفية ، على غير قصد منا ولا اختيار ثم تتوفانا مستضعفين على غير قصد منا ولا اختيار — نظهر ونختفي على ظهر هذا المحيط الهائل ، كاللقايع تتفتح وتتفجر فى مثل ملح البصر — دون أن يأخذنا دهش يدعوننا إلى الحيرة والتساؤل والتفكير ؟

لماذا بعثتنا القوة الخفية القديرة الجبارة إلى هذه الدنيا ؟

النقص فى هنائها أو عنائها ، فى صحتها أو فى مرضها ، فى غناها أو فقرها ، فى عدلها أو ظلمها ، فى إختائها أو لددها ، فى رفقتها أو جفائها ، أو فى مزيج من هذا كله ستين أو سبعين عاماً إذا طال بنا العمر ؟ وما ستون أو سبعون عاماً فى امتداد الأزل الذى لا أول له ، وفى امتداد الأبد الذى لا نهاية له ؟ إن العلماء ليحصون السنين التى سلختها الإنسانية على هذا الكوكب بالملايين لا بالآلاف . ويقدرّون لها البقاء فيه ملايين أخرى تربو على الإحصاء !

فما أنا وما أنت ، وما نصيبي وما نصيبك في هذا السرمذ الذي تحار فيه الأبواب ؟
ذرة ضئيلة من جبل أشم ، قطرة هينة من محيط مترام !
وإذن فما حياتك وما حياتي وما حياة هذا الجيل كله وما حياة الأمم الحاضرة
كلها ، حتى نجعل موضوع هذه المحاضرة (بأى ميزان تزن حياتك ؟) .
إن التاريخ المدون أو المكتوب لا يعدو ستة آلاف من السنين ! وهى التى شغلت
أقلام المؤرخين ، وهى التى ظهرت فيها حضارات واختفت حضارات ، وارتفعت
أمم وانحطت أمم .

وهى التى وقع فيها من المظالم والحروب ، وطغى فيها من الرق والاستعباد ،
وتقلب فيها من العقائد والأديان ، واختلف فيها من طرائق الخير والشر ، وتعاقب فيها
على الجماعات والأفراد من السعادة والشقاء ، وأظلم فيها من الضلالات والجهالات ، وأضاء
فيها من المعارف والعلوم — ما تضيق عن الإحاطة به مئات الألوف من المجلدات
ومئات الألوف من العقول ! وهذا كله تراث ستة آلاف من السنين !
وما هى من ماضى الإنسانية المجهولة ومن تاريخها غير المكتوب ! وما هى
من مستقبل الإنسانية الذى لا تتراعى إلى حدوده عين الخيال ! — إلا بمثابة الدقيقة
الواحدة من ألوف الأعوام !

إذن أليس من الغرور أن أتكلم عن حياتك وحياتي وعن ميزان حياتك
وميزان حياتي ؟ ما حياتك وما حياتي إذا قستها بهذا المقياس الخفيف ؟ .
إنك لو نظرت إليها بالمكرسكوب لعزّ على المكرسكوب أن يكشفها لمن ينظر
إليها من أفق الأزل القديم والأبد الخالد !

ألا تصدق ؟ إذن ألا تعلم أن كوكبك هذا الذى عاش فيه أجدادك من البشر
ملايين السنين ، وسيعيش فيه أحفادك ملايين أخرى لا يحصيها العد ، إن لم
يصطدم به جرم سماوى آخر فإذا أرضك هباء فى مثل قصف الرعد أو خطف البصر ؟
ألا تعلم أن هذه الأرض بماضيها الزاخر ومستقبلها العظيم الباهر إنما هى شظية تطايرت
من الشمس كما تتطاير الشرارة من التنور الهائل المستعر ، فجالت شرارتك فى الفضاء

حتى أخذت مدارها من نظامنا الشمسى واستحالت حصة (مستقلة ذات سيادة) .
أنا وأنت وهى وهو وهم وهن آحاد فى عداد ملايين الأمة المصرية . والأمة المصرية
إحدى العشرات الكثيرة من أمم هذا العصر ، وأمم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة
ترجع إلى ماض لا يدرك الخيال مبتداه ، وتمتد إلى مستقبل لا يدرك الخيال منتهاه
على هذه الأرض . وهذه الأرض شظية كانت ملتبة تنأثرت من الشمس فدارت
من نظام الكون حيث تدور !

فماذا عسى تكون حياتى وماذا عسى تكون حياتك ؟ لا سيما وأنت تعلم أن نظامنا
الشمسى ليس إلا واحداً من نظم كثيرة تماثله ، لو أطلنا التفكير فى كنهها وفى تلك القوة
الخفية التى تسخرها لقضينا أعوامنا الستين أو السبعين فى التفكير دون أن نزداد
فى تفهمها إلا ذهولا وحيرة .

سيداتى وسادتى :

هل تحملون منى كلمة جريئة ؟ إذن تفضلوا فاسمعوها .
إذا كانت الحياة هى الأعوام الستون أو السبعون التى نعيشها فى هذه الدنيا ،
من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوة هى التى بعثتنا لحكمة ، ومن غير أن
نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوة هى التى استدعتنا إليها لحكمة ، إذا كانت الحياة
مصدرها العدم ومصيرها العدم ، إذا كان مولدنا فى هذه الأرض مصادفة لم تقصدها
قوة مريدة مدبرة ، وكان موتنا مجرد انتهاء لهذه المصادفة ، إذا كان وجودنا مجرد نتيجة
آلية عضوية لمجرد تفاعلات آلية عضوية ، وكان زوالنا نتيجة مادية لأسباب مادية
لا أقل ولا أكثر .

إذا كانت أيامنا فى هذه الدنيا برزخا تاعسا بين بلقين : بلى الماضى قبل أن
نولد ، و بلى المستقبل بعد أن نموت .

إذا كنا فى هذه الدنيا مجرد أحلام زائلة وأشباح حائلة .

إذا كان كل هذا العناء وهذا الكدح وهذه الآلام وهذه الأمراض وهذه
الخطوب التى نشاهدها أو نحتملها أو نكافحها فى سبيل الإنسانية .

إذا كانت كل هذه الحضارات وهذه العلوم وهذه الفنون وهذه الآداب التي تسمو إليها الأمم جيلاً بعد جيل .

إذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات كلها ليس وراءها إلا مطلب واحد — هو أن يعيش كل فرد من الناس خمسين أو ستين عاماً محدودة بحدين : عدم مطلق منذ الأزل ، وعدم مطلق إلى الأبد ، ما عدا هذه الأعوام الخمسين أو الستين .

إذا كان الأمر كذلك ، فما أحق الأحياء الذين يؤمنون بهذا العدم من قبل ومن بعد ثم يعيشون ! إن الانتحار أولى بهم وأجدر ، أما أنا فلو كنت منهم لانتحرت !

إن هذه الأعوام الستين التي يعيشها المرء في هذه الدنيا لا تساوى في ذاتها عضة الفقر ولا ذلة الحاجة عاماً واحداً .

إنها في ذاتها لا تساوى برحاء المرض الممض نصف عام . إنها في ذاتها لا تساوى احتمال ظلم الظالمين ، ولا جبروت المتجبرين .

إن المرء ليصادف في هذه الأعوام الستين أو السبعين من ضروب الأذى ما لا يحتمله إلا لشعور واحد ، هو أن الحياة سر قديم خالده — لا حياة الجماعة فحسب ، بل حياة كل فرد من أفرادها كبر أو صغر ، جل في نفوس الناس أو هان .

إذا سألت بعض علماء المادة الذين يرون حياة الفرد مسبوقة بعدم منتهية إلى عدم ، إذا سألتهم : لماذا يعيشون ؟ قالوا : نعيش طوعاً لغريزتين : غريزة الحرص على بقائنا ، وغريزة الحرص على بقاء النوع !

أما حرصنا على بقاء أنفسنا فواضح حتى في الطفل يتجنب السقوط من علٍ ويتجنب النار اللاذعة والحفرة العميقة .

وأما حرصنا على بقاء النوع فواضح في الأم تسهر على ذرايعها ، والأب يعول أبنائه ، حتى لو كانت الأم حيواناً أعجم !

ونحن نفهم هذا التعلل بقوة الغريزة من غير السادة العلماء .

فأما وهم من أهل التفكير الذين من شأنهم أن يرجحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز، فقد كان الأولى بهم إذا لم يؤمنوا بأن حياة الفرد اتصالاً وثيقاً بالخلود — كان أولى بهم أن يدركوا أن هذه الأعوام القليلة التي ستسلمهم عما قريب إلى فناء لا وجود لهم بعده : هذه الأعوام لا تستحق منهم عناء البحث والتنقيب في مظاهر كاذبة وزبارج باطلة ، ولا تستحق منهم هذا العكوف على المعامل والآلات والمنظار المكبر والمنظار المصغر ، والتعليل والتحليل ، والكدح بالليل والنهار للوصول إلى حقائق مهما تكن في نظرهم جليلة فهي تافهة ، ما دامت هذه الخلائق الإنسانية والسادة العلماء في طليعتها ، كائنات تافهة ، تظهر اليوم من ظلام العدم ، لتنتهي في الغد إلى ظلام العدم !

كان أولى بهم أن يقفوا مبشرين بالفناء ، وأن يقولوا للناس : فيم الكدح وفيم العناء في سبيل غاية مقفرة مظلمة ! — إلى العدم العاجل بيدك أنت أيتها الإنسانية مختارة طائعة ، فذلك أكرم وأروح للبال من أن يحل بك العدم غير طائعة ولا مختارة ! يقولون إن حياة الإنسانية شيء وحياة الفرد شيء آخر .

حياة الفرد إلى العدم . فأما حياة الإنسانية فإلى البقاء .

لذلك يخدمون الإنسانية بالعلم والفن والأدب ، ليحجى الجيل اللاحق خيراً من الجيل السابق ، ولتجىء الحضارة الآتية أعظم وأروع من الحضارة الماضية .

وهذا في الحق سخف عظيم . لأن معناه أن جميع الأجيال الماضية وجميع الأجيال الآتية كانت وستكون مجرد عتبات ومدارج ، أو مطايا وبرازع ، يعلوها في النهاية آخر جيل تتمخض عنه الإنسانية ، فإذا استوى الجيل الأخير على قمة المجد ، لم يكن مجده خالداً بل كان مجده زائلاً كذلك ، ولو عمر الإنسان الأخير بفضل العلم ألف سنة ! ثم ينقضى هذا الجيل الأخير بانقضاء صلاح الأرض للحياة . وانتهت الدنيا إلى غايتها ! وفنيت حرارة الشمس وانطفأ ضياؤها ، واستحالت البحار جليداً والشجر والنبات هباء . وأمست الإنسانية عدماً مطلقاً إلى آخر نسمة فيها — ولم يبق للإنسان

المسكين حتى الذكري ، إذ منذاً يذكر الإنسان وقد انمحي من صفحة هذا الكون
آخر إنسان ، وانمحي لا ليسمو إلى عالم آخر ، ولكن ليبقى غريقاً في غمرات الفناء ،
خالداً فيها أبد الأبدين .

هل هذه إذن غاية الإنسانية ؟ !
هل غايتها أن تقضى مئات الملايين من السنين لتنضج جيلاً واحداً هو الجيل
الأخير ، ثم يكون هذا مصير ذلك الجيل الأخير ؟
أعرف الساحر الذى يخرج علبة من جوف علبة ثم يخرج الثالثة من جوف
الثانية والرابعة من جوف الثالثة والخامسة من جوف الرابعة وهكذا حتى تعد
عشرات من العلب يخرج بعضها من جوف بعض ، حتى ينتهى بك إلى علبة لا تكاد
تراها لضئولتها ، ثم يوهمك بأن فيها قطرة من سائل هو ماء الحياة . فإذا تناولها
المتناول وأسرع بالقطرة إلى فيه ليرزق الخلود خرّ على الأرض فاقد الروح — تلك
صورة فكاهية من الحياة الإنسانية كما يفهمها أولئك الماديون .

سيداتى وسادتى :
هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟
هذا الإنسان أكبر وأعظم من الأعوام السبعين أو المائة التى تمتد إليها حياته
فى الدنيا .

لكن هذا الإنسان متناقض عجيب ! أتذكرون أيامه الغابرة ؟ أيام كان يأوى
إلى الكهوف ، ويأكل الصيد نيئاً ، ويضرب فى الغابات عارياً ، ولا تكاد تميزه من
سائر الحيوان .

هذا الإنسان ما الذى هداه إلى ما هو اليوم فيه ؟ ما الذى صعد به الى المستوى
الذى بلغه فى القرن العشرين معجزة القرون ؟
فى الدنيا حروب وفيها عدوان وفيها عيوب وفيها آفات . ولكنها عيوب الصاعد

إلى المثل الأعلى رويداً رويداً . ولا سبيل إلى أن ينجو من تراث الماضي وغرائز
الأنانية الأولى كل النجاة في ألف عام . كلا ولا في عشرة آلاف .

قد يشن الحروب ويعتدى على الحقوق ، ولكن لطيفة خفية تنزع به إلى
السلام والانصاف بعض النزوع ! له اليوم قوانين وشرائع إن طغت عليها يد العدوان
يوماً ، فإن الجماعة كفيلة برد الحق إلى نصابه وإن كره المعتدون . له اليوم قيمة
وفنون جميلة وآداب أفسحت أمام عقله سباحات الهناء المعنوية !
له تعاون على البر والاحسان ، يلطف من تعاون الأشقياء على الغدر والاساءة .
له أديان مشروعة ومثل من الأخلاق موضوعة .

له طائرات في الجو وغائصات في البحر . وله أسباب ممدودة تراها العين أسلاكاً
برقية أو تليفونية أو لا تراها ، لأنها أسباب من الأثير تحمل الأصوات ، وتخفي
عن النظرات .

وهو مع ذلك متناقض عجيب ! .

ذلك الذي دوخ الأرض وسخر الجو والبحر ونفذ في الصخر وكشف من
الأسرار عجائب كانت قبل عشرة أعوام أو عشرين في عداد المعجزات .
ذلك الذي يقف وراء المدفع الضخم فيطلقه على البرج المشيد أو القرية العامرة
فإذا هي أطلال .

ذلك الذي كشف أسرار الأفلاك والكواكب والنجوم ، وعرف مزاج
بعضها وتأليف مواده وتركيب عناصره ، وقاس أبعادها وحذق حسابها حتى ليتنبأ
بحوادثها ومجرياتها قبل أن تقع بمئات الأعوام .
ذلك الذي اتخذ من الغاز سموماً ومن الهواء غذاء ومن حرارة الشمس وهدير
الماء قوة مستعملة أو م ذخورة .

ذلك الذي أضاء الليل بثريات مكهربة فكأنها شمس وأقمار .
ذلك الذي يطوف الآن حول الأرض على متن الهواء قبل أن يطوف أخوه
البدوي مناخ قبيلته على ظهر البعير .

ذلك الذى كشفت له الأشعة مكنون الجسوم واخترقت له حجب الغيب ،
فأصبح يرى ما لم تكن تراه العيون .

ذلك الانسان تقتله البعوضة ، وتمرضه نسمة الهواء ، وتشرقه جرعة الماء ،
ويصرفه الهوى عن الجادة ، ويريد الأمر المستطاع فيصرفه عنه التخاذل !

ذلك الإنسان يعدل ويظلم ، ويقسو ويرحم ، ويتخذ العلم للشر ، ويتخذ العلم للخير .
فما هذه القوة وما هذا الضعف ؟ وما هذا النور الساطع وما هذا الخلك
الدامس ؟ وكيف يجتمعان ولأيهما الغلبة آخر الأمر ؟ .

وهل يستطيع أن يستخلص من بين هذه الأطوار المتنافرة والمظاهر المتناكرة
حقيقة الحياة وغاية الحياة وميزان الحياة ! ؟ .

نعم وأبيك ، يجب أن نستطيع .

سيداتي وسادتي :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟ .

نحن تلاميذ القوة العظيمة التى بعثتنا إلى هذه الدنيا يوم ولدنا ، والتى تتوفانا
يوم يحين الأجل . نحن تلاميذها وهى تعلمنا من حيث لا نراها . وقد أودعنا سراً
يسميه الفلاسفة عقلاً وتسميه الأديان روحاً ، وأنا لا يهمنى ماذا نسميه .

هو قبس من هذه القوة العظيمة وشعاعة من نورها . وليس يولد إنسان
إلا وينطوى على هذا القبس أو هذه الشعاعة كأمنة !

وإنما توقظها تجارب الحياة من ألم ولذة وحرمان وإحراز ومرض وصحة
وإخفاق ونجاح .

فالألم يوقظ هذا السر الكمين ، ويروضه على النظر كيف ينجو من الألم .

واللذة تبعث فيه حب الاستزادة فحب الحركة فى سبيل إحراز تلك اللذة .

والحرمان يبعث فيه حب التحصيل والإحراز . ولذة الإحراز تدفعه إلى طلب المزيد

والمرض يعلمه التوقى ويعلمه الصبر والجلد . والصحة تشعره الهناء . والإخفاق

يغريه بالكدح ومعاودة العلاج . والنجاح يزيده همة وعزيمة .

كان هذا منبت الغرائز في الإنسان الأول . ثم رأى ذلك التلميذ الناشئ على
كر الأجيال أن في بعض لذاته إيلا ما لإخوته ، وأن في بعض سعادته شقاء لسواه ،
فازدادت فيه الحساسية ، فوازن قليلا بين سعادته وشقاء الآخرين ، فانصرف قليلا
قليلا عن الأثرة المطلقة ، ومازج تقديره شيء من العطف على سواه .

السر الدفين يستيقظ .. الشعاع الكمين ترسل ضوءها خارج نفسها لأول مرة .
بذرة الإنصاف والعطف والغيرية تستحيل نبتة مزهرة .

التلميذ يتعلم في مدرسة الحياة درس العدالة ، فيحاكي المعلم الأعظم الذي بعثه
إلى مدرسة الحياة .

التلميذ يدرس منهاج الفضائل في مدرسة الدنيا مكرمة بعد مكرمة ومحمدة بعد محمدة .
أليس المعلم الأعظم كريماً حميداً . وهذا تلميذه أودع فيه قلبه لينقذ بزناد
الحوادث والتجارب .

أهي البسالة والإقدام ؟ . إن المعلم الأعظم يعلو على الخواف ، فهو القوى المتين !
أهو الدأب والكفاح والعزيمة لا تعرف اليأس ولا القنوط ؟ .
إن المعلم الأعظم شديد المراس يعلو عن الفترة والوهن !
أهو البر والإحسان ؟

إن المعلم الأعظم هو المحسن البار ، وهو ينبوع البر والإحسان . وما من فضيلة
ولا مكرمة إلا اشتق أصلها من تلك القوة المهيمنة ومن ذلك المعلم الأعظم .
ولكن المعلم الأعظم لا يعلمنا الشجاعة ولا قوة العزيمة ولا البر والإحسان إلا عن
طريق الحوادث والتجارب . فقبل الشجاعة ساد الجبن حتى استيقظت شعاع المعلم
الأعظم في التلميذ فاحتقرت الجبن والجبناء . وقبل الوفاء ساد الغدر . وقبل البر والإحسان
سادت القسوة والجفاء .

وفي هذه المدرسة ما زال التلاميذ يدرسون ولن يزالوا ، وإلى جانب الأخلاق
التي تروضهم عليها حوادث المدرسة ويقظة السراكمين ، يتجه ذلك القبس إلى محاكاة
المعلم الأعظم في العلم والقدرة والإرادة . —

فلا تفتأ الأشعة الأزلية الخالدة التي تصل قلوبنا بعظمته ، لا تفتأ تبحث وتنقب في أسرار هذا الوجود ، فتستكشف اليوم قانوناً من قوانين الطبيعة ، وتستكشف غداً جوهرًا من جواهرها الخفية ، حتى استطاع التلميذ بحركة من إصبعه أن يحيل الغرفة المظلمة نوراً وهاجاً لأنه عرف سر الكهرباء .

فما كان بالأمس معجزة يرتاب في جوارها العقل ، أصبح اليوم حقيقة مألوفة لا يدهش لها الأطفال .

واستطاع التلميذ أن يشافه صاحبه بكلمات تلو كها الألسن وتسمعها الأذان ، هذا في جنوب المعمور وذاك في شماله من غير حاجة إلى أسلاك . واستطاع التلميذ أن يشارك الطير في ارتياد الجو فكان كل مخلوق في الجو سليمان .

وغاص مع الأسماك في مسارها وتبعها إلى مهاربها . ذلك أن المعلم الأعظم يريد لتلاميذه أن يحاكوا عظمته في العلم والإرادة والقدرة كما يريد لهم أن يحاكوه في المحامد والمكارم .

أليس المعلم الأعظم قديراً على كل شيء ؟ أليس فعلاً لما يريد ؟ أليس يقول للشيء كن فيكون ؟ وها هو ذا تلميذه . ها هو ذا سره وقبسه في هذه الدنيا — الإنسان . قد استطاع أن يسخر الهواء والماء والكهرباء ، وكثيراً مما نرى ولا نرى من قوى هذه الطبيعة العذراء .

سيداتي وسادتي :

إذن لا يروعنكم أن تكونوا ذرات صغيرة الأحجام محدودة الأعمار في هذه الدنيا . إذن لا تستهينوا بأنفسكم إذا قستموها بما سبقكم من الأجيال وما يخلفكم منها . حتى إذا رجع الماضي إلى الأزل وامتد إلى الأبد . ولا يهولنكم أن يكون كوكبكم شظية تنأثرت من الشمس ! فكل واحدة منكم سيداتي ، وكل واحد منكم سادتي يحمل بين طواياه سر الوجود .

هذه الأرض ستفنى . والشمس التي هي أصل الأرض ستفنى . والنظم الشمسية

على اختلافها قد يجعلها المعلم الأعظم مظاهر أخرى لقدرته وصوراً جديدة لإرادته .
لكن ذلك القبس الذى هو نفحة من روحه ، جلت روحه وعلت عن الأرضين
والشموس والأقمار ، ذلك القبس الذى يصلكم به صلة أزلية خالدة لا تنفصم ، ذلك
القبس هو سر الوجود .

فبأى ميزان تزن الحياة . أميزان الطعام والشراب والفقر والغنى والدور والقصور
والبذخ والمناعم والوظائف والمناصب ؟
أم بميزان المحامد والمكارم والعلم والإرادة وكبريات الصفات التى تحاكى بها
معلمك الأعظم ؟ .

نحن لا نحتقر الطيبات من الرزق ولا نبغض إليكم كسب المال وإنفاقه فى
سبيله الخيرة .

بل نحض على ذلك ، ففيه حفر للهمم وعود على النفس وذوى القربى وأهل
الخصاصة بالمتاع الحلال .

ولكن الأمر كل الأمر الذى أريد أن أذكر نفسى به وأذكركم ، هو أن كل
مرافق الحياة من متاجر ومزارع وصناعات ، ومن مطاعم ومشارب ومساكن ،
هى أدوات ووسائل لا بد منها . ولكنها ليست غايات .

أذكر نفسى بهذه الحقيقة الأولية وأذكر بها حضراتكم لا غضا من الوسائل
ولا صرفاً لكم عن اتخاذ الأدوات ، ولكن لأنك لو أحصيت فى زماننا هذا أولئك
الأيقاظ الذين لم تصرفهم وسائل الحياة عن غاية الحياة ، لأفئتهم نزريراً لا يبلغ
عددهم فيما أحسب واحداً فى كل ألف .

أولئك يزنون الحياة عامة ، ويزنون حياتهم خاصة ، بما تحوى جيوبهم من مال ،
لا بما تحوى نفوسهم من خصال ، وبما يشغلون من مناصب ، لا بما يخدمون من مبادئ .
سيداتى وسادتى :

هذه الأرض مدرسة بعثنا إليها بديع السموات والأرضين . وهذه حقيقة الحياة
حياة الأفراد وحياة الأمم . وغاية هذه الحياة هى أن تحاكى صفات المعلم الأعظم .

تحاكى عظمته في غير صلف . تحاكي رحمته في غير ضعف . تحاكي علمه وقدرته في غير زهو ولا فخار . تحاكي إرادته في غير تجبر ولا غرور .

سيداتي وسادتي :

في هذه المدرسة الربانية الكبرى تلاميذ مختلفة درجاتهم . فمنهم المبرز ومنهم المتخلف . فلا تعجبوا إذن لبعد ما بين الناس من تفاوت في الأخلاق والعزائم والعرفان . لكن حين يعلم الناس أنهم هاهنا تلاميذ ، وأنهم لم يرسلوا إلى الحياة لعباً ولهواً ، وأن معادهم هو ينبوع النور والعرفان والفضائل في كل قلب مضى ورأس عامر بالعلم ، ونفس خفاقة بالشعر أو ببذائع الفن الجميل . حين يعلم كل ذي موهبة ، وكل ذي فضيلة ، وكل صاحب اختراع ، وكل مستكشف لسر من أسرار الطبيعة ، أن ملهمه ومرشده هو ذلك القبس المستمد من قوة الله ، حينئذ يبطل الغرور حياء من الله ، وتتضاعف لهم مرضاة للعمل الأعظم ، ويكون ميزان حياتك هو مبلغ محاكائك لصفات المصدر لكل عظمة من عظام الصفات .

(١) ثروتنا الخلقية

سيداتي وسادتي :

ثروتنا الخلقية تعبير غير مألوف ، وإنما المألوف أن يتكلم الناس عن الثروة العقارية أو الزراعية أو المعدنية ، فيكون كلامهم مفهوما .

ويتحدثون أحيانا عن الثروة الفكرية أو العلمية أو الفنية — يريدون آثار العلماء والأدباء وأصحاب الفنون ، مما نقرؤه في الكتب والصحف ، أو نشاهده في المعارض والمتاحف ، ولكل أمة نصيبها من هذه الثروات .

أما (الثروة الخلقية) فتعبير أزعجني أنه جديد، ألقي في روعي من حيث لا أحتسب ؛ ذلك أنني أردت اختيار موضوع لهذا المقال ، فلبثت بضعة أيام كلما عرض لي موضوع زهدت فيه ، حتى صحت ذات صباح ولساني يقول : (ثروتنا الخلقية) فأيقنت أن النفس الباطنة كانت يقضى تشتغل وتبحث ، حتى اهتدت إلى هذا الموضوع أو هذا « الاكتشاف » .

وليس جديداً أن يبحث الباحث في موضوع الأخلاق ، فهو مبحث الناس في جميع الأجيال . وإنما الجديد ، فيما أعلم ، أن تسمى أخلاق الأمة أو أخلاق الفرد « ثروة » مع أن الأخلاق لا توزن كما يوزن القطن ، ولا تكال كما يكال القمح ، ولا تعد كما تعد الجنيهات أو ما يماثلها من الأوراق . والأخلاق كذلك لا تحصى كما تحصى مؤلفات العلماء أو آثار الأدباء ورجال الفن في كل جيل . إذ الأخلاق لطائف نفسية مودعة في القلوب والصدور . بل القلوب والصدور التي نعرفها بين الجوانح ليست أوعية للأخلاق إلا على سبيل المجاز ، فكيف إذن نسمى هذه الوظائف المعنوية ثروة ؟ لكن نفسى الباطنة احتجت على هذا المنطق . قالت : « سبحان الله ! ألا يكون ثروة إلا ما يؤكل ويشرب ويوزن ويكال ويكتب ويقرأ ؟ إذن ماذا تقول في الكهرباء ؟ وهل تحسبها الخواص مقطوعة عن الأسلاك ؟ هذه القوة التي تكون نوراً فتضيء

وتكون ناراً فتحرق . وتكون حياة لكثير من المرضى ، وتكون موتاً يعاقب به القتل في أمريكا . هذه القوة الهائلة التي تدار بها المصانع في جنبات الأرض ، ويتضاعف بها نشاط العمران كل يوم — ألا تسميها ثروة ؟ لا لسبب سوى أنك لا تعرفها إلا بآثارها ؟ وهى مع ذلك تقاس . نعم لا توزن بالرطل ولا تكال بالأردب . لكنها تقاس بالكيلوات ، وتحصى بالعداد ، ويشكى غلاؤها ويسرق تيارها ، ويرفع الأمر فيها إلى القضاء .

الأخلاق ثروة للأفراد والأمم ، وإن تكن صفات مغنوية موطنها النفوس . بل هى لا تكون ثروة إلا إذا كانت النفوس موطنها . ولو قرأ قارئ كتب الأخلاق من عهد أرسطو إلى عهد ابن مسكويه ، إلى عهدنا الحاضر ، لجرد الإلمام والاطلاع ، دون التخلق بما فيها والانطباع بمعانيها ، لظل ضميره فقيراً إلى الأخلاق ، وإن امتلأ رأسه ببحوثها ومسائلها ، كدارس القرآن الكريم من حيث فصاحة بيانه ، وإعجاز أسلوبه ، أو من حيث أحكام الفقه وعلم المواريث — قد يخرج من دراسته قرآنى البيان دون أن يتخلق بأخلاق القرآن ، وقد يخرج من دراسته أعلم العلماء بالفقه والتورث دون أن ينير قلبه بروحية القرآن .

وإنما ضربنا هذه الأمثال برهاناً على أن الخلق موطنه النفس والضمير ، وليس موطنه الذهن والدماع كالحساب والهندسة . فكم من رءوس فياضة بالمعارف تصحبها نفوس فياضة بالردائل . وكم من رءوس لا تكاد تعرف أحوال القراءة والكتابة تصحبها نفوس كبيرة وهمم عالية وخلق كريم . لم يكن محمد رسول الله يقرأ أو يكتب ، ولم يكن يقرأ أو يكتب محمد كبير بيت مصر المالك .

لكن محمداً رسول الله أحيا الإسلام بوحي ربه ، لأنه كان على خلق عظيم ، بشهادة أصدق القائلين ، وشهادة نوره الساطع فى العالمين . ومحمد جد الفاروق أحيا مصر الحديثة لعهد ، بوحي من ضميره ، لأنه كان عظيم الخلق ، بشهادة ما بعث فى مصر من عظمة لو اتصلت حلقاتها لكانت أمتنا اليوم من كبريات الأمم .

ثروة مصر الخلقية تتألف من أخلاق أفرادها ؟ كما تتألف من أموالهم ثروتها المالية . وإني لأخشى أن تكون ثروتنا الخلقية ، مرهقة بالديون ، مهددة بالإفلاس ، كثروتنا العقارية . وليس الدائنون — في هذا المجال المعنوي — بنوكا ومصارف ، أو مستغلين دخلاء يرهقوننا بالربا الفاحش . إنما الدائن الذي يهدد كيانه الأدبي ، إنما الغريم الذي يطارد في نفوسنا أكرم عناصرها ، ويكاد يخنق في ضمايرنا أسمى معاني الرجولة ، إنما العدو اللدود الذي يفتك بنزعاتنا إلى الخلق العظيم — إنما ذلك الدائن المرهق ، وذلك الغريم الملح ، ذلك العدو اللدود ، هو الأنانية ، هو الإفراط المنكر في حب الذات ، هو استهانتنا المنكرة بواجباتنا ، واستهانتنا المنكرة بحقوق من سوانا مادام في الأمر إرضاء لشهواتنا أو راحة من عنائنا أو تحقيق لمنافعنا .

تسأل الشاب ، بل الكهل الغنى المستهتر : ماذا يمنعك من الزواج ؟ فيجيبك : مالى ولهذه التبعة ؟ إن في المتاع المباح متسعاً لأمثالي . وما هو بمباح إلا عند من أسقط عن كاهله واجب المروءة ، وواجب بناء الأسرة ، وواجب تقديس الحرمات ، وأسقط عن كاهله حقوق ذويه من العشيرة والأهلين . فإن يقصد بالمباح ، تلك المباديل التي إن أجازها القانون ، فقد لعنها الله ، فياله من متاع وبيء تطيب لهم خبائثه حتى أرذل العمر .

لكنها الأنانية ، فيها إرضاء لشهواته ، وإراحة له من عناء الزوج والولد . تسأل الموظف — أو نقول بعض الموظفين ، حتى لا يغضب الجميع — ماذا يشغل بالك ويملك عليك أحلامك بالليل وليلتك بالنهار ؟ فيجيب : « درجة رابعة خالية » . تسأله : وهل أنت أحق زملائك بها ؟ يجيب : كلا . — إذا كانت المسألة بالأقدمية . لكن المسائل كلها اليوم محسوبيات وصلات ووسائط ووسائل . ويكاد يبكي المسكين ، ويسب الأولين والآخرين ، ويدعو على الدنيا بالخراب — وليته صاحب حق ولكنها الأنانية .

الأنانية هي التي تزين للطالب أن يطلب العلم للشهادة ، لا الشهادة للعلم .

حتى إذا أحرزها، اتخذها صكاً على الدولة ، يتقاضى به الجلوس طيلة حياته إلى المكتب ،
بأجر محدود ولكنه « مضمون » .

قاتل الله الأنانية . فهي التي تزين للصانع أن يكسل ما استطاع الكسل ، وأن
يقصر في الإنفاق ما استطاع التقصير .

هي التي تزين للتاجر أن يجمع أرزاق الناس بثمر رخيص ، حتى إذا صرحت
حاجتهم إليها — باعهم إياها بأفخس الأرباح ، لولا حماية التسعيرة ، التي يغفلها
كلما استطاع .

قاتل الله الأنانية . هي التي تزين لشاهد الجريمة أن يكتم شهادته عن القضاء ،
رهباً أو رغباً ، فتحفظ أكثر القضايا ، وتهدر دماء المئات من الضحايا كل عام .

هي التي تزين للأدنياء شهادة الزور ، وللفتاك قتل الأبرياء بثمر معلوم ،
قاتل الله الأنانية . هي التي فككت أو أصر الجماعة المصرية في البيت والنادي ،
وفي المدينة والقرية وكلما اجتمع ولو شريكاً اثنان في عمل ، قطعت ذات بينهما
كأسرع من قطع السكاكين .

هي التي تزين لصاحب الأفدنة الألف ، أن يبذل علفاً لثوره ، أضعاف ما يبذل
أجراً لعامله .

قاتل الله الأنانية . فهي تغل يد الغني عن إغاثة الملهوف إذا نزلت به النكبات
ومزقته الصواعق . هي التي تمزق الجماعة أحزاباً والحزب شيعاً — والشيعه آحاداً
متحاسدين .

هي التي تجعل المناصب مغام ، وتجعل المغام قسمة بين المحظوظين .

هي التي تجعل الكبير مزهوا بطراً ، وتجعل الصغير حاسداً ضجراً .

قاتل الله الأنانية . فهي التي تكاد تحمل كل مصرى على أن ينسى المصرى
في وقت محنته ، حتى لنخشى أن ينسى الجميع هذ الوطن ، أن حلت به الكارثة .

إن لنا في فرنسا عظيمة الأمس وضحية اليوم — لعبرة أى عبرة .

ثروة فرنسا في المال لا تحصى . زراعتها ، معادنها ، صناعاتها ، كانت مشار حسد النظائر والجارات . علومها . — آدابها فنونها « مثل عليا للعبقرية » لكنها انهارت بعامل واحد، صارح به الملاً شيخها « بيتان » قال وتكاد عيناها تبيض من الحزن وهو كظيم: — إن فرنسا انهارت لآفة فتاكة، طغت فيها على الأخلاق، ولم تكن تلك الآفة سوى الأنانية — أى حب النفس ونسيان الوطن. ولو تلوت عليكم كلامه المحزن في هذا المقام، لأخذكم من الخوف على مصر مثل ما يأخذنى . ذلك أن بطل فرنسا بالأمس والفارق في ويلاتها وكروبها اليوم — يصف الأخلاق التى أودت ببلده العظيم ، وكأنما يصف الأخلاق في مصر اليوم .

أفلا يحق لنا إذن أن نعتبر؟ أفلا يحق لنا أن نوقن من أن ثروة الأخلاق إذا أفلست ، لم تغن عنها ثروة المال ولا ثروة العلم والأدب فتيلًا؟ وإلا لأنقذت فرنسا قناطرها المقنطرة وأدبها الأسمى وفنها الرفيع .

أليس يحق لنا بعد هذه العبرة الفاجعة ، أن نسمى أخلاق الأمة ثروة . وأن نرفعها فوق ثروة العلم وثروة المال ، لأنها ثروة النفس وثروة الضمير وثروة الروح؟ إذا كان مصرع فرنسا آية رهيبية على أن الأمم الأخلاق وجوداً وعدماً ، كما قال شوقي وأيدته فاجعة فرنسا واعتراف بيتان ، فهناك آيتان أخريان لن ينساها التاريخ . أريد آية الأخلاق في بريطانيا العظمى ؛ وآية الأخلاق في اليونان الباسلة المتواضعة ! من كان يوقن بعد انهيار فرنسا — بل قل بعد انهيار أوربا الوسطى وأوربا الغربية كلها — أن تصمد تلك الجزيرة العجيبة هذا الصمود العجيب ؟ إني لا أريد أن أعرض لشئون الحرب ولا لشئون السياسة في هذا الحديث، لأنى أنشره في مجلة الشئون الاجتماعية . وما أحب أن أعدل بأبحاثها عن شئون الاجتماع . غير أن انتزاع الشواهد من مسالك الأمم في الخطوب، مطلب أسامى لكل من يبحث في شئون المجتمع ، وما أظن في الدنيا إنساناً ، ولو كان هذا الإنسان ألمانياً أو إيطالياً ، سلت من نفسه الأحقاد، إلا يحنى رأسه إجلالاً لعظمة الثروة الخلقية التى تجلت في بريطانيا واليونان . أما اليونان فروعة موقفها حديث القاصى والداني ، وإن استطاع الايطاليون

في الغد ما لم يستطيعوه معها بالأمس ، فقد سجلت اليونان لنفسها صفحة مجد لن تزول .
وأما بريطانيا فالحديث فيها أطول وأضفى مما تتسع له السطور الباقية :
لكنني أعلن إعجابي على مسمع من أبناء وطني جميعاً — بالبطولة التي أدهش
البريطانيون بها الدنيا في ستة شهور ، لا من حيث الاستماتة والاستبسال في البر والبحر
والبحر ، بل كذلك وفوق ذلك من حيث اضطبار المدنيين للمكاره الجلى ، وخروجهم
عن أكثر أرزاقهم تمويلاً لحرب قال رئيس حكومتهم إنها قد تطول سنين . وما أنس
لأنس حملة النواب البريطانيين والصحف البريطانية على وزير مالية إنجلترا ، يوم أعلن
في مجلس العموم أنه رأى جعل ضريبة الدخل ، نسبة تتراوح بين خمسين وثمانين
في المائة من رزق كل مواطن . وما أنس لأنس حملة النواب والصحف عليه في ذلك
الحين ، لأنه اشتط وأسرف في تقدير الضريبة ، بل لأنه بالغ في القناعة والإشفاق ،
ثم تجاوزت الأصداء في أنحاء البلاد ، بأن الأمة على استعداد لبذل المزيد فداء لبريطانيا
العظمى — نعم العظمى . لا بالأساطيل . فلغيرها أساطيل أحدث . ولا بالجيش ،
فلغيرها جيوش أضخم ، ولا بالطائرات ، فلغيرها طائرات أكثر — ولكن بريطانيا
العظمى بهذه الأخلاق — بهذه الثروة المعنوية التي لا تغنى على الإنفاق .

ليس رجالاً من لا يعجب بالرجال . ولا عظماء من لا يعجب بالعظمة . وأمتنا
المصرية مهما اخف عليها عواقب الأنانية — أمة عريقة النسب كريمة العنصر ،
فيها عظمة وفيها رجال .

والله أدعو أن يوفقنا للعمل على تنمية ثروتنا الخلقية ، بقدر ما نعمل على ترقية
ثروتنا الزراعية والعلمية أو أضعاف ذلك ، وأن يجعل اهتمامنا بمقاومة « الأنانية » —
أعنى دودة الأخلاق — بقدر اهتمامنا بمقاومة دودة القطن ، وسائر السموم والحشرات .

(١)

تطور الصحافة المصرية

١ — منذ سبعين سنة أو نحوها كانت الصحف المصرية تصدر في ظلال القانون العام، وكان القانون العام وحده مرجع العقوبة في جرائم النشر، دون التجاء إلى قانون شاذ أو قيود خاصة. فصدرت جريدة وادي النيل سنة ١٨٦٦، وجرائد التجارة والمحروسة والأهرام سنة ١٨٧٥، وجريدة الوطن سنة ١٨٧٦، وجريدة مصر سنة ١٨٧٧.

٢ — أخذت الروح الوطنية تستيقظ من سباتها في أواخر عهد اسماعيل، مصحوبة بعطف جديد على الوحدة العربية، كان مصدره تعاليم جمال الدين الأفغاني وحماسة مريديه وتلاميذه. فدبت في صحافة ذلك العصر حياة جديدة، بدأ نشاطها قوياً رهيباً في عهد توفيق، وصدرت في عهده صحف فياضة بالأمانى والآمال، كجريدتي الطائف والمفيد، خشيتها الحكومة الخديوية، فعمدت إلى تقييد الصحافة بقانون المطبوعات، أصدرته سنة ١٨٨١ أى قبل الاحتلال بعام.

٣ — لكن المغفور له مصطفى فهمى باشا، استطاع أن يعطل قانون المطبوعات سنة ١٨٩٥. وكانت الصحف الوطنية في ذلك العهد شديدة الحملات على الاحتلال وعلى الحكومة. بل كان بعضها يتصدى بالقول الصريح لأعلى مقام، ولم تفكر السلطات يومئذ في تجريد السيف من غمده لتعطيل المؤيد أو إلغاء اللواء. ولو تأخر الزمان بأمثال صاحب المؤيد وصاحب اللواء عشرين سنة، أو تقدم عشرين سنة بأمثال دولة... لم يكن من المستبعد أن يعرف الزميلان الراحلان عن ملابس السجن وشاراته أكثر مما عرفا عن ملابس التشريف وأوسمة الشرف.

٤ — لكل صناعة آفات . وكان من آفات الصحافة طفيليات استباححت الإمعان في تناول الشئون الشخصية ، وارتخاص الآداب وانتهاك الحرمات ، فطلبت الجمعية العمومية سنة ١٩٠٢ ، ثم طلب مجلس شورى القوانين بعد ذلك إلى الحكومة ، أن تضع قانوناً خاصاً بالصحافة يقي الناس شرور طفيلياتها المؤذية .

لكن فيم هذا الطلب ، وقد كان القانون العام كفيلاً وحده بصيانة الآداب والكرامات والأعراض من كل عدوان بالقلم أو اللسان ؟

٥ — عارض لورد كرومر وقال في تقريره سنة ١٩٠٥ : « إن من رأيي أن تبقى الصحافة في مصر حرة غير مقيدة بقانون خاص . ولست أرى من الجائز أو من المستحسن أن تمس الحرية العامة التي تستمتع بها الصحافة المصرية » .

٦ — وفي يونيه سنة ١٩٠٦ وقعت مأساة دنشواي ، فهالت فظاعتها رأى مصر العام ، بل رأى العام في العالم المتمدن كله ، وتوالت صحيفات الصحف العربية وفي طلعتها اللواء والمؤيد اشتبشاعاً لما كان ، فأحدثت هذه الضجة المتجاوبة الأصداء أثرها في إنجلترا ، واعتزل لورد كرومر منصبه الذي قضى فيه عشرات السنين أشبه ما يكون بملك مطاع .

٧ — وحل محله سير ألدن غورست في سنة ١٩٠٧ ، وهو على علم بأن الصحافة المصرية كانت من أكبر العوامل على زحزحة سلفه من حصنه الحصين . فلم يكن بدعاً أن يضرر للصحافة سوءاً ، بدأ أول مابداً في تهمة صحفية وجهت إلى المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان يومئذ يتولى تحرير اللواء .

ذلك أن جريدة اللواء نشرت مقالا أسندت فيه إلى حكومة السودان إصدار حكم بالإعدام على سبعين سودانياً ، وأنفذته في أربعين منهم في قضية (الكاملين) . قدم الأستاذ جاويش إلى المحكمة الابتدائية فبرأته من التهمة الأصلية ، ولكنها أدانت في تهمة فرعية هي القذف في حق وزارة الحرية .

واستؤنف الحكم فقضت محكمة الاستئناف ببراءة الشيخ جاويش من التهمتين .

٨ — هنالك ثارت نائرة العميد الجديد ، فعرض بنزاهة قضاة المحاكم الابتدائية

لا لسبب سوى أن واحداً منهم برأ متهماً أنحى على السياسة الانجليزية باللائمة .
ولعل هذه القضية وأمثالها كانت من الأسباب التي حدت بالحكومة إلى إحالة
جرائم الرأى على محاكم الجنايات .
ولم يحاول سير ألدن غورست أن يخفى حنقه على الصحافة المصرية ، وحرصه
الشديد على تقييدها ، خلافاً لسنة سلفه الداهية . وإليك فقرة من تقرير له في هذا
الشأن قال : —

« ازداد قسم من الجرائد العربية في مصر قدحاً وكلاماً قارساً ازدياداً عظيماً
في السنوات الأخيرة . وطفق ينشر الأراجيف والأخبار الكاذبة ، وينشئ المقالات
المضللة عن أعمال الحكومة ونياتها ، ويلقى فيها الكلام على عواهنه بغير حساب ،
فيزيد إدارة البلاد صعوبة على صعوبة ، وهو يعتمد في كثير من مقالاته إيفار صدور
العامة الذين هم الآن ولا يزالون إلى ما شاء الله من الزمان في غاية من السذاجة
لا يتيسر لهم معها نقد الأكاذيب والمفتريات والمطاعن التي تتلى على مسامعهم في بلادهم
كل يوم » .

« وترى الشبان المصريين الذين لا يزالون يتلقون العلوم في المدارس الابتدائية
والثانوية والعالية ، يتهافتون على مطالعة هذه المقالات وأمثالها حتى لقد أفسدت ضمائر
الأحداث المصريين الذين تعلق عليهم الآمال في بلوغ مصر الحكم الذاتي ، بكثرة
ما يلقى على مسامعهم من أقوال الحماقة والجهل يوماً فيوماً » .

٩ — وما أشبه هذه اللهجة القديمة على لسان سير ألدن غورست باللهجة التي
اتخذها دولة ... وفقهاؤه ، لتبرير القوانين الشاذة التي ابتدعوها لتعجيز الصحف
عن أن تقاوم طغيان الطغاة ومطامع الطامعين وعمل العاملين على انتقاص حقوق
البلاد .

ويتجلى الشبه العظيم بين أقوال سير ألدن غورست سنة ١٩٠٧ وأقوال
دولة ... وفقهاؤه سنة ١٩٣٠ في فقرة مأخوذة عن بيان دولته للتعديلات التي أدخلها
على دستور سنة ١٩٢٣ قال : —

« والواقع أن طائفة من الصحف المصرية هي التي تبوء بتبعية استمرار المحنة التي امتحنت البلاد بها في وحدتها . وهي المسئولة عن كثير من فساد الآداب العامة ، ومن تسميم العقول ، وحشو الأذهان بمختلف الأوهام والمفتريات .
« نعم قد كفل ويكفل قانون العقوبات لهذا النوع أسباب الزجر بما حدد من جرائم ، ورتب من عقوبات ، غير أن انتهاك الأحكام الخاصة بجرائم الصحف ، يختلف عن من ينتهك أحكام القانون الأخرى — في أن فعلته أوحى أثراً وأنفذ فعلاً وأوسع دائرة وأعصى علاجاً » .

١٠ — على أن سير الدين غورست مع ذلك لم يقدم على السعى لإدخال تعديل على قانون العقوبات ، لما خشى من نقمة المصريين على التعرض للقانون العام .
لذلك حصرهم في السعى لإحياء قانون المطبوعات ، لأن نصوصه كفيلة بوقف الصحف أو إلغائها بأمر من ناظر الداخلية أو قرار من مجلس النظار .

١١ — لم يفقد لورد كرومر نفوذه في سياسة مصر بعد اعتزال منصبه . وظل كلما استشارته حكومة في إحياء قانون المطبوعات ، أجاب بأنه مقيم على رأيه القديم ، حتى أنهموا إليه أن مصر قد تبدلت فيها الحال غير الحال ، وأن جيش الاحتلال على الرغم من زيادته لم يعد يستطيع كبح جماح الرأي العام الثائر على الانجليز ، المطالب بالدستور والجللاء .

فلم يسع الرجل ، وقد جسموا له الخطر ، سوى أنه يفتي بأن الحالة في مصر أصبحت تستدعي حماية الأجانب ، وأنه لا يرى بأساً من موافقة حكومة سمو الخديو على إعادة قانون المطبوعات ، لاسيما وهو موقن كل اليقين بأنه لن يطبق إلا عند الضرورة القصوى ، وعلى من يستحق تطبيقه من الصحفيين المتطرفين .

وفي سنة ١٩٠٩ بعث القانون الميت من مدفنه كما خلقه الخديو توفيق

في سنة ١٨٨١

١٢ — وظل قانون المطبوعات قائماً في مصر حتى نشبت الحرب العظمى ، فأعلنت الحماية والأحكام العرفية ، وبدأت الرقابة على الصحف في ٤ نوفمبر سنة ١٩١٤ ،

والغيت في ٢٧ يونيو سنة ١٩١٩ ، على أن يراقب الصحفيون صحفهم بأنفسهم . فلما استعصى عليهم القيام بهذه المهمة العجيبة ، أعيدت الرقابة في ٥ مارس سنة ١٩٢٠ وظلت قائمة حتى ألغيت في ١٥ مايو سنة ١٩٢١

١٣ — وفي ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ألغيت الحماية ، وأعلنت مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وألفت لجنة لوضع الدستور يعينها هنا من أمرها مناقشتها حول حرية الصحافة تمهيداً لوضع المادتين (١٤ و ١٥) من الدستور وتجريان بالنص التالي :
(حرية الصحافة مكفولة ، ولكل إنسان الإعراب عن فكره بالقول أو الكتابة أو التصوير أو بغير ذلك في حدود القانون) .

(الصحافة حرة في حدود القانون ، والرقابة على الصحف محظورة . وإنذار الصحف أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الإداري محظور كذلك ، إلا إذا كان ضرورياً لوقاية النظام الاجتماعي) وقد نصت المذكرة الإيضاحية على أن المراد بعبارة (وقاية النظام الاجتماعي) (وقايته من البولشفية) :

١٤ — وأبدت لجنة الدستور في خلال مناقشتها غير شديدة على حرية الصحافة ، فكان مما قاله أحد أعضائها (على ماهر باشا) .

(إن الحرية الصحفية هي المظهر الأول لسائر أنواع الحريات الأخرى . وإنما أريد من إثبات هذا النص أنه لا يمكن ، ولا للبرلمان في الأحوال العادية ، وضع الصحافة تحت أية مراقبة ، ولا يكون للسلطة الإدارية الحق في منع أحد من إصدار صحيفة . وأرى أن يكون هذا الحق ثابتاً مطلقاً من كل قيد ، فإذا أساء أحد استعماله بأي نوع من أنواع الإساءة ، ففي القانون العادي غنى وكفاية) .

ولم يكن عبد العزيز فهمي « بك » يومئذ أقل حماسة من زميله في تأييد حرية الصحافة فكان مما قاله : —

(عرض لي كذلك المبدأ الآتي : — لا حاجة إلى تصريح سابق من أى سلطة كانت لإخراج أى نشرة من أى نوع يكون ، ولا يجوز اقتضاء أية ضمانات من مؤلف النشرة أو مديرها أو ملتزم طبعها أو طابعها . والمراقبة والإنذارات الإدارية للنشرات

المطبوعة ممنوعة ، إلى أن قال : — والحرية نفسها كفيلة بتنظيم نفسها وتطورها مع الزمن إلى الأصلح الأنفع .

١٥ — كانت تلك يومئذ أقوالهم . ولا عجب . فذلك هو المبدأ الذى تأخذ به أكثر البلاد المتحضرة . وفى مقدمتها إنجلترا وأمريكا . فلا قيود للصحافة هناك سوى قيود القانون العام . وقد حرّم التعديل الأول لدستور الولايات المتحدة على الكونجرس ، وهو الهيئة النيابية الكبرى فى الولايات المتحدة أن يضع أى قانون يقيد من حرية النشر كائناً ما يكون .

١٦ — صدر دستور سنة ١٩٢٣ كفيلاً بحرية الصحافة وحمايتها من الإلغاء والتعطيل ، إلا فى حالة واحدة هى الحىض على قلب النظام الاجتماعى ، أى على الدعوة إلى البلشفية ، وكان صدور الدستور إلغاء لما احتوى قانون المطبوعات من مواد تنص على عقوبات . وإنما بقيت منه المواد الخاصة بتنظيم صناعة الصحافة . غير أن كثيراً من المواد الرجعية فى قانون العقوبات ظل قائماً ، وفيه نصوص كثيرة تبيح عقوبة الصحف بالتعطيل والإلغاء .

١٧ — وعندنا أن عقوبة التعطيل أو الإلغاء ، مهما تكن الجريمة ، عقوبة مخالفة لروح الدستور ونصه . ذلك أن صناعة الصحافة ليست جريمة بذاتها ، كتزيف النقود أو تهريب المنوعات أو إحراز المخدرات أو فتح أندية القمار ، حتى يجوز تعطيلها كصناعة ، أو مصادرة ما يستعمل فيها من الأدوات والأموال ، بل هى صناعة من أشرف الصناعات ومن أعظمها خدمة للمجتمع . فلا ينبغى أن تعامل معاملة الصناعات الممقوتة المحرمة . وهل تصدر المنابر أو تغلق المساجد أو تعطى المدارس لأن خطيباً أساء استعمال المنبر ، أو مؤذناً نادى بغير الصلاة ، أو مدرساً ارتكب فى معهده أمراً يحرمه القانون ؟ عقوبة تعطيل الجريدة أو إلغائها منافية أشد المنافسة لروح الدستور بل لنصوصه البارزة .

إن الدستور ينص على المساواة بين المصريين لدى القانون (المادة ٣-) وليس من المساواة فى شىء أن ينفرد الصحفيون بعقوبة لا توقع على سواهم من أبناء الوطن .

وإلا فمن من المصريين تعطل مزرعته ، أو يخرب مصنعه ، أو يصادر رأس ماله ،
لجريمة متصلة بالمزرعة أو المصنع أو رأس المال ، ولو كانت جريمة القتل العمد التي
يعاقب مجترحها بالإعدام !

إن أطفال المحكوم عليه بالإعدام ليملكون بعد موته أن يستأنفوا أعمال أبيهم ،
وأن ينتفعوا بميراثه ، وأن يصلوا ما قطعه حكم القضاء على أبيهم من أسباب الحياة .
فلماذا يعامل الصحفي مالا يعامل القاتل الفتاك ؟ .

وعقوبة التعطيل أو الإلغاء خروج صارخ على مبدأ مأخوذ به في جميع الشرائع
والقوانين . وهو أن لا تمتد العقوبة إلى أشخاص لا يد لهم في الجريمة .

وهل من الناس من يزعم أن العمال الذين يصفون الحروف ، أو العمال الذين
يديرون المطبعة ، أو المهندس الذي يتعهداها ، أو الحسبة الذين يتولون دفاتر الجريدة ،
أو الباعة الذين يرتزقون منها ، أو أبناء صاحب الجريدة وآل بيته الذين قد لا يكون لهم
مصدر للرزق غير الجريدة — هل من الناس من يزعم أن لأحد من هؤلاء يداً
في الجريمة أمام القانون ؟ .

وعقوبة التعطيل أو الإلغاء مصادرة للملكية بطريق غير مباشر . فإن الصحفي
الذي يشتري مطبعة ضخمة قد يبلغ ثمنها عشرة آلاف من الجنيهات أو تزيد ،
إذا ألغيت جريدته فامن يبيع مطبعته وبأى ثمن ؟ أو كيف يفى بالتزاماته إذا كان
ثمنها مقسماً على سنين ؟ وكيف يدفع الدين للدائنين من تجار الورق والخبر ومن إليهم
ممن يعاملون الجريدة معاملتهم لكل عمل صناعي محترم ؟ تلك مصادرة للملكية بطريق
غير مباشر ، والدستور يقدر الملكية ويحرم مصادرة الأموال .

وليس بخاف على أحد أن الصحف الجديرة باسمها أشبه ما تكون بالمرافق
العامة ، لأنها أداة للثقافة العامة ، ووسيلة فعالة إلى المصلحة العامة ، وسهم ناشب
في صدر الباطل ، ذائد عن حياض الحق ، فكيف تعاقب بالتعطيل أو الإلغاء ،
على فرض أن شخصاً بعينه قد اتخذها في بعض جهاته أداة لمخالفة القانون ؟
هل عطل أو ألغى منصب رئيس الوزارة ، أو صودرت أدوات ديوان الرئاسة ،

وأغلقت وزارة الداخلية ، لأن دولته... اتخذ هذا المنصب أداة لمخالفة القانون في كثير من أعماله ، بل اتخذ أداة لهدم الدستور الذي أحرزته مصر بالجهد الجهميد والمهج الغوالى !

١٨ — لكن دولته لم يكتف بما كان يحتوى قانون المطبوعات القديم من نصوص تقضى بإلغاء الجريدة أو تعطيلها من جرائم النشر ، فعمد إلى تلك المواد فوسع نطاقها وأضاف إليها ، وضاعف من عقوبة الغرامة فيها وعقوبة الحبس . ثم لم يكتف بذلك حتى عمد إلى قانون المطبوعات نفسه ، وقد كان دفيناً بفضل دستور سنة ١٩٢٣ ، عمد إليه فبعثه من مدفنه ، وضاعف من المواد المسمومة فيه . وإليك مثالا من مواده الجديدة في قانون مطبوعاته الذى أصدره سنة ١٩٣١ ، وتجري المادة (٢١ منه) بما يلى :

(كل جريدة تستمر على الصدور باسمها القديم أو باسم آخر بعد إلغائها تطبيقاً لأحكام هذا القانون ، أو أى قانون آخر ، يعاقب كل شخص مسئول عن صدورها . وفى هذه الحالة تضبط نسخ الجريدة وأدوات طباعتها إدارياً بمجرد ضبط الواقعة ، وتصادر) .

فإن لم يكن (دولته) قصد إلى المطبعة نفسها حين أجاز مصادرة (أدوات الطباعة) ، فإنه لم يفته أنه ينص على جواز إغلاق المطبعة كما ترى فى المادة (١٤) من ذلك القانون :
(كل مخالفة لأحكام المواد ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ يجوز فيها أن يقضى الحكم الصادر بالعقوبة بمصادرة نسخ الجريدة وأدوات طباعتها وإقفال مطبعتها وإلغاء الجريدة نفسها) .

فهذا النص صريح فى تحريم الأعمال التجارية العادية على المطبعة بعد إلغاء الجريدة ، ولو حولت إلى طبع النتائج الفلكية ، أو كتب الحديث أو السنة .

١٩ — ثم ماذا أضاف (دولته) من بلاء جديد إلى مواد النشر فى قانون العقوبات ؟ لا نستطيع إحصاء هذه البلايا على وجه الحصر ، وإنما نسوق بعض الشواهد على طريق المثال :

كان الحد الأدنى لعقوبة الغرامة في جريمة كيت ، خمسة قروش . إذن فليكن
عشرين جنيهًا .

وكان الحد الأقصى عشرة جنيهات . إذن فليكن مائة .

وكان الحد الأدنى لعقوبة الحبس في جريمة كيت ، ستة أشهر . إذن فليكن سنة .

وكان الحد الأقصى سنتين . إذن فليكن ثلاثًا .

كان للقاضي أن يختار بين عقوبتي الغرامة والحبس ، دون أن يجمع بينهما . إذن
فليكن له أن يجمع بينهما بوسع رحمته للصحفي المسكين .

كان المفروض في الصحفي حسن النية حين ينشر أخباراً ، أو ينسب إلى الغير
أوراقاً ثبت فيما بعد أنها كاذبة ، إذن فليكن المفروض في الصحفي سوء النية أولاً ،
ثم عليه هو أن يتفضل فيثبت حسن نيته إن استطاع .

كان تكدير السلم العام هو الشرط الذي يجب توافره ليستحق الصحفي عقوبة
كيت . إذن فليكن مجرد القول بأن نشر هذه الأخبار « من شأنه » أن يلحق ضرراً
بالمصلحة العامة كافياً للعقاب .

كانت المحكمة لا تملك منع الصحف من نشر الحكم تقديساً لمبدأ العلانية .

إذن فلتملك المحكمة حبس الحكم عن الصحافة والجمهور .

كان فرض عقوبة التعطيل أو الإلغاء مقصوراً على جرائم ضيقة النطاق ، إذن
فليتسع نطاق عقوبة التعطيل أو الإلغاء حتى تتناول أكثر جرائم النشر على نحو يضيق
المقام عن إحصائه .

كان من حق الصحفي المتهم بالقذف في موظف ، أو من في حكمه ، أن يقدم أدلته
أمام المحكمة . إذن فليبطل هذا الحق ، وليتفضل الصحفي بتقديمها في الخمسة الأيام التالية
لاستجوابه ، وإلا فوالله لو عجز عن تقديمها في تلك الفترة ، ثم ساعفه بعد ذلك ألف
دليل ودليل ، فقد سقطت أدلته جميعاً ولن تسمعها المحكمة أبداً .

ذلك قليل من كثير من الأيادي التي أسدتها عبقرية دولته إلى الصحافة

والصحفيين .

٢٠ — لكن الداهية الدهياء ، جريمة نشر جديدة ، استحدثتها تلك العبقريّة

سنة ١٩٣٢ وهذه الجريمة هي :

(استعمال عبارات من شأنها — (ما ألطف من شأنها هذه) — تعريض نظام الحكم المقرر في القطر المصري للكراهية أو الازدراء ، أو أن تشكك في صحته أو سلطانه ، أو نشر أخبار كاذبة لها هذا الشأن) . وعلى ذلك فليقفز إلى منصة الحكم في مصر ، من يواتيه القدر من أهل العقوق أحلاس الفتن . وليغلبوا هذا البلد على أمره بقوة السلاح ، وليستهووا من يستهون من النفر القليل الضئيل بقوة الجاه وقوة المركز وقوة المال .

فإذا شمرت الصحافة المصرية عن سواعدها للنضال ، وجردت أعلامها للمقال ، فإلى السجون وإلى الخراب . لأنه كان في وادي النيل دستور يكفل حرية الرأي ، وحرية الدفاع الصادق عن المبادئ الوطنية العليا ، فأقام دولته على أطلاله قانوناً يحمي الحكم المقرر في القطر المصري من الكراهية والازدراء ، ومن التشكيك في صحته أو سلطانه ! نعم ولو كان واضع النظام (النيروني) فرداً كسائر الأفراد ، بل دون سائر الأفراد حسن أخلاق وشرف غاية ونزاهة حكم .

نعم ولو كان النظام المقرر رمياً بالياً من آثار القرون المظلمة .

للحكام المطلقين إذن أن يقرروا وعلينا أن نرضخ ! لهم أن يأمرؤا وعلينا أن نأتمر . لهم أن يخيفوا ويرهبوا ، وعلينا أن نقبع في الحجور وأن نخاف .

ألا سحقاً إذن للصحافة والصحفيين وللحرية والأحرار وللوطنية والوطنيين ، إذا لم يؤثروا غيابات السجون بل غصص المنون ، على الخضوع لمثل هذه المادة التي لاتسن إلا لقطعان من العبيد .

ومعاملة المحكوم عليهم في جرائم الرأي ، هل ينبغي أن تظل على ما هي عليه في بلد متحضر أو طامح إلى الحضارة ؟ ألم يأن للمحبوس السياسي أو الصحفي — وقل أن تصدر جريمته عن دافع سوى الحمية الوطنية وفرط الإيمان بالعقيدة والمبدأ — ألم يأن له أن يعامل غير معاملة اللصوص والقتلة وتجار المنكرات ؟ إني لأعرف صاحب

جريدة يومية مقروءة له مكانة بين زملائه في الصناعة ، وله مكانة بين إخوانه في المبدأ ، وله مكانة في المجتمع — قضى شهور سجنه في غرفة تجاورها زمرة متهمه بالسرقة والاتجار بأداب الناشئين ، وتقابلها غرفة متهم بقتل ثلاث أنفس زكية — وقد حكم عليه بالإعدام بعد حين .

وإني لأعلم أن ذكرى ذلك الجوار وتلك البيئة مازالت تعاود صاحبنا الصحفي ممزوجة بشعور غريب .

يذكر أنه لبس اللبدة شهوراً بين القتلة واللصوص وتجار الغواية ، وأنه ارتدى البذلة الزرقاء ، وحمل على صدره لوحة من النحاس مرقومة برقم معلوم ، بين القتلة واللصوص وتجار الغواية ، وعرف كيف يفتش الحصير على الأسفلت في زمهرير الشتاء ، وعرف كيف يعامل في سجون مصر محبو مصر وأبنائها المخلصون .

ثم يقول صاحبنا الصحفي لنفسه : « ومع هذا لو عاد دولته أو مثل دولته إلى مثل ماصنع ، لعدنا إلى مثل ما كتبنا » ولو استحال السجن إلى درك يتلظى في أعماق الجحيم .

إن الصحافة المصرية مقيمة على عهدا الوثيق . فطغيان نيرون لا يزدهيها ، وأموال قارون لا تثنيها عن المبدأ القديم .

وفي نهاية هذه الكلمات يسعدني أن أرسل تحيات لجنة الصحافة لدى مؤتمرنا العام إلى زملائنا أعضاء الأسرة الصحفية من إخواننا الأجانب في هذه الديار ، شاكرين لهم ما يبذلون في سبيل المثل الإنسانية العليا من نصرة الحق وتأييد الحرية وتعميم السعادة بين الأفراد والطوائف والشعوب .

ذكرى محمد محمود باشا^(١)

أيها السادة :

كان الفقيه العظيم أسداً في صولته ، أسداً في نبلة . ولقد سكنت العرين مع الأسد ، سنين ، سنين تلقيت فيها دروس الجهاد للعقيدة ، فما هالتنا الكثرة ، ولا جرفنا السيل ، ولا أطفأت شعلتنا العواصف . حتى إذا أتممت دراسة الكفاح في المدرسة النبيلة الحمدية ، واشتد في رأي ، حيالُ أئينا الأسد ، فخشيتُ منه الخطر ، لا على نفسي ، ولكن ، على الهدف المشترك . تركت العرين آسياً ، وسدّدت ملاحي إلى الحبيب ، باكياً ، من الأعماق . والذنب أو الفضل له ، فعنه أخذت إقدامي ، وفي معسكره ، أرهفت قلبي ، وعلى مذهبه ، قدست نجوى ضميري وأعلنت ثورتي وغضبي وأنا الضعيف بشخصي ، فما ثار ، ولا غضب ، وهو القوى بوزارته ، وجاهه ، وسلطانه المطلق . هنا نبيل الأسد ، لم يتعقبني بالأذى في شخصي ، ولا في كرامتي ، ولا في رزقي . ولو اخترت البقاء حيث كنت ، في الجامعة المصرية ، ولم أستقل ، لعشت أنا الموظف الثائر ، آمناً مطمئناً ، في ظل مانسيه الحكم المطلق — المطلق يومئذ ، من قيود الدستور ورقابة البرلمان ، المقيد يومئذ بقيود الذمة والبروءة والنخوة .

أيها السادة :

ربما عاشت روح الدستور ، وهو محبوب في القلوب . وربما ماتت روح الدستور ، وهو ظاهر للعيان كالمومياء .

فارقت العرين سنة ١٩٢٨ ، وهجرت الصحافة ، سنة ١٩٣٨ . عشر سنوات

(١) أُلقيت بنادى الأحرار الدستوريين بمناسبة الذكرى الثامنة لوفاة .

كاملات ، وُلِّيَ فيها الفقيد حكم البلاد ، حقبتين . وكنت في الحقبتين ، من معارضيه . كنت من معارضيه الدائبين كل يوم على مقال ، وفي كل مقال حرارة . ويدوم ذلك يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، لا تهبط حرارتي ، ولا ينفد صبره . فهل كان صرير هذا القلم طنين بعوضة . والله لو كان كذلك ، وألحت البعوضة هذا الإلحاح المنكر ، على سمع طياش أهوج ، لغضب ، ثم حقد ، ثم بطش . فإن صح أن الفقيد العظيم غضب ، فما أملكه كان لغضبه ، أو حقد فما أكنظمه كان لحقده ، أو هم بالبطش ثم ، سكن ، فقد أبي أن يقال فيه « إن ابن محمود ، كريم العجز ، لثيم المقدرة » .

على أن يقيني أنه لم يغضب ، ويقيني الأوثق ، أنه لم يحقد . لم يحقد الأسد الراحل قط على أحد . مساءً الصباح ، يحوها الليل ، ومساءً الليل يحوها الصباح فلا عجب أن يُصبح خصومُ أمسه ، أصدقاء يومه . ألا تذكرون خصومة العقاد ، ثم ألا تذكرون بعد ذلك صداقة العقاد ، لمحمد محمود . لقد كان كاتبنا العبقري ، مثال الصدق في الحالين . كان صادق الخصومة ، ثم كان صادق الود . والعقاد لا يعرف الزلفي ، ولا يلتفت ، إلا حيث يلتفت به الوجدان . ولو كان في العقاد حلف كاذب ، أو في الفقيد العظيم ، حقد دفين ، ماتقدم هذا الركن الشامخ من الأدب العربي الحديث ، ليصافح ذلك الركن الشامخ ، من الرجولة ، والزعامة ، وجلائل الشيم .

أيها السادة :

لقد كان أهلاً للمحبة والولاء . ولئن كنت عارضت فيه سياسة الحاكم ، من حيث القواعد المقررة ، لقد أحبت فيه نزاهة الرجل ، وشجاعة الرجل ، وطهر ذيله وجيبه ، وعفة لسانه وسمعه : —

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه	كأن به عن كل فاحشة وقرأ
سليم دواعي الصدر لا باسطاً أذى	ولا مانعاً خيراً ، ولا قاتلاً هجراً

أيها السادة :

قد نجهل بعض نواحي الفقيه العظيم ، فنحسب أنفته العيوف ، كبراً ، ونحسب سموه الأصيل ، زهواً . ثم نعرفه ، فإذا : —

لنا جانب منه دميث ، وجانب إذا رامه الأعداء ، ممتنع صعب وتأخذه عند المكارم هزة كما اهتزت تحت البارح الغصن الرطب

أيها السادة :

إذا مات الغنى صاحب الملايين ، كان غزاؤنا في فقدته ، بقاء ماله بين أيدي الوارثين والمنتفعين . وإذا مات العالم ، أو الفيلسوف ، أو صاحب الفن الجميل ، كان غزاؤنا عن فقدته ، بعض الآيات الباقيات من علمه ، أو فلسفته أو فنه . أما بطل النبيل ومكارم الأخلاق ، إذا مات ، جل فيه الخطب وقل العزاء . إنه مصباح منير ، يتحول عنا بنوره إلى السماء . ذلك أن الأخلاق خصائص نفسية هي قوام روحه ، فإذا صعدت الروح إلى بارئها ، صعدت معها فضائلها ، لأنها ذاتية ، ولم يبق لنا هنا ، على هذه الأرض الفقيرة إلى الضياء ، سوى ذكرى المثل الكريم .

والأخلاق الكريمة ، تاج علوى ، يتميز به قليل من الناس . ألا ترى أن العلماء في مصر كثير ، وأن الأغنياء فيها كثير ، وما زالوا اليوم يزدادون كثرة ؟ وإنما الأزمة الكبرى ، أزمة الأخلاق . كلام قديم معاد . ولكنه صدق معاد . وليس معقولا ، إذا طال المرض أو تفاقم ، أن تقل منه الشكوى ، مخافة الإملال . وإنما المعقول أن تعم الشكوى ، عسى أن يعم التفكير ، وعسى أن يبدأ التدبير لأسباب النجاة .

وكما فكرنا في الأخلاق المراض ، ذكرنا أضدادها من الأخلاق الصحاح ، بحكم تساوق الخواطر . وكما فكرنا في الأخلاق الصحاح ، مثلت أمامنا صورة نقية أبيية ، مستعصية على النقائص ، صدوف عن الريب . مثلت أمامنا صورة فقيه الكرامة والشم — محمد محمود . إني أتمثل همته الشفاء في جسمه العاني ، فأرى سيفاً

صقيلا ، شف عنه الغمد ، وقد أرى أغناداً مصقولة ، ليس فيها سيوف .
أتمثله لا يبيع حبة خردل من مروءته ، بالقناطر المقتطرة من الذهب . أتمثله
يصوم حتى الممات ، ولا يأكل السحت . أتمثله لو أصبح في ثياب غاندى ، وفي مثل
عيشه ، عن رقة في الحال ، لاعن زهد في المال الحلال . ثم سيم الخسف ، أو حمل
على الذل ، لا تنفض الأسد المصور في أسماه ، وأرسلها مدوية بين أشباله : يا أشبال
الوادي ، هلموا فادروا العار :

فإن تكن الأيام فينا تبدلت	بنعمى وبؤسى ، والحوادث تفعل
فما ليّنت منا قناة صليبة	ولا ذلّتنا للتي ليس تجمل
ولكن رحلناها نفوساً كريمة	تُحمل ما لا يستطيع ، فتحمل
وقيناً بحسن الصبر منا نفوسنا	فصحت لنا الأعراض والناس هزل

عناصر الإيمانه في قلوب الشباب^(١)

سيداتي وسادتي ويا شباب مصر المرجى :

أبدأ بربى فأشكره على هذه الفرصة المواتية ، أعالج خلالها موضوع الإيمان

في قلوب الشباب .

ثم أشكر بعد ذلك وزارة الشؤون الاجتماعية ، على ما تفضلت به من دعوتى

إلى إلقاء هذه المحاضرة .

ثم لا أنسى أن أحمد لقسم الخدمة العامة من هذه الجامعة الأمريكية الفاضلة

ما تسهم به من تثقيف أبنائنا وإنهاض مجتمعنا من نصيب موفور .

كما أشكر للسادة الحاضرين حضورهم ، وللسامعين خارج هذه القاعة استماعهم ،

ولرجال الإذاعة جهدهم الكريم .

سيداتي سادتي :

لقد نصبت لنفسى شركا ، حين اخترت موضوع الإيمان ، ثم جعلت الشرك محكما

حين اخترت أن أوجه الكلام فى الإيمان ، إلى شباب مصر من فتيان وفتيات .

ذلك بأن الإيمان قد يكون معناه التقى والورع ، والتقى عند بعضهم أشبه بالشيخوخ

المودعين منه بالشباب المقبلين . ألا يسمى رسوخ بعض العقائد فى بعض النفوس إيمان

العجائز؟ . فليس ظريفاً إذن ولا طريفاً ، أن يحسب فتياننا شيوخاً ، أو فتياننا عجائز ،

وإن كان ذلك المصير — أطال الله حياتهن وحياتهم — لا بد منه بعد خمسين عاماً

فإن شاءوا فمئة .

ومما يزيد فى صعوبة الموضوع أن يجىء علاجه فى وقتنا الحاضر .

لقاتل أن يقول : أأست فى الدنيا؟ ألا تقرأ الصحف؟ ألا تسمع الإذاعة؟ ألا ترى

أن نور الإيمان بالحق والنصفة قد انطفأ فى قلوب المنشدين لأغنية النصفة والحق ، يوم

انطفأت نيران الحرب واشتعلت نيران الشهوات القديمة من جديد ؟

(١) محاضرة ألقىت فى نوفمبر سنة ١٩٤٥

أليس بعض الأقوياء يريد اليوم أن ييسط سلطانه على رفات الضعفاء ؟
أين أهازيح الحرية ؟ أين مزامير الإنسانية ؟
أين جنة الدنيا التي وعد بها الآدميون ؟
ثم أتكلم اليوم على الإيمان ؟! وأوجه حديث الإيمان إلى الشباب ، وإلى الشباب
في مصر خاصة ... !

أنى لهم المثل العليا وقد أصبح كثير منها أثراً بعد عين ، وأطلالا بعد قصور !
أنى لهم المعاني السامية ، والشباب ينظر حوله فيرى كثيراً من الناس مفتوناً بالمال ،
أو مفتوناً بالجاه ، أو مفتوناً بالصالح الخاص ، يقدم على مذبحه مصلحة البلاد فدية وقرباناً !!

رويدكم أيها الشباب المرجى . إن يكن كثير من الأسود المصرية قد هدها الدهر
بمحنه وبلاياه ، فأنتم الأشبال المتوثبون ، وأنتم الورثة المأمولون ، تجددون من المثل
المنشودة ما تهتدم ، وتقيمون منها ما مال . وناموس النشوء والارتقاء ، يوجب على
الأبناء أن يكونوا أصلح للحياة من الآباء .

إن العلم في عصركم أغزر ، وأسبابه أوفر ، وأشعته أعم وأبهر . وفي متناولكم
وأنتم في مستقبل الحياة الانتفاع بكل كلمة ملهمة ، يقولها مصلح ساعة يذيعها بالمذياع ،
من أقاصى الشرق أو أقاصى الغرب ، فإن لم يذعها اللاسلكى صوتاً مسموعاً ،
فهو يذيعها لفظاً مطبوعاً بعد ساعة أو ساعات .

كونوا بأحداث دنياكم على صلة . كونوا أبناء عصركم في كل جد ، ولا تكونوا
أبناء عصركم في كل هزل .

لقد هزلت مصر طويلاً ، واسترخت بل استنامت أجيالها طويلاً . واليوم
آن لهذا الجيل أن يهب هبة الأبطال ، إلى مستقبل أدواته العلم في أحدث مراحلها ،
والخلق في أمتن صورته ، والطموح بهذا النيل إلى مثل مجد المسيحي ومجد التيمز .

إن شباباً أجدادهم الفراعنة ، وآباؤهم العرب ، وملكهم شبل في مثل سنهم ،
طموح إلى مجد بلاده ، طموح جده الأعلى وطموح أبيه ، لشباب جدير بالأريحية ،

جدير بالعزة بل جدير بأن يظفر الطفرة العظمى التي يزعم الزاعمون أنها محال .
سيداتي وسادتي :

أبناء مصر يقفون اليوم بين ماض طويل من الألم ، ومستقبل مديد لا أقول
من الأمل فحسب ، بل أقول من الأمل المعزز بالعمل .
وإذا ذكرنا الأمل والعمل ، مثلت في أخيلتنا صورة الشباب على أكمل الوجوه
المرجوة ، أو أقربها إلى الكمال . ذلك بأن ازدهار هذا البلد العريق ، وانبعاثه من
عالم الأمانى الحائرة إلى عالم الحقائق المثمرة ، ليس عُدَّتْه جيلاً كبعض جيلنا نحن الآباء
الخضرمين ، الذين عاصروا خليطاً من اليأس والرجاء ، ومن الكرامة والمهانة ، ومن الجهاد
سنة والرقاد سنين ، وإنما عدة مصر في غدها ، وسلوتها عن أمسها ، أبنائها الفتيان
الذين أناديهم الليلة هذا النداء — نداء الأمل — ببرره ويحققه الاعتزام والعمل .

* * *

لكن أى أنواع الأمل ، وأى أنواع العمل ؟ هنا صميم الكلام . هنا جوهر
الموضوع . ليس فى الأحياء من ليس له أمل ، وأكثر الناس يشغله عمل . فما حكمة
هذه الدعوة إلى تحصيل حاصل ، وإيجاد موجود ؟ هذا فتى يكب على الدرس لإحراز
درجة ممتازة من الجامعة الأزهرية ، أو جامعة فؤاد أو فاروق . وهذا فتى أتم علومه
ثم حظى بأريكة مريحة من أرائك الحكومة ، جلس عليها متربعا (متسلطناً) مغتبطاً
فخوراً . وهذا آخر قد استفتح باب العمل الحرفانفتح . وهذا ثالث طالما عاج الباب
فاستعصى ، ولا ذنب للمسكين ، فالأمل يدفعه ، والرتاج المغلق يمنعه . وهذا صانع
دائب على صناعته . أو زارع دائب على زراعته . فمن ذا من شباب مصر لا يأمل ؟
ومن ذا منهم لا يعمل كادحاً فى عهد الدراسة . أو لا يعمل كادحاً بعد ذلك فى الحياة ،
إلا أن يطلب العمل فلا يجده ؟ .

* * *

هذا كلام صحيح ، لكنه غير ما نقصد ، إذ ربما انطوى الفتى على أمل واهتدى
إلى عمل ، دون أن ترقى مصر بأمله أو عمله درجة ، أو تتقدم خطوة . ذلك إذا سيطرت

الفرائز البدائية وحدها على قلوب الشباب ، ولم يهذب من طبيعتها ويكف من شططها
وازع الإيمان .

وأريد بالإيمان شعورك في كل حين ، أو في أغلب الأحيان ، بأن رباطاً وثيقاً
يربطك بمصدر وجودك ، أى بالقوة العليا التى أرسلتك إلى الدنيا ، لتبلى فيها صنع يديك
وسعى قدميك ، ولتتظرن فى أى مدار يدور فكرك ، وبأى شعور يختلج قلبك ، ثم تدعوك
بعد انقضاء ما كتبت لك من أيام العمر ، لترفع إليها ثمرات رسالتك فرحاً بما سعت
فأحسننت المسعى ، وصنعت فأحسننت الصنيع ، وبما شع من رأسك من ضياء زاد حياة
العالم أو قل حياة الوطن إشراقاً وبهجة ، وما فاض من فؤادك من كل عاطفة نبيلة وهمة
عالية ، همة خدوم للأسرة المصرية الكبرى خدمتها لأسرتك الصغرى ، حتى إذا ودعت
أمتك ورجعت إلى سيدك الأعلى حبيب الاحسان والحسنين ، عدو الإساءة والمسيئين ،
جعلت كتابك يمينك ، وقلت ربى إني أطعت مشيئتك ، واهتديت بهداك فنفعت
إخوتى ما وسعنى الجهد ، وطاولنى العمر ، جاهدت فقر الفقير ، ومرض المريض ، وجهالة
الجاهل ، وناصرت العدل والمعروف ، وحاربت الجور والمنكر ، لا بأضعف الإيمان ولكن
بأمتنه وأقواه ، وأحسننى أدبت الرسالة الربانية التى حملتني ، وأكرمت الروح القدسية التى
أودعتني ، فشيعت مصر شيخوختي إلى قبرها تشيعاً كريماً ، كما استقبلت مصر طفولتي
في مهدها استقبالا كريماً ، ومصر بخير يا رباه لأنني تركت فيها من المؤمنين ملايين !

* * *

هل ترى الآن إلى أى مستوى من الأمل أدعو الشباب ، وإلى أى مستوى من
العمل ؟ إن المرء قد يصلى ويصوم وليس له من صلاته وصيامه سوى النصب والجوع ،
لا لشيء ، سوى أنها قد تكون عبادة آلية ينقصها الشعور العميق الباطن . فكيف
بالآمال والأعمال الدنيوية ، إذا كان مبعثها حب الذات دون شيء آخر ، أو شخص
آخر ، غير الذات . إنها إذن الغريزة الأولية لا فضل فيها لصاحبها إلا على صاحبها
إن الغريزة البحتة أثر . أما الإيمان فإيثار . أن الغريزة مساك الفرد وحده . أما الإيمان
فمساك الجماعة . إن الغريزة شهوة يشاركنا فيها الحيوان الأدنى ، بل عنه وعن الطين

الذى خلق منه ورثناها . أما الإيمان فعقيدة من نور وضاء وإحساس من رحمة شاملة وعزيمة من نار مباركة . إن الغريزة منحة الأرض . أما الإيمان فمنحة السماء . كأن الإنسان بناء من طابقين ، تسكن الغرائز طابقه الأسفل ، ويسكن الإيمان طابقه الأعلى . فهل تصعد غرائز الشباب إلى عل ، أم يهبط إيمانهم إلى سفلى ؟ إن عليهم اليوم أن يختاروا بين الأمرين فى عزم حازم . فإما أن يعيشوا لأنفسهم عيش الغرائز ، وأما أن يحيوا لأنفسهم وبلادهم حياة الإيمان ، إن لم نقل لبلادهم أولا ، ثم لأنفسهم بعد ذلك .

إن مبدع هذا الكون قد أبدعه وأخضعه لناموس الترابط بين أجزائه المترامية الأبعاد فى الفضاء السحيق ، فكيف بترابط أبناء الإنسانية ، بل كيف بترابط أبناء الوطن من شطرى الوادى شماله والجنوب !

كلما فكرنا فى خلق السموات والأرض ، تجلت حكمة الله للأبصار والبصائر . وحكمته جل شأنه تجاذب محكم ، وتماسك مشترك بين الشمس والكواكب والنجوم . ولو فقد كوكبنا هذا الذى أحدثكم الليلة من بعض نواحيه ، لو فقد صلته بأخوته من الكواكب طرفة عين ، أو صلته بأمه التى تمدّه بالحرارة والنور ، لما احتاجت الدول العظمى إلى أشعة الموت أو قنابل الذر لتدمير الحضارة أو محو الأعداء من صفحة الوجود ، فكل شئ كحُتْدِه هالك إلا وجهه .

كيف لا تؤمن بأن كل إنسان خلق لكل إنسان ، وبأنه أولى بكل مواطن أن يكون مخلوقا لكل مواطن ، وهذه آيات الله حولنا وبين أيدينا ، تعلمنا أن الحياة العالية بذل من ذات النفس فى سبيل الغير . والله تعالى عن أن نسمى عطاءه بذلا ، قد نفخ من روحه الأقدس فى آدم ، فوهب له ولأبنائه نفحة علوية ، سمّت بهم عن الحيوان ووصلت قلوبهم بالملا الأعلى ، وإن ظل أكثرهم عن سرهم الأعظم غافلين .

وإذا كان أكثر الناس ما زالوا يجهلون تركيب أجسامهم ، ووظائف أعضائهم حتى اليوم ، بل إذا كان أرسطو وهو المسمى بالمعلم الأول بين الفلاسفة ، كان يجهل أن فى الجسم أعصابا وإذا كان الطب الحديث لم يهتد إلى دورة الدم فى الإنسان والحيوان

إلا منذ عهد غير بعيد ، ولم يهتد إلى حقيقة الهرمونات والفيتامينات إلا منذ بضع عشرات من السنين ، وعليها تتوقف وظائف الجسم جملة وتفصيلا ، وما زالوا يكشفون كل يوم حقيقة جديدة في شأن هذه الأجسام الكثيفة ، رغم تشريح الألوف منها في مئات السنين ، ورغم العكوف على درسها واستقصائها في كل مستشفى ، وكل جامعة ، فهل من عجب أن يجهل الإنسان أشف أسرارها وألطفها وأخفها ؟ أن جهل الفيلسوف الأكبر لوجود الأعصاب ، لم يبلغ وجود الأعصاب ، وجهل الطب لدورة الدم ووظائف الغدد ، لم يبلغ وجود الدورة ووجود الغدد . فقد كانت كلها تؤدي وظائفها منذ ألوف الألوف من السنين في الإنسان والحيوان . فجهل الناس بالروح لا يجوز إذن أن يساق دليلا أو شبه دليل على أنها وهم أو خيال ، بل عذرنا في الجهل بطبائع الأبدان أوفر من عذرنا في الجهل بطبيعة الروح .

غير أن الفرق بين الجهلين فرق خطير . فالكبد تفرز الصفراء ، والقلب يوزع الدم على الأعضاء ، والرئة تقبل أو كسيجين الهواء وتطرد ثاني أكسيد الكربون ، سواء اعترفنا بوجود الكبد والقلب والرئة ، أم أنكرناه . لكن الروح ليست كذلك . أنها لا تكاد تضىء حتى نستضيئها ، ونقر لها بنسبها الأسمى ومصدرها المجيد . يومئذ لن يحتاج الشباب إلى مثل هذه المحاضرة ، لأن انبثاق الحيوية من عزيمته ، وموالات الخدمات الجليلة لأمته ، سيأتیان عفواً كما يؤتينا النحل شهدة ، والغيث مدراره ، والنيل فراته ، أو كما تضىء لنا الشمس والقمر ، أو كما تدنو قطوف الثمر ويتضوع أريج الزهر ، لأنها روح ربانية عرفناها فعرفتنا ، بعد أن أنكرناها طوال الدهور فأنكرتنا . آه أيها السادة . أنه الجهل بهذه اللطائف المودعة في كل صدر من صدور بني أينا الأول ، أنه الجهل بهذه الشموع المطفأة التي لا تنير إلا إذا عرفناها وقدرناها وعبدنا بها الخالق ، ونفعنا بها المخلوق ، إنه الجهل بهذه الجواهر العلوية ، هو الذي يشقى الدنيا ويجعلها جحيماً في الحرب ، وشبه جحيم في السلام . ولن يزايل الوحش قلوب البشر ، ولا الشقاء حياة الأمم ، حتى ترجع إلى الله . ألا نرى كيف سلط عليهم علمهم الحديث فكشف لهم قوة الذرة ، وهياً لهم إطلاقها ؟ فإما إلى حضارة جديدة بالبقاء وإما إلى الفناء .

إن الله طرد أبانا من الجنة لما أضله إبليس . وإبليس ما زال يتعقبنا بالتضليل ، حتى يطرده الله من الأرض . لكنه تعالى أسامنا وسيلة الدمار والعمران ، وكأن لسان القدرة يقول : أيها الإنسان لقد آن لك أن تبلغ الرشد فتحكم — هل تريد المكث في الأرض أم تريد الزوال . لقد كان الله يوالى إليك رسله وينزل عليك كتبه يوم كنت ساذجاً لم تعط من العلم ما قد يعرفه اليوم صبي في مدرسة ، مركبك فيل أو بعير ، وسلاحك قوس أم رمح ، تجترى بقرصة من شعير ، وتأوى إلى بيت من شعر . أما الآن فقد انتقلت بحضارتك إلى الغرب ، فكشف لك كثير من علم الله لم يكن كشفه لك يوم قال في كتابه المنزل على رسوله محمد « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » . وأنت برغم هذا تتخذ من علم الله نقمة ، ويريده رحمة ، وتتخذ منه جوراً وبؤساً ، ويريده عدلاً ونعمى .

الآن أيها الإنسان أعطاك الله الخيار في البقاء إنساناً مرحوماً ، أو الهلاك وحشاً غير مأسوف عليه ولا مرحوم !

سيداتي وسادتي :

نشر الكاتب المفكر الكبير . ج . هـ ويلز ، في إحدى المجلات المصرية الكبرى منذ أسبوعين مقالات طافحة بالتشاؤم ، تنبأ فيها باقتراب الساعة أو فناء هذا الكوكب عما قليل ، وهو في نحو الثمانين من عمره ، وكثيراً ما تنبأ وصحت نبوءاته . فهو أول من كتب قصة عن الطيران قبل ظهوره بسنين طوال ، وهو أول من تنبأ بالقبلة الذرية منذ ستة وعشرين عاماً أو تزيد . وهو يبنى تشاؤمه على أن الإنسان الحاضر قد أصبح عاجزاً عن أن يتكيف بالكيف الذى يلائم البيئة والمحيط . ورجع في ذلك إلى علم الحياة ، وساق على قوله شواهد وأدلى بحجج وأسانيد ، وأكبر الظن أنه رأى الدول العظمى ، بل بعض الدول المتوسطة عاكفاً دائماً على كشف أسرار القبلة الذرية ، ليصنعها كما صنعتها الولايات المتحدة ، وكما صنعتها إنجلترا وكندا . كأن الكاتب الكبير يرى أن المحيط البشرى على وشك أن يعمه إنتاج تلك القبلة الساحقة الماحقة ، وإنتاجها على طرق تجعلها أهول من القنبلتين اللتين ألقيتا على مدينتي

اليابان عشرين مرة أو تزيد. وإذا عم ذلك الهول مصانع الدول ، كان من المحتوم أن يستعمل في نوبة جنون أو ثورة غضب ، ومعظم النار من مستصغر الشرر . فكيف وليس هذا شراراً وإنما هو جهنم الآخرة ، تتفجّل الأحياء في الدنيا . وكل حرب تنشب في هذا العصر بين دولتين يغلب أن تستحيل حرباً عالمية . ومئة قنبلة من القنابل الذرية المكبرة ، كفيلة بأن تمحو المدائن المئة الكبرى من عواصم الدنيا شرقاً وغرباً . هذا ما أراه ويلز بقوله ان الانسان قد فقد ملاءمته للمحيط الذي يعيش فيه ، أى فقد قدرته على البقاء في هذا الكوكب . ففناؤه رهن بحرب قادمة ، والحرب القادمة قد لا تكون بعيدة النشوب .

أما أنا فأخالف المفكر الكبير في هذه النبوءة الخالكة . وأومن بأنه مهما تكن فداحة الخطر ، بل مهما يقع بالفعل ذلك الخطر ، فإن الأمر لن يصل بالإنسانية إلى حد الزوال .

إن رب العالمين حكيم عليم . ولو علم أن الإنسان سيفنى نفسه بهذا السلاح الجديد لما مكنه منه .

والإنسانية لن تفرح هذا الكوكب حتى تدرك ربانيتها فيه . ولا تجفوا من قولي (ربانيتها) ففي حديث قدسى : « عبدى أظنى أجعلك ربانياً تقول للشيء كن فيكون » . ورقى الإنسانية إنما هو حكايتها لصفات الله العليا من علم وعدل ورحمة . أما العلم فهي سائرة في طريقه بخطى سريعة .

وإنما تخلفها و بطؤها في الاتصاف بصفى الرحمة والعدل . ولن يسمح لأبناء آدم بالانقراض من الأرض ، حتى يستكملوا ما يريد الله لهم من تينك الصفتين . قد تبديد دول أو تذلل شعوب ، لكن سيبقى الإنسان ما بقي له في هذه الدنيا درس لم يتعلمه ، أو فضيلة لم يحرزها .

سيداتى وسادتى :

ليس هذا الكلام استطراداً ، أو خروجاً عن موضوع الإيمان . فقد يعلق بنفوس بعض شبابنا شيء من التأثير بقول مستر ويلز ، وهو كاتب واسع الشهرة

فى شؤون الاجتماع ، كثير التفكير فى أمراض المجتمع . فإذا تشاءم بتشأؤمه بعض الشباب ، قعد بهم ذلك عن الإيمان ، وحسبوا وجود الانسان فى هذه الدنيا عرضاً عابراً ، قد يزيله ظرف طارىء ! .

والحقيقة الخفية هى أن النوع البشرى تلميذ فى مدرسة هذا الكوكب ، ولن تعلق المدرسة أو يقوض بنيانها حتى يتخرج . وتخرجه سيطول ألوفاً وألوفاً من السنين . وإنما أطلت فى مخالفة ويلز وأعلنت ذلك ، لسابقة فى التاريخ مماثلة لموقفه ، كان بطلها القديس بولس ، فقد نفث فى روعه بعد صعود السيد المسيح بسنين ، ان الساعة قد اقتربت ، ليس بين الناس وبينها سوى زمن قصير . لذلك ثبت عن الزواج وأنذر الراغبين فيه بأن حياتهم الزوجية لن تطول ، لأن الساعة وشيكة الحلول . ومن هنا اتهمه خصوم الكنيسة وفى طليعتهم مستر برنارد شو ، بأنه كان أول من بغض الزواج إلى المسيحيين الأولين ، فحرمهم بذلك حقاً مشروعاً لم يمه عنه المسيح .

وشبابنا المثقف القادر ، كثيراً ما يتجنب الزواج على نحو يشبه الإضراب ، فلا حاجة بنا إلى سبب جديد يخيفه من انتهاء الزوجية بانتهاء العالم فى شهر العسل .

سيداتى وسادتى :

لم يخلق شئ لنفسه وحده . لا يكاد يشذ عن ذلك حتى فى مملكة النبات والحيوان ، سوى العشب المنعزل فى الجاهل ، أو الوحش الضارب فى الغاب والأجم . بل كم من عشبة برية يتداوى بها المريض ، ومن نمور وفهود وفيلة ونعام ، يتخذ الناس من جلودها دفناً أو من سننها وريشها زينة ، حتى الأفاعى يتخذ من سمومها شفاء . ان المجهول من أسرار الخلائق ما زال أضعاف أضعاف المعلوم .

ألا ترى إلى العلماء المعاصرين ، يكشفون عن طبائع الأشياء كل يوم غطاء بعد غطاء ، حتى العفونة التى تعلو الخبز الطرى المركوم ، فإذا رأينا ألقينا الرغفان العفونة إلى الهررة والكلاب ، بل ربما خشينا مغبتها على الكلاب والهررة — ذلك عفن مبارك ما أنفعه من عفن ، منه يحشد اليوم علماء الطب جنود البنسلين ، فإذا هى تغزو

جرائم فتاكة في مكانها من جسم الإنسان، ثم تعود من جهادها ظافرة، ويعود العليل المشرف إلى الصحة، تياهة مفاخرة، دون أن يفكر بعد نجاته طويلاً في المعجزة .
فطرى عفن كان محقوراً مهجوراً، لأن حقيقته كانت مجهولة، أصبح اليوم وقد عرفه العارفون، أصبح ظهيراً للإنسان، يدراً عنه كثيراً من الأخطار وألوان الشقاء.
فمتى يعرف الناس حقيقة أنفسهم، كما عرفوا حقيقة الذرة وحقيقة العفن ؟
متى يعرف الشاب المصرى أنه روح قبله جسماً يضعف، أو رغبة تهفو، أو شهوة تغبر .

والله لو اكتملت في قلوب الشباب عناصر الإيمان، إذن لسمت عزائمهم بمصر، حتى لتكاد أرضها من باذخ مجدها تشامخ السحاب .
إذن فلن تخبوهتمك أيها الفتى إذا أيقنت بأنها مستمدة من قدرة لا تخبو .
إذن فلن يطفأ سراجك، ومداده نور السموات والأرض، «مثل نوره كشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري» .
إذن فلن يغلبك الجزع في مواطن الآلام والحن، ثقة بأن الذى يبلوك بها رب رحيم، يريد أن يصهر معدنك فينقى عنه الخبث، وأن يروض عزيمتك فيقوى فيها الوهن، وأن يجرد منك للحياة سيفاً مصقولاً، لا قصبة مرضوضة ولا عصا مهشمة.
إذن فلن تأخذك في تيه الصحراء وحشة، لأن في قلبك واحة خضرة نضرة من أنس من يريد بك الهدى بعد التيه، والطمأنينة السعيدة الوادعة بعد العناء والنصب .

وإيمان الجيل الجديد وشبابه المأمول، لن يجرهم شيئاً مما ينتفون. لن يجرهم طلب المال ولا طلب المكانة والمنزلة. فحب الكسب والسعى للرزق غريزة مشروعة في حدودها المشروعة. وما نريد للغرائز أن تموت، وإنما نريد لها أن تهذب وتصفو لتكون أداة يستخدمها الإيمان، لاسيدة طاغية تقمع الإيمان أو تمحقه. والمكانة والمنزلة مشروعتان، ما قصد بهما إلى الخير العام لا إلى الخيلاء والبجح .
نحب للجيل الجديد أن يطلب الكسب والمال، ولكن من حلة لا من محرمة .

نحب لتاجر الجيل الجديد أن لا يخلط الحرام بالحلال ، ولا الخبز بالرمال ، وألا يغش أو يخدع ، وأن لا يغالى ببضاعته ليتسع ثراؤه من مفقر الناس ، وأن لا يخبأ سلعته ليبيعها خلسة بأضعاف ثمنها فى أحلك الأسواق سواداً وأشد الخطوب هولاً .

نحب للموظف الصغير فضلاً عن الكبير من أبناء الجيل الجديد ، أن يؤثر العشرات القليلة وهو شريف ، على المئات أو الألوف وهو لص .

نحب للموظف الصغير فضلاً عن الكبير من أبناء الجيل الجديد ، أن يرفض الرقى إلى درجة ، وهو يعلم أن غيره بها أحق . نحب له أن ييغض ظم غيره كما ييغض ظم نفسه . نحب له أن يعلم رؤساءه من الجيل البالى أنه من نبع جديد ، وروح جديد — نبع الأخاء الحميم فى الوطن ، والأخاء الحميم فى الله ، فهو لذلك يمتق أن يتخذ أشلاء الحق سائماً إلى الباطل ، لأنه ينشد لبلاده أصدق مجد وأمتته ، فهو يأبى لنفسه أكذب مجد وأوهاه .

أيها الشباب المرجى ، أن مصر تستقبل عصراً جديداً مجيداً ، فكونوا بُناتَه وكونوا رجاله والله معكم وهو نعم المولى ونعم النصير .

(١) الأخلاق والمجتمع

سيداتي وسادتي :

كان شوقي يستلهم عبر التاريخ ، حين أرسل آيته المشهورة في الأخلاق ،
فما من ماض قريب أو بعيد إلا يشهد بصدق تلك الآية .

لقد سادت اليونان القديمة بعراقة الأخلاق حين سادت ، فلما وهن فيها نسيج
النفوس ذلت ، ولم تنقذها عراقة الانساب ، ولا حكمة أفلاطون ، ولا فلسفة أرسطو .
ولكن اليوم إحياء اليونانيون أمسهم العظيم ، بما أحيوا في نفوسهم من
خلق عظيم .

لقد ساد الرومان أيام عزهم المجيد بأخلاقهم المجيدة . فلما انقلب سؤددهم بطراً
وثراؤهم بذخاً وجدهم لعباً ، ولما انقلبت مشاهد الرجال والأسود مقاصف وحانات
ومواخير ، غرقت شمس روما العظيمة ، ولم يستطع إعادتها من عالم الغيب إلى عالم الشهود
هذا الذي طلب الشأو القديم ، فساعفه العرض وخانه الجوهر ، ساعفته الأجهزة
والأجناد ، ولكن خاتته النفوس والأخلاق .

لقد سادت العرب في صدر الإسلام بأخلاق الإسلام ، حين لم يكن لهم مال
إلا ما تجود به جزيرة جذبة مبخال ، وإلا ما تجديه تجارة نزره تسبح بها الإبل في
عباب الصحراء ، ويوم لم يكن لهم علم إلا ما علمهم الله في كتابه وسنة رسوله . لكنهم
ظهروا على أمم أكثر منهم مالا ونفرا ، وأقدم منهم ثقافة وحضارة ، لا بقوة سوى
أخلاق القرآن . فلما نسوا المثالات واتبعوا الشهوات وأذهلهم المثل الأدنى عن مثل
الرسول ، سقط من أيديهم مصباح الهدى فضلت بهم السبل وتقطعت الأسباب .

وهذه فرنسا عبرة اليوم ، تغنيننا عن عبر الأمس القريب والبعيد . فرنسا ، تلك
الأم الروم من أمهات الحضارة ، فرنسا ، التي لم تدع من ميادين العظمة ميداناً
إلا كان لها فيه سبق وتبريز . بطولة في الحروب مشهورة الأيام ، ماثورة السير !

عبقرية في الأدب زخارة الفيض وضاءة الغرر ، لو حجبت عن العالم يوماً لبات فقيراً إليها العالم ! المعية في العلوم ، سمت بأفذاذها إلى سماء الخلود . ولا تنس نصيبها الأجل من الفن الجميل ، ولا حظها الأوفى من الفقه والتشريع ، ولا قسطها الأوفر من ثروة هذه الدنيا ، عيناً وديناً ، وزرعاً وضرعاً ، وصناعة وتجارة ، ومستعمرات تعج بالخيرات في أرجاء الشرق بين قاصية ودانية ، فرنسا هذه ما أعوزها في سنواتها الأخيرة ، حتى خر عليها عرش مجدها بغتة كأنقضاض الصاعقة ، بين ذهول العدو وذهول الصديق ؟ يبكي باكيها الماريشال بيتان ، ويحينا بصوت يهدج برعشة الشيخ الفاني ورجفة الحزين الملتاع ، يحينا : أعوزتها الأخلاق . تلك هي الثروة التي أضاعتها فرنسا . فضاع بضياؤها مجد الوطن ، وألحقت أرضه التي طالما تقدس ثراها بدم الأبطال — شهداء الحرية والأخاء والمساواة — ألحقت أرض فرنسا بالأراضي المحتلة ، تطأ حرمتها أقدام الأعداء . نعم وألحق الشعب الفرنسي العريق ، عزيز الأمس ذليل اليوم ، بزمرة الشعوب المهينة المستعبدة ، وما تحطم من أسلحتها غير سلاح الأخلاق ، ولا اندك من صروحها غير صرح الأخلاق ولا تنكس من أعلامها غير علم الأخلاق .

ويمضى الشيخ الباكي في حزنه وبشه يقول : « إنما الذي هزم فرنسا خلقها الجديد لا عدوها القديم . عكفنا على اللهو حين عكف عدونا على الجسد . ضاعفنا ساعات البطالة حين ضاعف ساعات العمل . قدسنا صالح الأشخاص ، حين قدس صالح الوطن ، كانت الأسرة عندنا حقيقة وعيناً ، فأوشكت أن تكون وها وأثراً . كان الحب عندنا طائراً وديعاً يأوى إلى البيت ، فأمسى طائراً عريداً يأوى إلى الحانة . كنا نبغض السلطان الغاشم ، فإذا بنا نبغض كل سلطان . كنا نفدى مبدأ الأخاء ، فإذا الأخاء بيننا عداوة لداء . كنا نقدر مبدأ الحرية ، فإذا الحرية عندنا حرية التمرد والفوضى ، وحرية الجمود والعقم ، وحرية الإباحة والفجور ، وحرية الأنانية الضارية التي تأكل الأخضر واليابس كالسنة السعير . كنا نفدى مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات ، فإذا الحقوق بيننا تحيا ، وإذا الواجبات بيننا تموت » .

ليست أزمات المال ، ولا أزمات التعليم ، ولا أزمات السياسة ، شيئاً يذكر إلى جانب أزمات الأخلاق .

فأزمات المال قد تعالج بعض العلاج بضغط النفقات واستزادة الموارد ومضاعفة الجهود في الحقل والمصنع والمتجر .

وأزمات التعليم قد تعالج بعض العلاج بتوفير الأموال وتخريج العدد الكافي من المعلمين الأكفاء .

وأزمات السياسة قد تعالج شبه علاج بوزارة تذهب ووزارة تجيء ، وبمجلس نيابي يحل ومجلس آخر ينعقد .

لكن أزمات الأخلاق إذا تقام أمرها كادت تستعصى على العلاج ، إلا أن يبادر المسئولون عن مصائر الأمة ، بالتفكير الجدى والعمل السريع . بل أذهب إلى أبعد من هذا المدى فأقول :

أنه لا صلاح بالمعنى الصحيح لمصر في مال ولا صحة ولا علم ولا سياسة، إلا إذا قام كل أولئك على أساس وثيق من أخلاق الفرد وأخلاق الجماعة .

تعالوا إلى الإصلاح الإجتماعى الذى يدعو إليه دعائه فى صحف مصر وعلى منابرهما يقولون : — أزيلوا الفقر والجهل تزيلوا الأمراض المتوطنة التى تهلك الكثرة الساحقة من المصريين — استغفر الله بل الكثرة المسحوقة — ويقولون إذا زال الفقر والجهل والمرض وحلت محلها دعة المعاش واستنارة العقول وصحة الأبدان ، انبثقت عظمة مصر الكمينية كما ينبثق ضياء الفجر بعد حلك الظلام .

لكن هنا العقدة كما يقول شكسبير .

كيف السبيل إلى إزالة الفقر ، بل كيف السبيل إلى إزالة الأدقاع والفاقة ، إذا تعذر على الإنسانية فى مستواها الحاضر أن تخلو من غنى وفقير ؟

دعك من مئات الألوف الذين يستجدون الأيدى فى الحضر والريف ، دعك منهم فإن بينهم أصحاب يؤثرون ذلة السؤال على عزة العمل ، وإن كان بينهم عجرة عن الكسب ترعى أمثالهم إنجلترا وغيرها من دول الغرب ، بحكم القانون .

لكن انظروا معى إلى ملايين العمال، فى مزارع الأواسط والأكاب من الزراع . هؤلاء يستجدون أيضاً ، ولكن بالعمل الشريف المنهك ، لا بالبطالة الوحشة الخزية ، يستجدون السادة الملاك ثلاثة قروش ، عن كدح يوم يبدأ مع الشروق وينتهى مع الغروب .

لى صديق كان يحى قطعة من الأرض الموات قريبة من مزرعة رجل عظيم ، رجل من أصحاب الأموال الطائلة ، والألقاب الضخمة ، والمناصب العليا ، والعيشة المترفة الناعمة . وأمسى صديق ذات ليلة يطلب بعض الأيدى لاستئناف عمله من غده فلم يجد . فما كان منه إلا أنه أرسلها بشرى مزعومة فى الضياع المجاورة : فلان سيؤجر عماله ثلاثة قروش ونصف قرش منذ صباح غد . وماهى إلا هنيهة حتى أقبل إليه عشرات العمال يهرعون كما كان يهرع طلاب الغنى إلى المجاهل فى أمريكا ، إذا طار إليهم نبأ اكتشاف منجم من ذهب ، فأعمل صديق كفايته منهم واعتذر إلى الباقين . لكن هل رضى الجار العظيم عن هذا التبذير ؟ إنه جنون إن دام جر عليه الخراب ! إنها منافسة غير مشروعة فى استهواء العمال ! إنه تمزيق لروابط الاتحاد بين الملاك وخيم العواقب !

وإذن يتفضل حضرة المأمور فى ذات النهار بزيارة صديقى ، زيارة ظاهرها الود المألوف ، وباطنها السعى الحثيث لحمله على أن يعدل عن هذا الطريق الوعر ، الذى يوشك أن يفقر الأغنياء ويغنى المساكين ! وضربت على المساكين ثلاثة القروش واستقرت أنصاف القروش فى خزائن الأغنياء . وما زال القائلون يقولون : أزيلوا الفقر ، وما زلنا نساثلهم كيف السبيل ؟ وهذا الطراز من الأخلاق متغلغل فىنا متأصل عميم ؟ يقولون : أصلحو الأراضى البور فى شمال الدلتا وغيرها ، وبيعوها لصغار الزراع بثمان مقسط زهيد ، هذا شئ جميل إذا تحقق . وجماله أنه يرفع مستوى المعيشة فى طبقات لا هى بالغنية ولا بالمعدمة ، هذا خير لا ريب فيه .

لكن طبقة المعدمين ستظل فى شقاءها وبؤسها طبقة المعدمين . ولن يكون لعبيد القروش الثلاثة بعض العام ، وعبيد العدم المطلق أكثره — لن يكون لهم يد مما كتبت م — ٤

ولا إصبع فيما توزع الحكومة من أرضها مهما تضيق المساحة ويقل الثمن ! إذ كيف يدفع الجنيهات من تعييه الممليات ؟ وكيف يشتري الفدان من يفتى شبابه وكهولته في شراء الرغيف ؟ دع عنك الكساء الذى يشبه العرى ، والحفاء الذى يشبه النعل ، والمسكن الذى يشبه القبر ، والحياة التى تشبه الموت .

هذا الجيش الكثيف من عمال الزراعة ، هو قبل غيره وفوق غيره عماد الحياة فى هذه الديار .

كلنا يعلم أن النيل المفضل إذا عجز عن فضله عاما هلكت مصر من العطش . وكلنا يعلم أن أرضنا المعطاء إذا عجزت عن عطاؤها عاما هلكت مصر من المجاعة . ولكن يظهر أن أكثرنا يجهل أن عمال الزراعة هؤلاء إذا عجزوا عن العمل عاما فلن يغنيننا عامئذ نيلنا الفياض . ولن يغنيننا عامئذ وادينا الخصب . إذ فضل النيل وفضل الوادى كليهما رهن بفضل هذا العامل المظلوم . بأيدي أولئك العمال تدار القنوات والجداول على الرياض والحقول ، كما تدار كؤوس الرحيق على الشاربين ، وبأيديهم يتعهدون الزرع والضرع كما تتعهد الأم طفلها الرضيع .

هم وسطاء الله بين أرضه وبين المرزوقين الطاعمين من خيراته . أفليس لعامل الرزق أن يرتزق ، أفليس لوسيط الخير الإلهى أن يعيش من خير الله ؟
عمال الزراعة طهارة الطبيعة . فكيف يجوع الطاهى ؟ هم مفاتيح كنوز مضر . فكيف تبخل مصر عليهم بسد الرمق ؟

كأنى بالأنعام لو نطقت ، لضجت بالثناء لهذا الإنسان . كأنى بالثيران لو أبانت لطلبت أن يسوى بهم إخوانهم العمال فى نفقات المعيشة . إن علف الثور ليكلف أكثر من ضعف أجر العامل ، فالثور يأكل التبن الوفير ، ويأتمد بالقول المغذى نصف العام ، فإذا أقبل الربيع ، أقبل جنباه على الحقل المريع فرعى من الكلال الغض ما لذ وطاب ، وهو ملحوظ بالعناية محفوف بالرعاية ، يحميه الحماة ، ويسقيه السقاة ، ولوا كل النضيج لطهى له الطهارة .

من هذه الطبقة من العمال دون غيرها تجند في مصر الجنود منذ عشرات وعشرات السنين ، ولا عجب ، فالهرب الرسمي من الجندية ميسوراً واسطناً وأكابرنا حتى اليوم ! كيف إذن لا يعذر اللاطمات النادبات وراء بنين المجندين ، كيف لا يعذرن إذا برمن بالجندية والتجنيد والجيش والتجيش ، ما دام الأغنياء أشد لها بغضاً مع فرق واحد ، هو أن الأغنياء يجدون ثمن النجاة من هذا المكروه ، فيدفعون الثمن ، ويظفرون بالعاقبة ؟

وعلى هذه الصورة كان وما زال السجل الذي يحمل أسماء الجنود في مصر ، سجلاً يحمل في الواقع أسماء المساكين أبناء المساكين ، الأميين أبناء الأميين . ولو أن هذه الطبقة كانت ألفاً أو مائة ألف لقلنا هان الخطب . أنهم قلة . لكنهم ملايين من الأيدي العاملة ، تعيش من كسبها ملايين من الأفواه الآكلة . وكسب الرجل الضليع منهم ثلاثة قروش ! نصف أمتنا الأعلى مصاب بالخدر . فلا يكاد يشعر بالآلام نصفها الأسفل . ونصفها الأسفل هو الذي يعمر الديار ، ويحمي الزمار ، دون أحلاس الحانات وسكان البارات ، ومن إليهم من أهل الطراوة والترف . حمل الفأس فكان خير المجاهدين في السلم قديماً وحديثاً . وحمل السيف فكان قديماً وحديثاً من خيرة المجاهدين الحاربين .

أنقذوا هذا البطل الوفي الصابر المتواضع . أنقذوه من براثن الفاقة والذل ، أنقذوه ، بمقاومة الجشع ، أنقذوه بقوة القانون إن لم تساعدنا قوة الأخلاق ؟

الحرب في قريتنا

سيداتى وسادتى :

أعود بكم من كهولتى إلى أيام الصبا في قريتى ، أعود بكم إلى أيام الصبا ، فأجدنى فى الليالى المقمرة ، جندياً صغيراً فى مؤخرة جيش عرمرم ، سلاحه جريد النخيل موصول الأطراف بحبال دقاق معقودة الأواخر بقطع صغار من الأجسام الصلبة ، كقطعة من خشب أو قطعة من حجر ، وذلك ليكون السلاح أطول تناولا للعدو ، ساعة يلتقى الجريد بالجريد والبطل الصنديد بالبطل الصنديد .

أما العدو فجيش آخر ، قواعده تقع فى الحى الشرقى والحى الجنوبى من القرية ، وأما قواعده جيشنا ، ففى شمال القرية وغربها تقع .

وكانت الحروب فى قريتنا موسمية ، تنشب كلما صفا الجو فى بدء الربيع وتضع أوزارها كلما هجم الشتاء بيرده وسحبه وأمطاره .

وكانت غاية هذه الحروب ومرمها ، أن يتبارى الجيشان المؤلفان من فتيان أنجاد يتنافسون فى الاقدام والنخوة ، يزود كل فريق عن قواعده وعن شعاره . فتبدأ المعركة فى منتصف الفضاء الواسع الذى يتوسط البيوت ويرتفق به الأهالون حين دراس القمح وتقشير الذرة .

وموعد القتال بعد تناول العشاء وصلاة العشاء ، فتصطف القوتان المقاتلتان متقابلتين بينهما مرمى حجر .

وقد يتقدم التحام الصفوف مناوشات أولية يقوم بها بعض الأحداث من جنود الفريقين ، حتى إذا حى الوطيس تراجع الصغار إلى المؤخرة ، وأقدم القواد والجنود المدربون إلى أمام ، ويكون كروفر ، وضرب وجيع وضرب رقيق ، وليلة لنا على عدونا نطارده إلى منتهى الميدان إزاء قواعده ، وليلة لعدونا علينا يطاردنا إلى منتهى الميدان من ناحيتنا . ويطير للفتيان البواسل صيت وتمتد لهم شهرة بين شباب القرية وشيوخها على السواء .

وقل مع ذلك أن يشج رأس أو يسقط جريح ، ذلك أن اللبدة تصون الرأس من وقع الجريد كما تقيه الخوذة وقع الرصاص .

والحرب تنشب ، والقتال يستعر ، والعجاج يثور ، وآباء الفريقين خلال ذلك إخوان يتسامرون في ندوة واحدة ، أو يألمون لكريهة واحدة .

أما أنا فلم ينتظر بي والدى رحمه الله، حتى أبلغ مبلغ القوادى تلك الحقب الخوالى . فقد كانت سن القائد قرابة ثمانية عشر عاماً ، أما الذين كانوا فى العاشرة من أترابى ، فإنما كانت مهمتهم صياح إعجاب ببطولة الأبطال ، أو سرعة الفر كلما عجز الكبار عن سرعة الكر، وهكذا جئت إلى القاهرة لالتحق بالسنة الثانية من إحدى مدارسها الابتدائية ، منذ عشرات من السنين ، ولا أقول كم !

وامتد عهد الحروب فى قرينتنا سنوات آخر . ثم انقضى مع الأسف فانقضى عهد رياضى عظيم المنافع . فقد كان المتحاربون بالليل إخوان صفاء بالنهار ، يحفظون القرآن فى كُتّاب واحد ، أو يتعاونون على مصالح الأسر وخدمة المزارع بقلب واحد . وكانوا إلى ذلك يتخلقون بأخلاق الرياضيين الذين يحقرون الطراوة والميوعة ، ويكبرون خشونة الرجال ومسلك الرجال ، فإذا استصرخوا فى الخطب الملم ، كانوا أسرع إلى إغاثة الملهوف من هبوب العاصفة .

أذكر على ذلك شواهد . فى ذات ليلة من ليالى ذلك العهد، تجاوبت هدأة الليل البهيم بصرخة مستنجد فى حقل بعيد . فما هى إلا كلح البصر . حتى هبت القرية من رقادها كشعلة من لهب . هذا يحمل فأساً ، وذلك يحمل هراوة ، عدا عشرات البنادق ومئات الخناجر والمدى ، وتعالى الأصوات من الجموع الزاحفة ، أن . اثبت فى مكانك ، وفر اللصوص المسلحون مروعين قبل أن ينالوا منلاً من نفس أو مال .

وشب ذات يوم حريق هائل ، ولم تكن المطافىء قد عمت مراكز البوليس فى الأقاليم .

فيا لها من عظمة أبدأها الرجال ، بل يالها من عظمة أبدتها النساء من أمهات ذلك

الجيل المحارب بالجريد . يالها من عظمة في الكفاح والنضال ومصارعة السعير . نسي كل امرئ نفسه وذكر جاره . غابت روح الفرد ، وتجلت روح الجماعة . فكنت ترى المثل الأعلى الذي ينشده الأنبياء والفلاسفة في كل جيل ، وقد أضاء بنوره تلك القلوب الخيرة الطيبة — حين ناداها المنادى من أعماق الضمير : هذه ساعة التجربة ، ساعة النخوة ، ساعة الإنقاذ .

كان جيلا رياضياً ، فيه شهامة الرياضيين وصحة الرياضيين .

كانوا إذا أقر الليل ولم تشغلهم حرب الجريد ، يلعبون بكرة ضخمة محشوة بالقطن المضغوط أو ما يشبهه ، مجدولة المحيط بالخيوط الغلاظ ، يتقاذفها الفريقان المتباريان بالحاجن الثقيل ، لا يقوى عليها سوى الساعد المتين والعضل المكين . كانوا يحسنون ألعاب العصا ، أى (النبوت) ، وما أدراك ما النبوت غلظاً ووزناً . ينافخون به عن رؤوسهم وأبدانهم في حذق ومهارة ، أو يخالسون به المقارعين في مهارة وحذق . وكانوا مولعين بركوب الخيل واقتناء الجياد ، يسعون إلى الموالد من إقليم إلى إقليم ، يقصدون حلقات السباق حيث يتناجز الفرسان ، أيهم يدرك صاحبه فينال منه إذا احتدم الصيال واشتجر القنا .

فهل من عجب أن كان آباؤنا نحن الكهول ، أعنى أجدادكم أنتم يا شباب مصر ولا سيما شباب ريفها العتيد ، هل من عجب أن كان جلهم أصحاب نخوة ونزاهة وشم ، وإن لم يكن جلهم أصحاب قراءة وكتابة ومعرفة بمجدول الضرب وأصول الجمع والطرح ؟ لقد كان أكثرهم يقرض القرض الحسن أو يقترضه ، ولا مستند ولا إيصال ولا حسيب ولا رقيب إلا عين الله وعين الوجدان ، وقلّ منهم كان الخؤون أو الخادع والمماطل الكذوب .

لقد حالت في القرى هذه الحال أو كادت . وأصبحت قلة من الأشقياء يعيشون في الأرض فساداً . يقتلون النفس الزكية في ظلام الليل أو رائحة النهار ، طمعاً في الخسيس من حطام الدنيا ، أو شفاء للغليل من سموم الأحقاد ، أو لقاء أجر تاعس كل قرش من قروشه قرحة دامية من غضب الله وملائكته والناس أجمعين .

وقد يعرف نفر من الأهلين من هو المجرم السفاح ، ثم يمنعهم الخوف المذل
والجن المهيمن من أن يتقدموا بما يعلمون من أمر الجناية والجاني ، إلى رجال الأمن
ومناط العدل في البلاد .

الأرحمة الله على آبائنا نحن معاشر الكهول ، وهم أجدادكم أنتم معاشر الشباب .
كونوا رياضيين . تعهدوا القرية بتجديد مدارس فيها من نافع التقاليد . لا أقول
أعيدوا حروب الجريد . ولكن جددوا الملاعب وأوسعوا للمباريات . كونوا أنصار
الرجولة والشجاعة في كل قرية وضيعة . يومئذ تأبى الأخلاق الكبيرة والقلوب
الكبيرة — تأبى لبضعة من الأشقياء أن يستذلوا ألوفاً من الأنفس الكريمة في قرية
كريمة .

يومئذ يظهر الريف المصرى من دنس الأشقياء ، ويبرأ الريف المصرى من وباء
الأشقياء — بالشجاعة والكرامة وعزة الرجال .

أمراض المدينة وأعراضها (١)

ارتباك وهلع في إنجلترا، وصرارة وغيظ كمين في ألمانيا، وحذر وإشفاق في فرنسا، وكساد يشبه الشلل في أمريكا، وروح أشعبية خطيرة في إيطاليا، وتحفز للوثوب في روسيا البلشفية، وإبادة دامية في طرابلس، واستعباد في تونس والجزائر في مراکش والريف، وانقلاب بقوة الحديد والنار في مصر، وفتنة من صنع إنجلترا في فلسطين، وعبث من صنع فرنسا في سوريا، والأعيب في العراق، ودسائس في بلاد الأفغان، وبمجرلجى من العدوان في الهند، وتنور دائم الفوران في الصين، وتحرش بالجار في اليابان.

هذه لمحة خاطفة ترتد منها العيون حيرى والألباب ذاهلة والقلوب واجفة. فبعد أن قضى العالم خمس سنين في حربه الكبرى التى اقتلعت شجرة السلام من جذورها، وأكلت ملايين الأنفس وشوّهت ملايين الأجسام وابتلعت ألوف الملايين من الذهب، وجعلت العمران يباباً والقصور قبوراً، هانحن أولاء نرى العالم بعد انقضاء ثلاثة عشر عاماً على انطفاء ذلك الحريق المروع، وما زالت المطامع الجديدة هى المطامع القديمة، وما زالت الأمراض التى كانت الحرب عرضاً من أعراضها وطفحاً من سمومها، هى كما كانت قبل وقوع المأساة العالمية، فالدول الكبرى يخاف بعضها بأس بعض، ويحقد بعضها على بعض، وتضمهر كل دولة منها لجارتها فى التخوم، أو لنظيرتها فى المتاجر والأسواق، أو فى التسلط والاستعمار ما لو تكشف للناظرين لراعك أن ترى وحشية القرن العشرين كوحشية الإنسان البدائى فى الأحرار والكهوف. وإنما ينادين بالسلام رياءً وخوفاً، ولو صدقت النيات لما رأينا كلمات السلام مقرونة بالمزيد من أسباب الهلاك، ولا رأينا إيطاليا ترتكب جرائمها المنكرة فى طرابلس، وأحدثها تلك اللطخة الدموية التى ستظل عاراً عالقاً بجبينها مادام للبشرية بقية من ضمير، ولا رأينا فرنسا تفعل أفاعيلها فى مراکش والريف وفى دمشق وجبل الدروز، ولا رأينا إنجلترا تأثم آثامها فى مصر وفلسطين، وتسلط كابوسها الخانق فى الهند على مئات الملايين من الشاكين المستصرخين.

إن الغرائز الضارية مازالت صاحبة السلطان الأكبر على حضارة الغرب .
 إن كبريات الدول الغربية نكبات بعضهن على بعض ، ونكبة أعظم على أمم
 الشرق وعلى رغم جامعات أوروبا وفلسفاتها وعلمها الذي كشف كثيراً من أسرار
 الطبيعة ، وسخر عناصرها لإرادة الإنسان ، وعلى رغم الفن الجميل والأدب المستفيض
 والصناعات البارة ، مازال ساستها وقادتها عبيداً لغرائز الأثرة وحب الغلب ، وعبادة
 القوة دون الحق ، فلا فرق بينهم وبين طغاة الجاهلية الأولى .

ومالم يسيطر وازع العقل على دافع الغريزة في سياسة الدول ، ومالم تنبت في نفوسهم
 نابتة الضمير الذي يحترم الحق ولو كان أعزل .

ومالم تصبح مصانع الدنيا أشبه بمصنع واحد ، ومزارعها أشبه بمزرعة واحدة ،
 وأسواقها أشبه بسوق واحدة ، كل غرضها توفير الخيرات ، وتهيئة أسباب الرغد للجميع ،
 فلا تجوع أمة لإشباع أمة أو تشقى طبقة لإسعاد طبقة .

فليعلم مكدونالد ، وليعلم بلدوين ، وليعلم هوفر ، وليعلم كل قاتل بالسلام ، ويشهد الله على
 ما في قلبه وهو ألد الخصام ، أن كل علاج للكوارث العالمية سيذهب جفاءً وزبداً
 ثم لا يطول المدى حتى تطفح سموم الحسد مرة أخرى أشد وأفظع .

صبراً يا مصر (١)

لسنا أمة محاربة ولكننا أمة ذات حق . ولو أن القوة القاهرة كان في وسعها أن تمحو قضيتنا من سجل المظالم الانسانية ، لأدركنا لهذه التصرفات حكمة .
أما وقد عرك أولئك الأقوياء . صروف الزمان ، وخبروا أطوار الأمم فقد كان جديراً بهم أن ينتفعوا بتجاربيهم ، وتجارب من سواهم من الدول ذوات البطش والسلطان .

كان جديراً بهم أن يذكروا عبر الماضي ودروس الحاضر . كم من أمة قوية غلبت أمة ضعيفة على حقها ، ثم لم تزل بها تحجب عنها نسمات الحياة القومية وتضع الاسداد في سبيل استقلالها وأمانها ، حتى إذا ظنت القوة أنها أخذت أنفاس الضعف ، وذهبت بروح الوطنية ، إذا بوميض من تلك الروح قد برقت منه بارقة ، وإذا بتلك البارقة قد استحالت شعاعة ثابتة ، وإذا بتلك الشعاعة قد اتسعت وامتدت ، فعم ضياؤها ، وأصبح ما كان بالأمس بصيصاً ضئيلاً وكأنه شعلة عظيمة ذات حرارة لا قدرة لدولة في العالم على أن تبردها . وذات نور لا قبل للإنس ولا جن على حبسه أو إطفائه .
هنالك تعلو كلمة الحق على جيوش الباطل ، وتصيح طيور الحرية ، مغردة على أفنان شجرة مباركة ، أصلها ثابت في قلوب الأحرار ، وفرعها باسق في سماء الاستقلال .
هنالك ترجع القوة الغاصبة بصرها إلى ماضيها ، فتري صحتها خلواً من كل رفق أو مكرمة ، أو إنصاف .

ثم تنظر في حاضرها فإذا بطشها قد عاد خوراً ، وإذا أظفارها ومخالبها قد عادت أصابع واهنة متآكلة ، من طول ما نشبت في حقوق الأمم ، ومن طول ما قلمتها صروف الحداث .

ثم تنظر إلى الشعب الذي كان بالأمس مهيب الجناح ، خافت الصوت ، مرهقاً معذباً يحاول الإفلات من قبضتها القاسية فلا تستطيع تنظر إليه ، فإذا به حراً طليقاً

قويًا ذا حياة فتيّة ، وأعمال زكية ، وأيادي بيضاء في إقامة المدينة ، على أساس خالد
من الرحمة والعطف والأخاء .

فمهلاً يا قوة فذلك مالك ، وصبراً يا مصر فهذا مصيرك السعيد .

مصر الفتية

بين أغلالها ومطامحها

قبل سنين لم تبلغ بعد أصابع اليد الواحدة عدداً ، كنا نسمع أزيز الطائرات الأجنبية تمخر عباب الجو فوق رؤوسنا في المدائن والقرى ، فنستخذي من الخجل ، أن تكون مصر مغلوبة على أمرها في البر والبحر ، ثم يضاف إلى أسباب استكانتها سبب جديد ، هو هذه السابحات في الفضاء كالحمام الوديعه أيام السلام ، فإذا استعرت الحرب أو طفئ القوى على الضعيف ، انقلبت الحمام البيض صواعق حمراء من فتك وتدمير .

تلك خطرات سريعة ألمية يلتاع لها شعور المصريين ، كلما رفعوا أبصارهم إلى الطائرات الأجنبية بين الإعجاب والحسرة ، وكلما ارتدت أبصارهم إلى الأرض تألماً من عجز مصر وخجلاً !

تألماً من عجز مصر وخجلاً ؟ ! يا لها من كلمة كئيبة شوهاء .

مصر ليست بالعاجزة . مصر الفتية الناشئة الناهضة ابنة اليوم الحاضر ، ليست بعاجزة . كلا . ولا حاجة بك ولا بى ولا بأحد من الكتاب أو الشعراء ، أن يستعير لها ألوان المجد القديم من أجدادها الفراعنة أو آبائها العرب ! ذلك أن لمصر الفتية بنت اليوم الحاضر مجداً طريفاً ، تريد أن تبلغه في يومها هذا وفي غدها القريب ، كما بلغت مصر الفرعونية ومصر العربية مجدها التليد ! أما مظاهر العجز التي تراها ، فليست إلا مظاهر . نعم ، وليست إلا ظروف القاهرة ، وغلبة مسلحة في البر والبحر ، وظلماً من الخارج وظلماً من الداخل — ظروفاً القاهرة ولدت مصر الفتية مغلولة بأغلالها مرتطمة في غمارها ! وما زالت تعاني منها ما يعاني المختنق المكظوم من جو فاسد مسموم ! فهل تسمى ذلك عجزاً إلا كما تسمى احتباس الأساد المقهورة بين قضبان الحديد

عجراً؟ فإذا سميته عجراً، فهل هو عجز كامن منبته طبيعة الأسود، أو هو عجز طارىء لا يلبث إذا حطمت القضبان وأخلى السبيل للملك الغاب، أن يستحيل جرأة وإقداماً وقوة صائلة جائلة في ميادين الغلب ومعتك الحياة؟ دليلنا قائم وقريب! دليلنا قائم وقريب على أن مصر الناشئة كمصر المجيدة الماضية، ليس يعوزها عنصر من عناصر الحيوية المنتجة، ولا عامل من عوامل السبق والتبريز، فيما تزدهى به الحضارة ويتم به العمران. ودليلنا قائم وقريب على أن المصرى إذا أخلى سبيله ولم تعترضه القوة الغاشمة، أو السياسة القاهرة، انتهى بمواهبه وعزيمته إلى مثل ما تنتهى إليه همم الغرب وقد تفوقه وتعلوه، ذلك على حداثة عهدنا بطرائق الغرب وعلومه ووسائله!

وإليك الآن يا صاحبي بعض الشواهد، بعض شواهد قليلة فيها الدلالة السعيدة الناطقة بأن مصر الحديثة ليست أقل استعداداً للارتقاء إلى مستوى الغربيين، أو العلو فوق مستواهم، إذا لم تقف السياسة الملتوية الحاسدة سداً في طريق المصريين! بنك مصر ما هو؟ ما ذا كان يوم ولدت له المهمة الشماء وماذا هو اليوم؟

ولدت له المهمة المصرية، واحتضنته المهمة المصرية، وقام على تنشئته وتنميته، وتأصيل أصوله، وتفريع فروعه وتوليد مواليده، الفر الميامين، في كل مدينة مصرية وفي عواصم الشرق العربى، وفي عاصمة العواصم «باريس».

قام على هذا كله رجال حصفاء، يزنون الدرهم بالدقة التى يزنون بها الطن والقنطار، رجال يعيشون فى الحاضر المتواضع بشخصهم، ولكنهم يعيشون فى المستقبل بأحلام صادقة كأحلام الرسل والأنبياء، أحلام تصدقها الأعمال، ومطامح تبدو للعاجزين بدوات أثرية وأخيلة وهمية، فلا يكاد يغدو عليها الغد أو يمر عليها العام، حتى تراها حقائق بارزة متينة جسيمة، تملأ العين المصرية من جلالها وعظمتها فرحة قريرة، فيطمئن المصرى إلى أن تدبير المال الوطنى، وإنشاء الصناعات الوطنية الواسعة النطاق المكفولة النجاح، ليس وقفاً على بلاد الغرب ومواهب الغربيين، ويطمئن المصرى إلى أن اتهام مصر بالعجز فى هذه الناحية الحيوية من نواحي الحضارة، إنما هو خرافة غربية وتهمة أجنبية، ألح القوم فى إعادتها وتكرارها تحذيراً للمصريين، وقضاء

على بذور النبوغ فيهم ، وسدّاً لباب الأمل أمامهم وأبواب العمل !
خبرني وأبيك ، ماذا يستطيع الغربي لبلاده في ميادين المال والصناعة
على اختلاف ضروبها ، وإنشاء المنشآت التجارية الحديثة ، متصلة الحلقات متنوعة
الألوان والأشكال في البر والبحر وفي أجواز الفضاء — أكثر مما استطاعه لبلاده
طلعت حرب وإخوانه المصريون في هذه الميادين حتى الآن ، وهم ما زالوا يسبحون
في أحلامهم لمستقبل مصر الصناعي والتجاري ، ما زالوا يحملون بالليل ، ويحققون
أحلامهم الصادقة الجيدة بالنهار ! وهل تظن منافع هذه المنشآت الجليلة مقصورة
على نتائجها المادية محسوبة بالدرهم والدينار ؟

كلا . بل إن لها من الفوائد المعنوية ما يزيد على فوائدها المادية .

لقد عاودت المصريين ثقتهم بأن بينهم عدداً عظيماً من الأفراد القادرين على أن
يسابقوا الغربيين في كثير من الأعمال التجارية والصناعية الحرة ، وها أنت ذا ترى
اليوم ، وسترى في الغد القريب ، منشآت من هذا الطراز لأفراد مصريين ، ولجماعات
مصرية تفخر بها البلاد ، وتزدهر على أيديهم حياتها الاقتصادية !

والآن ، عرج بنا إلى ناحية العلم والعلماء ، وناحية الفن ورجال الفن .
أليس بين المصريين من يقصد إلى جامعات الغرب طالباً بادئاً ، فيعود في بضع
سنين عالماً يحمل أضخم الألقاب من أعظم المعاهد ، فإذا عاد إلى بلاده ، فهل ينقصه
سوى الجو المستقل الحر ، الذي لا تكاد القرائح تثمر أنضج ثمارها ، إلا مستمدة
من أشعته ، محفوزة بإلهامه ؟

وإذا كانت الحرية ، وكان الاستقلال ، خير بيئة تحفز العلماء المصريين إلى أن
ينتجوا خير ثمرات القرائح ، فهما كذلك خير بيئة تدفع رجال الفن من أبناء الوطن
إلى أن ينتجوا خير ثمرات الخيال !!

ذلك أن الوطن المستقل الحر يحنو على أبنائه النابغين كما يحنو الوالدان على طفلتهما
النجيب المتوقد . يحنون عليه ويعجبان به ، ويستثيران فيه كامن القوى ، بما يبديان

له من عطف وتقدير ! وكذلك الوطن المستقل الحر ، يعلم أن رفعتة لا تكون إلا بأبنائه
وبكد سواعدهم القوية وقلوبهم العامرة ، وقرائحهم المضيئة ، وهمهم العالية !
يومئذ يحس كل مصرى ، ولا سيما طبقة النابغين الممتازين ، أنهم الأركان ،
وأنهم العمد ، التى يقوم عليها صرح الوطن المستقل الحر . وكفى بهذا الشعور دافعاً
للعلماء المصريين إلى التوسع والتبحر والاختراع ، ودافعاً لرجال الفن من المصريين إلى
الابتكار ، حتى يبلغ منهم الموهوبون مراتب العباقرة الأفاض .

وهل يرتاب أحد فى أن البيت الخالص لأهله ، المتفرغ لشئونه ورعاية أبنائه ، غير
البيت يغلب الغاصب أهله عليه ، مسلحاً بالمكر والخديعة تارة ، وبالحديد والنار أخرى ؟ !
وهل يجهل أحد أن شعور الكبرياء والكرامة ، والاعتزاز بالوطن المستقل
الحر — شعور يعمل فى النفوس عمل السحر ، فيسمو بها إلى غاية ما تستطيعه الطبيعة
البشرية ، من كدح متواصل فى سبيل الاحتفاظ بجزية الوطن واستقلاله !

فالعلماء ، وأهل الفن ، والأدباء ، وذوو الرأي ، والتجار ، والصناع ، وكل من
رواه وروى آباءه ماء النيل ، إنما هم تحت راية الوطن المستقل الحرجنود بواسل ، لا فرق
بينهم وبين الجيش المحشود فى ميادين القتال ، سوى اختلاف فى أنواع السلاح
ووسائل الدفاع !

لقد شهدت بذلك أحوال الأمم الحرة المستقلة ، خلال سنوات الحرب العظمى ،
بين دول الحلفاء وأعدائهم على السواء .

لقد استحال فى تلك السنين رجال الوطن ونساؤه ، شيوخه وشبابه ، علمائه
وجهاله ، جامعاته ومصانعه ، وكل معهد فيه ومتجر ، بل كل ذرة من ذرات الوطن
المستقل الحر ، إلى كتلة مترابطة هائلة من الأيدي السريعة العاملة ، والعقول السريعة
المنتجة ، والأرواح القوية المبذولة فى حومة الوغى تحت النيران ، أو فى حومة الإنتاج
الخارق لكل مألوف معروف ، تحت راية الوطن الذى يكافح عن الحرية ، ويرفع
لواء الاستقلال .

هذا وعلى رغم القيود والأغلال التي أوثق بها مصر ظلم الظالمين ، وجور المستعمرين ، وعلى رغم الظلام الحالك والجو المسموم الذي يحيط بهذه الأمة الصابرة المجاهدة ، ترى بذور النبوغ تنبت في أرض مصر الخصبنة المنتجة ، في كل منحى من مناحي الحياة .

ولا نريد أن نتمثل في عالم الأدب ، بطريد الاضطهاد ، الذي ضاقت به الجامعة المصرية — الدكتور طه حسين .

ولا نريد أن نتمثل في عالم الفن ، بالطريد الآخر الذي ضاقت عنه مصر في هذا العصر ، واتسعت له باريس — المثال مختار .

وإنما خصصناها بالذكر هنا لما عانيا في جو مصر الحاضر من عنف ، ولأن شأنهما وشأن كثير من رجالات الأدب والفنون في مصر ، دليل ناهض على أن أخلص ما تكون الآداب والعلوم ، وأصفي وأغرز ما تكون ثمرات المواهب والعقول ، حين تخفق على ربوع الوطن ، راية الحرية والاستقلال !

على أننا في هذا المقال لسنا بسبيل التفصيل والإحصاء لما يصيب مصر من أذى خصومها في الداخل والخارج ، ولا بسبيل التفصيل والإحصاء ، لما يوضع في سبيل ارتقاءها من أسداد وعقبات .

وإنما مرادنا بهذا المقال أن نثبت استعداد المصري لأن يلحق بالغربي — وقد يفوقه في حلبة الحضارة ومعتزكها — إذا لم تغلق السياسة الملتوية في وجهه أبواب الفرص ولم تسلبه حرية النبوغ .

ماذا تختار أن أحدثك فيه من دلائل القدرة المصرية ، والكفاية المصرية ؟
أميدان الرياضة البدنية والقوة الجثمانية وأساليب المهارة في ألعاب الغرب ؟
قلما يمر بك عام بل شهر دون أن تقرأ أو تسمع ، أن بطلا مصرياً قد ذاع صيته في أوروبا ، واشتهر انتصاره على أبطالها في نوع من أنواع الرياضة التي كلف بها القوم ومرنوا عليها منذ أجيال !

أتريد أن تقفز من هذا الميدان إلى ميدان الثقافة ، ثقافة البنات في مصر بله
ثقافة البنين ؟

إن هذا العام قد شهد فتاة محامية مصرية ، وشهد طبيبات مصرية ، درس
منهاج الطب كله كشأن زملائهن من الفتيان !
أتريد أن تنتقل من الأرض إلى السماء طفرة ، ومن سباق اليايسة إلى
سباق الهواء ؟

إن لطفية النادي ، تلك الفتاة المصرية النابتة في بيت مصرى ، كذلك الذى
يضم إخوانك وبناتك ، والى لم يروها ماء غير ماء نيلك ، ولم تظلمها سماء غير سماء
وطنك ، لطفية النادي هذه إحدى الملايين من أخواتك ، قد بدا لها أن تتعلم الطيران
منذ زمن ما نظنه يعدو سنتين ، وقد يكون أقل ، فكانت مدرستها إحدى منشآت
طلعت حرب وإخوانه — وفجأة ، وعلى حين غرة من جم غفير من نسور الجو
المشهورين ، وأبطاله المحنكين الذين قدموا إلى مصر زرافات ووحدانا ، ليتسابقوا
فيما بينهم أيهم أعظم سرعة وأوفر حذقا بفن الطيران — نقول فجأة وعلى حين غرة
من أولئك النسور الجوارح ، تبرز فتاة في الميدان ، وتحلق في الجو وتعلو إلى السماء ،
متواضعة باسمه ، ولكن مطمئنة واثقة .

فما هى إلا أن تعود الحمامة المصرية الفتية منتصرة ظافرة ، وما هو إلا أن يعود
النسور الجوارح متخلفين مسبوقين ، ولكن مهنتين دهشين !
أمعجزة هذه أم سحر ورثناه عن موسى وهرون ؟ لا هذا ولا ذاك . بل المواهب
المصرية القديمة مازالت تنحدر على الأجيال والحقب ، من مصر الماضية المجيدة ،
إلى مصر الفتية الطامحة !



ومنذ مصرع الشهيد الطائر (حجاج ودوس) فى سبيل الواجب ، ومنذ
هذا الانتصار العجيب الذى أحرزته مصر الفتية فى شخص لطفية النادي بنتها الفتية ،
ومنذ الجهود التى بذلها « سالم » والمصاعب التى صادفها « حاذق » فى الصحراء غير
مما كتبت م — ٥

متبرم ولا نادم — منذ هذا كله أصبحنا وأمسينا نسمع أزيز الطائرات الأجنبية ،
فلا نستحذى ولا يعرونا الخجل ، يقيناً منا بأن القوة الغاصبة هي التي تحول بين مصر
وبين أن يكون لها أسطول جوى محترم ، وجيش عظيم العدد عظيم العدد ، وأقدام
ثابتة راسخة في كل ناحية من نواحي الحياة !

ولكني أتعزى فأقول ، أن مصر الحرة المستقلة ، ستكون هي الكفيلة بهذا
كله ، لأن هذا كله وأضعاف أضعافه لن يكفله لنا سوى الحرية والاستقلال !
لذلك أهتف من أعماق نفسي . ليحيي العاملون للحرية ، العاملون للاستقلال .

١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨^(١)

لك الخلود والتقديس يا ذلك اليوم الساطع بين غيوم السنين . لقد جئت نفحة
علوية من عند الله ، كي تعلم اللاصقين بالأرض منا كيف يطمحون إلى السماء بالعقول
والقلوب والهمم .

كم وددنا أيها اليوم الأغر لو دمت فينا سرمداً — لا لنجاهد خصيمة الأمس وحليفة
اليوم ، ولكن لنجاهد في طوايانا شرور أنفسنا ، ولا لنريق دمًا زكياً ، أو نزهق روحاً
غالية ، ولكن لنريق بيننا كل شهوة خبيثة وكل مفسدة فاشية .

لو دامت فينا عظمتك أيها اليوم الأغر ، لضحى اليوم بالمطامع من كان في أيامك
يضحى بالمهج ، ولو دامت فينا عظمتك ، لما استباح المغنم المحرم ، من كان في أيامك
يتجرد حتى عن حقه المشروع طوعاً ، كما يتجرد السيف من غمده ليلمع في حومة النضال .

عزيزى ١٣ نوفمبر :

يا أيامك من أعلام كانت مرفوعة في مجاهل الفتن . يالها من واحات في صحراء
تاريخنا الحديث كانت مزهرة مثمرة .

في أيامك أيها العزيز — كان الصالح العام فوق المنصب وإن جل ، أما بعد
أيامك فكم أصبحت العلاوة وإن هانت فوق الصالح العام .

في أيامك كم طهر الشرف الوطنى نفوس الفجار . أما بعد أيامك أيها العزيز فكم
خفنا حتى على نفوس الشرفاء .

في أيامك — كم فنى المصرى فى مصر ونسى ذاته . أما بعد أيامك ، فكم فنى
فى ذاته ونسى مصر لنسيانك أيها اليوم العابر الخالد .

فى أيامك ، كان الأسمى الساذج يهتز حمية وعزة كلما رنت فى أذنه أو جرت على
لسانه كلمة الوطن . أما بعد أيامك فكم يموت هذا الاسم الكريم بلفظه ومعناه
فى نفوس مثقفة !

في أيامك ، كان جهادنا تنافساً في سبيل الهدف المشترك . أما بعد أيامك ، فكم
كان تنافراً في سبيل المغنم والثمرات والسلطان .
في أيامك ، كم كان الأطفال بفضل شرك العجيب فتیاناً ، وكان الفتیان رجالاً ،
وكان الرجال أبطالاً بوسائل . أما بعد أيامك فكم أصبح الفتیان أطفالاً ، والرجال
غلماناً لاعبين ، أو شيوخاً مقعدين .

في أيامك نافست فتاة مصر نجوم السماء في السنا والسناء ، وفي المناعة والصون ،
دون ترفع عن دخولها الملهم في ساحة المجد ومواطن العمل . أما بعد أيامك فكم
تنافس فتاة مصر نجوم السينما في التبرج والطلاء ، وفي التماس إعجاب الناظر والمتفرج ،
بالتظرف المصنوع والحياء المرفوع ، والسباحة العارية إلا قليلاً بين العراة إلا قليلاً .
وفي رقص المحاصرة بين كؤوس لو احتساها أخوها في أيامك يا عام الجد والشرف ،
لعهده المجتمع بدعاً جريئاً ، ولوراها قاسم أمين لولى منها فراراً ، ولبرىء إلى التاريخ
من حرية رآها رشاداً وحكمة ، فإذا هي فوضى وجنون !
في أيامك — كم عبدنا الوطن بعد الله . أما بعد أيامك ، فما نكاد نعبد الله
إلا بعد المال والجاه والآثرة الضاربة .

عزيرى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨

أحن إليك وأفديك وأتعطش إلى كوثرك الذى شرب المصريون من صفوه
كؤوس الأخاء خلال الجهاد .

أتعطش إلى ماء الحياة من كوثرك ، فهل يعود فيروينا ويحيى فينا موات النفوس ؟
وشموسك وأقمارك وكواكبك الروحية الدرية — ألا تتفضل فتغير حرارتها
وضيائها أخاك الذى ولده والدك الزمان — هذا الصباح ؟

عزيرى .. لقد شاخت ذكراك في قلوبنا فشخنا . ألا تودع أسرارك جوانح
اليوم الجديد عسى أن تناجينا بنجواك ، فذكر ، ونستعبر ، ونشجى ، ونحيى من جديد !

(١) مرحباً تحس السلام!

مرحباً شمس السلام بعد طول احتجاب !
عسى نورك أن يمحو من الدنيا المظالم كما يمحو الظلام !
عسى أنسك أن يجفف دموع الملايين وأن يرفه عن كل حبيب لوعة رزئه
في الحبيب !
عسى أشعتك أن تنفخ قلوب الجماعات والأفراد بنخصب علوى ، يثمر الأخاء
والعدل ، ويثمر الرقي والحكمة !
عسى حرارتك أن تبعث الحياة من الموت ، والأمل من اليأس ، والعمل
من الركود !

عسى بهاء طلعتك أن يجدد لهذا العالم بهاء مضاعفاً وجمالاً قشياً ، يذهب
دمامة الفاقة والجهل ، ودمامة الخوف والمرض !
أهلاً وسهلاً بإشراقك يا شمس السلام أيتها العزيزة الحبيبة إلى الله والناس ، بل
الحبيبة إلى الطير في الأجواء ، طالما هالته أو قتلتها في غيبتك قذائف منقضة وأخرى
مضادة ، بل الحبيبة إلى الأسماك في البحار قتلتها أو روعتها بفتكاتها باخرة أو مدمرة
أو غائصة ، بل الحبيبة إلى كل حي فوق الأرض وتحت السماء ، من نملة تسعى لرزقها ،
أو نحلة تعكف على زهرها ، أو فراشة تهفو ، أو زاحفة تنساب ، ولا أمن لها ولا دعة
إلا في حضرتك يا شمس السلام !

لو تعلمين ما منيت به الدول والشعوب منذ احتجابك يا قرة العين وينبوع النعم !
لقد ابتذل الانسان مكنون العلم الذي كشفه الله لهذا العصر دون سابق العصور
ترقيةً للبشرية في معارج المعرفة ، واثماناً لها على أسرار الطبيعة عسى أن يعود المرء
ربانياً يقول للشيء بإذن ربه « كن فيكون » بفضل ما منحه من قدرته ، وأولاه

من مفاتيح غيبه وحكمته — فخان الإنسان أمانة مولاه ، واتخذ العلم وهو من صفات الرحمن ، سوط عذاب وخراب وموت ذريع عميم !

وتبارى — يا شمس السلام في غيبتك — طلاب الغلب وطلاب النجاة أيهم أشد بطشاً عن طريق العلم ، وأفتك أسلحة وأسرع تدميراً وقتلاً .

فوا أسفا على ألوف الألوف من الأرواح المزهقة والأطفال الميئمة والنساء المؤيمة !
ويا أسفا على أعواد الشباب الغض تحصدها مناجل الحضارة المزعومة ويا كلها سعيها ،
كل جيل مرة ! ويا أسفا على أم كانت مجيدة ، فأرادت أن تستذل غيرها من الأمم
بالحديد والنار وبالنفر العديد والعلم العتيد ، فذلت التاعسات المسكينات واستكانت
وباد مجدها بفعل النار والحديد والنفر العديد والعلم العتيد ، كأن لم تغن بالأمس
القريب ولا الأمس البعيد !

ويا شمس السلام — لو اطلع جناة الحرب على محبوب الغيب لما استقدحوا
زنادها ولا أوقدوا شعلتها ، ولآثروا لأشخاصهم العافية ولأثمهم السلامة ، فضرعوا إليك
مخلصين كما نضرع أن أديمي على البشرية ضياءك وأنسك وهداك .
آها لما أصاب الأمنين الوادعين !

لو أنها كانت حرب تناجز بالسيوف أو تطاعن بالرماح ، أو ترام بالنبال ، بل لو
أنها كانت حرب رصاص تقذفه البنادق أو قنابل تطلقها المدافع في الميدان فلا تصيب
إلا المقاتلين خاصة ، لا نحصر البلاء في حدود لا يعدوها ، ولهانت الكوارث بعض الشيء
على الغالب والمغلوب . لكنها حرب أصبحت عمياء لا تبصر ولا تريد أن تبصر ماذا
تحرق : أمعبد أم معهد أم بستان أطفال دارجين ، أم ملجأ شيوخ فانيين ! . وهي حرب
أصبحت صماء لا تسمع ، ولا تريد أن تسمع إغوال الرضيع على صدر أمه الممزق ، ولا
انتحاب الأم على اشلاء رضيعها المتناثرة ! حرب بلا قلب ولا سمع ولا بصر ، تهدر بأمواج
كالجبال ، فتغشى المدائن والقرى من فوقها ومن بين يديها ومن خلفها كطوفان من سقر !

والآن أهلاً وسهلاً يا شمس السلام مرة أخرى ! كلنا فرح بعودتك مستبشر بنورك . لا عليك بعضاً من أثرياء الحرب الذين استكروا في غيبتك بعد مسغبة ! إنهم يودون لو تسيل الدماء في أقطار الأرض أبداً ، لتسيل الأموال إلى جيوبهم أبداً . لكنهم بعض وليسوا كلا . فمن أثروا خلال الحرب وهم شرفاء ، لم يجسوا عن الناس حاجاتهم الحاجة يتربصون بها إلحاح العوز ، ثم يقلونهم في مقلاة السوق السوداء . لا عليك أناساً شبعوا بإجاعة الناس ، ورزقوا بحرمان الناس . إنما أكلوا في بطونهم النار . هم حرب على بلادهم متوطنة تطفأ جهرتها في النور ، وتشتعل في الظلام . هم جراثيم تشيع وباء الأخلاق ويطهرنا منها شعاعك . فأشع وابسمي بل اضحكي يا شمس السلام .

لولا ريب جديد ، يخالج النفوس في الشرق والغرب — يا شمس السلام ، لاقتربت طلعتك المحبوبة بأضعاف ما تشهد من فرح ومرح وغبطة وبشر . ذلك بأن أنشودة العدل بين الأمم ، وإنصاف الضعفاء من الأقوياء ، لبث طينها أو رنينها يطرب العالم المتسمع خمس سنوات أو تزيد . وكما أرقصت المزامير البريطانية الأمريكية مؤمناً العهد الجديد ، ما لم ترقص مزامير داود مؤمناً العهد القديم .

فما هو إلا أن لاحت تبشير النصر لأصدقاء الإنسانية ودعاة الحق والحرية ، حتى احتبست الأنشودة المقدسة في الحناجر المنتصرة ، وثقل ذكر ميثاق الإطمنطى على الألسنة الظافرة ، فلما التف الصغار والأواسط حول الكبار في مؤتمر سان فرانسيسكو سرعان ما استأسد ملائكة الرحمة والحق من جديد ، فلم يتركوا لأكثر من أربعين أمة سوى أنصباء الحملان والغزلان !

لكن الأقوياء يا شمس السلام قد لا يخشون احتجابك ، ولو جاروا على الضعفاء . ربما قال قائلهم : ماذا يملك الصغير الأعزل من الضر لدول دوخت ألمانيا واليابان ، وقد كانتا من كانتا طولا وحولا ومنعة !

لكنك يا شمس السلام شمس الله لا شمس البشر . فإذا شهدت جوراً — ونرجو أن لا يقع — فلا أقل من أن يحجب وجهك الوضاح كسوف ، أو على الأقل سحب ينعقد من أنفاس الغاضبين !

هذا هو الريب الذى يشوب فرحة الدنيا بإشراقك أيتها النعمة الغالية . . .
نعمة المثل الأعلى للأخاء والمحبة والتعاون الصادق بين الشعوب والدول .
جنبك الله الكسوف أو التوارى وراء السحب ، وجنبنا التأثير بالخوف والريب
أو التخاذل أمام المصاعب والعقبات !

والقنبلة الذرية يا شمس السلام ؟ جاء تحطيم الذرة كفيلاً بتحطيم اليابان في يومين
بقنبلتين اثنتين . وكان المنتظر أن تقاوم أشهراً أخرى . ولقد خسرت اليابان أكثر
أساطيلها فى البحر وأكثر أساطيلها فى الجو ، فلم نعلم أن الميكادو ساق التعزية
إلى شعبه الباكي حول قصره ، ألا حين دمرت القنبلتان الفاصلتان مدينتين عظيمتين
فاستسلمت أمة الشمس المشرقة لأمة القنبلة المهلكة .

هذا أخطر سر من أسرار الطبيعة أباح الله علمه للإنسان منذ خلق . فكيف
تسيطر عليه الدول فرادى ، أو كيف تسيطر عليه جماعة ؟

إن الأمم الصغيرة والمتوسطة فى غير حاجة إلى هذه القنابل الذرية التى خف
حملها وغلا ثمنها . بحسبنا نحن تلك القنبلة الرخيصة المتواضعة من ذوات الأطنان العشرة ،
فأما تلك التحفة الكونية الطريفة الظريفة من حجم البيضة فهدية الكبار إلى الكبار .
أما بعد فيا شمس السلام إليك عبارة خالصة موجزة .

يوم تصبح القنابل الذرية سلاحاً مألوفاً يستعمل فى الحق ، لن تلبث أن تكون
سلاحاً مألوفاً يستعمل فى الباطل .

يومئذ توشك حضارة الغرب أن تزول كما زالت من قبلها حضارات واختفت أمم
إنما أطلق الله للإنسان قوة الذرة ليلوه ، أيستعبد بها الأحرار ويعمم بها الدمار ،
أم يذل بها مصاعب العيش ويضاعف بهجة الحياة ؟

ثم أراد الله أن يريح كبريات الدول من تنافسها المرهق فى التأهب الدائم
بالأسلحة المجددة والجنود المجددة — فهداها سبيل الموت من أقرب طريق — وإلا
فهو سبيلها كذلك إلى الحياة !

إذن إلى الحياة يا شمس السلام . . . وهنيئاً للغالب وعزاء للمغلوب ! .

أهذا جزاء مصر...؟

حملت إلينا جريدة « التيمز » منذ يومين نذير السوء . فلنتدبر أمرنا ، ولنجمع شملنا ، ولنأخذ أهبتنا للأيام الكالحة المقبلة .

إن هذه الجريدة البريطانية الكبرى كشرت لنا عن أنيابها بعد طول ابتسام ، فأنكرت علينا مطلب الجلاء ، محتجة بحجة الذئب حين أراد أكل الحمل ، فحישنا لم يقدح الدليل على أنه يستطيع وحده حماية القناة ، والحالة الدولية ما زالت غامضة لا تسمح لبريطانيا بأن تجازف فتتخلى عن قواعدها في مصر ، حتى ترى ذلك مأمونا غير مخوف . ودعوتنا إلى وحدة مصر والسودان في نظرها ، دعوة غامضة غير مفهومة . على أن بعض السودانين يريد الوحدة أو الشركة مع إنجلترا ، إذا كان بعضهم يريد الوحدة أو الشركة مع مصر . والحكومة المصرية لا ينبغي أن تتقاضى نصيبها في الحكم الثنائي بالسودان تطبيقاً لاتفاق سنة ١٨٩٩ ومعاهدة سنة ١٩٣٦ ، فإن الإدارة السودانية قد ارتقت على أيدي الانجليز رقياً لا يجوز معه أن يكون للمصريين فيها شأن يهبط بها من جديد ، لأنهم غير أكفاء ومرتشون ...

هذا كلام وقع منا موقع الدهش . وإنما يرجع دهشنا إلى سذاجتنا التي حملتنا على تصديق الهاتفين بالحق والحرية من أعظم الخلفاء ، يوم كان الخلفاء بين اليأس والرجاء . حسب الشرق الأوسط والأدنى يومئذ ، أن عهد الظلام والعسف قد انقضى ليتبعه عهد الأخاء والنور . لكنه حسن ظن الشرق . وفي الشرق إنسانية وروحانية وإيمان بالمثل الكريم أنبت الأنبياء . أما في الغرب فصف وجفوة وإيمان بالبطش المرذول أنبت القنابل . والروحانية وحدها حيال هذا التجبر لا تنفع . فإن لم تسعفنا قوة المادة فلتسعفنا قوة العزائم . إن الحليقات الغربيات الأربع مجتمعات ، وقد سلكنا روسيا في عدادهن بعد موقفها من إيران وموقفها من الأتراك — لا تقدرن على استعباد هذا الشرق إلا إذا أسلم عنقه للاستعباد .

ان مجلس الكونجرس في أمريكا يقرر نزع ملكية فلسطين من أيدي أهلها العرب ليقم فيها الدخلاء الغرباء دولة أجنبية .

إن فرنسا تسلك مسلكها المعروف في البلاد العربية الآسيوية والإفريقية ولا تريد أن تقلع .

إن روسيا تتحيف إيران وتجنح على تركيا على الصورة التي يشهدها الجميع .
وهذه بريطانيا سنة ١٩٤٦ هي هي بافتئاتها واعتسافها كما كانت بريطانيا سنة ١٨٨٢ .

إن أولئك الحلفاء يريدون الاتجار معنا ، ويطلبون المنافع الاقتصادية في ديارنا على أن نظل في الوقت نفسه قطعاناً من الغنم أو ملايين من العبيد .
وأنا من القائلين بأن هذه الحياة الدنيا — وهي دنيا في ديارنا الشرقية بنوع خاص — لا تستحق أن يشتريها الأحرار بهذا الثمن المذل الباهظ — أعني هذه المسكنة وهذا الصغار .

لجريدة التيمز رأيها الأدنى في مصر والمصريين . أما الرأي الأعلى في ذلك فلمصر نفسها والمصريين أنفسهم . ورأي مصر الأعلى هو أن الدولة البريطانية غاصبة في مصر جائرة في السودان . فمصر لم تكن أيام الفراعنة قاعدة للجيش البريطانية ، لأن سادة اليوم لم يكن لهم في عالم الوجود مكان ملحوظ . ولم تكن قاعدة للجيش البريطانية أيام العرب ، لأن إنجلترا لم يكن لها خارج ديارها جيوش غازية ، ولا داخلها جيوش منظمة . ولم تكن لإنجلترا قاعدة في مصر في التاريخ الحديث قبل الاحتلال المشؤم ، وكانت الهند هي الهند ، والبحار هي البحار ، والقناة هي القناة .

وهذه القناة التي خسرت بسببها مصر أكثر من خمسة عشر مليوناً من الجنيهات في أثناء إنشائها وعلى أثره ، ولم يكن يقصد المغفور له الخديو اسماعيل بإنشائها سوى مجد مصر وخير العالم ، فاتخذتها إنجلترا حفرة تفرق فيها حقوق مصر وشخصيتها وكرامتها — هذه القناة لا يحرسها الخفراء كما يحرسون خزانة الذهب يحيط بها الأرصاد

المدججون في البنوك ، وإنما هي مرفق تمكن حراسته من مكان غير بعيد من الحدود المصرية — لا يستغرق انتقال القوات البريطانية إليه في زمن الطائرة والباخرة والقاطرة سوى ساعات .

ولا يعقل عاقل أن تنقض على القناة صواعق يلقيها الملائكة من السماء نكاية بإنجلترا . فإذا ألقاها شياطين أو أناس من سكان الأرض ، فلن تلبث إنجلترا أن تحشد لها من حشود الجو والبر والبحر ما تقضى به الضرورة ، من قواعد جديدة — ولتكن قريبة من هذه الديار !

قلنا إن كلام التيمز قد وقع منا موقع الدهش . وكان ينبغي أن لا ندهش فهذا مستر تشرشل ، حاز إعجاب الدنيا وأنصت له سمعها ، يوم كان بطل الحرية ولسان الحق المدوى في الخافقين ، والنار تأكل الحضارة أكلها للهشيم .

فما هو إلا أن انتصرت دعوته وخمدت النيران المحيطة به وبقومه ، حتى وقف خطيباً بنفس اللسان ونفس البيان ونفس الوجدان — أعنى لسان تشرشل وبيانه ووجدانه — في مجلس العموم — يصيح صيحة الباطل في حماسة هادرة ، كما كان يصيح صيحة الحق في حماسة هادرة ، إذ يزعم — « يقولون إن لمصر ديناً على إنجلترا — ألم نحملها من ذلة الغزو بأنفسنا وأيدينا وأسلحتنا ! » .

على أن القبلة الذرية وحدها كفيلة بأن تذيق الأقوياء بأس الأقوياء بأشع مما ذاقوا في كل ماسر من الأهوال . فلحكمة كشف الله للأقوياء عن هذا السر الخطير .

على أننا لا يجوز أن نحيل أمرنا إلى التعلات والمقادير .

فإن تكن إنجلترا قد عولت على أن تجزينا عن وفائنا هذا الجزاء الوبيل ، وأن تظل على زعمها أن هذه الحرب قد أورثتنا بمجوحة وغنى ، وهي لم تورثنا سوى هذا السجن المظلم الذى ألقانا فيه نقدها الاسترليني وعنيتها الاقتصادية .

وإن تكن قد عولت على أن تجعل الجلاء عنقاء يحلم بها المصريون ولا تصدق أحلامهم في الواقع .

وإن تكن عولت على أن ترى في السودان بلداً هو أقرب إليها منه إلى مصر،
وأن تجد في السودانيين شعباً هو ألصق بها رحماً وأوثق وشائج، من دين ودم
وتقليد وتاريخ .

إذن فلتعلم انجلترا أن هذا الشعب المصري الكريم قد ضاق ذرعه بالرق
والاستكانة ، وأنه سيراً من حلفها ، ومن صداقتها ، ومن كل رباط يربطه بها من
تجارة أو صناعة أو ود .

أما كيف نعلن ذلك وننظمه ، وكيف يكون مسلك العروبة في هذا الشأن
وفي شؤون العرب — فله يومه الآتي إذا أراده الانجليز .

تقصفت أقلامك يا جريدة التيمز وجفت محابرک !
اليوم تقولين أن المصريين غير أكفاء ومرتشون ، وأنت تعلمين ضجة الرشوة
في السودان ومن أية أمة كان بطلها المغوار .

اليوم وقد أردنا الحساب ! هذه جريدتهم الكبرى . وذلك زعيمهم الأعظم .

هل تنام الجامعة العربية^(١)

في ظلال الحاميات البريطانية !

في حديث خطير أذاعه مستر اتلي رئيس الوزارة البريطانية ليلة أمس — عبارة يجب أن تلفت أنظار المصريين خاصة وأنظار العرب عامة ، بل يجب أن توقظنا جميعاً من نومنا العميق الذي نحسبه يقظة وفطنة وسياسة وكياسة ، وما هو في الواقع سوى أحلام يحسبها الحالم نشاطاً وسعيّاً وتوفيقاً ونجحاً — حتى إذا تقوضت أعواد سريره الوثير بزلزال من الحوادث ، وخر على الأرض مرضوضاً صريعاً ، أيقن أنه كان في سبات ولم يكن في يقظة ، وانه كان يحلم والدنيا من حوله في كدح وكفاح ولجب .

والعبارة التي نعنيها هي قول مستر اتلي لقومه البريطانيين في إذاعته أمس :
« ويجب أن تدركوا ان من واجبنا الاحتفاظ في الوقت الحاضر بالحاميات البريطانية في المعازل الحيوية الممتدة على طول شبكة مواصلاتنا البحرية والجوية .
« والوقت الحاضر » في لغة السياسة البريطانية — وهي لغة العمال والمحافظين والأحرار على السواء — معناه فيما يختص بالاحتلال وما إليه ، أن يكون الوقت الحاضر سرمداً لا ينتهي إلى أمد ، كوعدهم بالجللاء ستين مرة أو تزيد ، حتى إذا أبرمت المعاهدة نصوا فيها على أن صفة الاحتلال قد زالت ، ولكن جيش الاحتلال مقيم .
وكان بودنا لو ذهب المسمى ، وبقي الاسم على سبيل الذكري الأليمة المحزنة . لكنهم حذفوا الاسم وأثبتوا المسمى . وقبلنا على مضض . وقلنا لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً يغير ما بأنفسهم في شأننا ، ويغير ما بأنفسنا في شأنهم . وشاء القدر أن يحدث هذا الأمر في صورة حرب لم ينكب العالم بمثل هولها وفضاعتها قط . وأصابته الكارثة

حليفتنا بجرح عميق . فأسونا جرحها ما استطعنا ، ولم نألُ جهداً في بذل العون الخالص بكل ما لدينا خمس سنوات كالحات كاملات في غير من ولا أذى . وأنفسنا تحدثنا بأن بريطانيا إذا انتصرت ذكرت لنا ، وللشرق العربي كله ، صدق ولائنا لحلفها وقضيتها — قضية الديمقراطية والحق . ويومئذ لن نكون بحاجة إلى مطالبتها بالجلاء لأنها ستجلو عن ديارنا مطمئنة واثقة . إذ أى خطب ستخافه من عدوان الطغيان بعد أن قضت الحرب على قوى الطغيان ؟ وأى ريبة ستخافها منا بعد أن سبرت غورنا وخبرت وفاءنا وقت محنتها الكبرى خمس سنوات ؟

ثم ماذا تجديها قوة ترابط في ديارنا مهما يبلغ من شأنها ، إذا نكبت الدنيا بهول جديد ؟ وماذا أجدت عليها قوتها التي كانت في مصر يوم نشبت الحرب ، لولا مئات الألوف التي جيء بها من كل صوب وحذب ، فملأت الجو والبحر ، والعامر والغامر من هذا الشرق الوفي الأمين ؟

حدثنا أنفسنا بهذا كله . ورجونا أن تخرج بريطانيا من هذه البوتقة مصهورة المعدن دقيقة الإدراك لنفسية الشرق الكريم ! نعم وحسبناها تكون أسرع إلى ما يرضينا منا إلى ما يرضيها ، وانها ستشتري دوام صداقتنا ، وقد ناهزنا اليوم عشرين مليوناً من النفوس المصرية الأبية ، بثمرن زهيد ، هو أن ترفع هذا النير المذل عن أعناقنا : نير الاحتلال . وهو لن ينفعها فتيلاً إذا بقي ، ولن يضرها فتيلاً إذا زال . بل لو زال وزالت نظائره في الدول العربية الأخرى وأحست إخواننا من أمم الجامعة بأن إنجلترا تبادلهن كرامة بكرامة وولاء بولاء — لكفلت إنجلترا لنفسها اخاء عشرات الملايين من أبناء العروبة لا يخونون العهد ولا ينقضون الميثاق ، وهنالك لا يقف التعاون عند مجرد السلام والأمن ، بل يتجاوزهما إلى شئون التجارة والاقتصاد ، في وقت غدت فيه إنجلترا أصرخ ماتكون حاجة إلى كسب الأسواق باستمالة الشعوب لا إلى استدامة الحاميات في القلاع الحيوية (الوهمية) في عصر القنبلة الذرية — ببضعة ألوف من الجند هنا ، وببضعة ألوف هناك !

ومع اعتزام مستراتلى على الاحتفاظ بالحاميات البريطانية فيما يسميه المعادل

الحوية الممتدة على شبكة المواصلات الامبراطورية (وهى معاقل لا يقع أكثرها إلا فى أملاك الغير) — يناشد أمته فى حديث أمس (بإيجاد نظام عالمى تستطيع الشعوب جميعاً أن تعيش فى ظله آمنة مطمئنة) !

هذا ضرب قديم من التناقض الواضح بين القول والعمل الفناه من السياسة البريطانية منذ عهد قديم . إذ أى طمأنينة وأى أمن يحسه المصريون مثلاً ، إذا كان مستراتلى قد أراد فيما أراد أن تظل القوات البريطانية فى منطقة القناة ما دامت (شبكة المواصلات) ملتفة الخيوط بأيدينا وأرجلنا ، فلا فكاك لنا منها ولا نجاة !
إن الامبراطورية بحمد الله قائمة دأمة فواصلاتها يجب أن تظل قائمة دأمة — وإذن فلا زوال للشبكة ، ولا خلاص للصيد المسكين . !

على أن الأمر ليس مجرد أمن ولا طمأنينة . بل هو كذلك حرية وكرامة بشرية وحرص من الأمم المستقلة على أن يكون استقلالها حقيقة ماثلة . لا أضحوكة ملفوظة بالشفة واللسان .

وإذا كانت هذه البلايا التى تنصب على الإنسانية هلاكاً وسعيراً يصلاه الغالب والمغلوب على السواء ، لا تبدل شيئاً من عنت الأقوياء حيال الضعفاء ، فهل يرجى لهذه الحضارة أن تنجو من الهاوية التى توشك أن تبتلعها بين جيل وجيل .

يقول مستراتلى فى حديثه أمس : (إن استخدام القنبلة الذرية يجعل النظام العالمى ضرورة حيوية لبقاء الحضارة فى المستقبل ، وإن على البريطانيين أن يسعوا لاتفاق وثيق مع الدول الأخرى على إنشاء نظام عالمى تختفى فيه الحروب اختفاء تاماً) . وهذا كلام إذا فهمناه فى ضوء ما سقناه من عباراته السابقة ، كان معناه أنه حريص على عقد اتفاق وثيق بين الأمم التى يخشى جنباه أن تستعمل القنابل الذرية كروسيا أو أمريكا أو غيرها من الأمم ذات السبق فى العلوم التطبيقية وفى القدرة المالية على استعمال تلك القنابل .

أما أمثالنا من الأمم الصغيرة أو المتوسطة فلا خوف من علومها — إذ أين هى ؟ — ولا من مواردها — فمتى كشفناها ؟ وإذن فحسبنا أن نكون مجرد معاقل فى الشبكة

البريطانية ، ومجرد مخافر للامبراطورية ، كي تطمئن ونخاف ، وتعزونهون ، وتحيا
حياة البطولة والمجد ، ونزحف نحن على الأرض ونلصق بالتراب كبعض الهوام ،
وبعض الجماد .

ولعلنا بعد هذا كله أسأنا الظن بحديث مستر اتلي ، كبير وزراء العمال ورمز
الديمقراطية الحرة والاشتراكية السمحة . فإن يكن ذلك ، فإننا نستغفر الله ونستغفره
وإن يكن غيره فلا ينبغي للجامعة العربية أن تنام في ظلال الحاميات البريطانية
من جديد — وإلا فلينفضوا وليتفرقوا أشتاتاً وشيعاً كما هو دأبنا في شرقنا
العربي المسكين .

قال المظالم ...

تصريح العظيمين ، صاحبي الجلالة ملك البقاع المطهرة ، وملك الوادي المجيد ،
آية جليلة الشأن ، عميقة الأثر ، داخل الجامعة العربية وخارجها .

إن صاحبي الجلالة يعلنان على ملا الدنيا رغبتهما السامية ، في أن تضرب جامعة
الدول العربية للناس أكرم الأمثال (في تعاون صادق بين جماعة من الدول متضافرة
على سلامتها المشتركة ، ومتكافلة في صيانة حريتها واستقلالها) .

هذه كلمات عاليات ، نيرات كالسواكب ، لا ترقى إليها الشبهات ولا تعشو عنها
العيون ، لأنها ليست بدوات رأى يجرى بها قلم كاتب ، ولا سوانح خاطر يرتجلها
لسان خطيب .

إنما هي وجدان ملكين يحلان من قلب العروبة في السويداء .

هذا فاروقنا المحبوب سليل الأسود سيد الأشبال ، لو خافت بهمسة أو أشار
بأنملة ، حمايةً لدمار أو دفعاً لعار ، لهرع أبناء هذا الوطن إلى التضحية بالأرواح والمهج ،
فضلاً عن النفائس والأموال .

وهذا أخوه الكبير ، ليث الجهاد منذ نعومة الأظفار وريعان الشباب . هذا
عاهل الجزيرة يرفع الكرامة فوق الحياة ، والاستقلال فوق نعاء الدنيا ولو كانت
خلوداً . ومن حوله أقمار من ذات نفسه يستمدون النور من شمس ، من ورائهم
مئات الألوف ممن ضرسهم خشونة البداوة ونهتهم سماحة الإسلام .

وفي الشقيقات العزيزات الآخر — في العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن .
وفي الأخت المعذبة فلسطين ، كبذ العروبة الحرى وجرحها الدامى — في كل أولئك
رجال لهم أرواح الأناسى وقلوب الأسود .

وما تريد أمة من هذه الأمم العريقة إلا أن تعيش عيشة الأحرار في ديارها
التليدة الموروثة جيلاً عن جيل ، وكابراً عن كابر ، منذ مئات بل ألوف من السنين .

(١) الأهرام ١٨ يناير سنة ١٩٤٦ — وهو التصريح الذى أصدره أثناء زيارة عاهل الجزيرة
لجلالة الفاروق .

نعم أن تعيش في ديارها موفورة العزة مكفولة الحقوق ، فلا يضطر أبناء فلسطين بقوة المال وقوة النار إلى رق يسوده عنصر دخيل مجلوب ، ولا ترصد في ديار الأحرار المستقلين جيوش أجنبية تقف منا موقف الحراس من الأسارى والسجناء .

كلا يا قادة الإنسانية وأساطين المدنية وأقطاب الحضارة الغربية . ما بهذا يرتقى الإنسان عن مستوى العجاء . إنما كوارث الحروب دروس من شأنها أن تعلم البر والإنصاف . فإلى متى تعاد الدروس ؟ وإلى متى يتباله العليم ؟ إلى متى يعاد الدرس فيبكي أويتباكى إشفاقاً على المظلوم ، ويقطع العهود بين الدموع ليكون من الخاشعين القانتين الأبرار ، وليكون عوناً للمهضوم على الهاضم ، حتى إذا سكن الأوار وطفت النار ، استأنف هو جوره وعدوانه وقضمه وهضمه — كأن لم يشق بالأمس .

لقد جاء في التصريح الملكي المشترك : — « ونحن واثقون بأن جامعتنا ، وهي تؤدي هذه الرسالة بين العرب ، لا تريد علواً واستكباراً على أمة أخرى . . . »
ونحن نشارك المسلمين والعرب جميعاً في إيمانهم بأن فلسطين بلاد عربية ، وأن من حق أهلها وحق المسلمين والعرب معهم أن تبقى عربية كما كانت دائماً .
وإننا لنقدر كل التقدير ما يرمى إليه ميثاق الجامعة العربية من أن يكون لكل قطر عربي حقه الواضح في تقرير مصيره والتمتع بحريته الكاملة » .

رفع الله بكما منزلة العروبة في الشرق والغرب أيها العظيمان المجاهدان . وأيدكما وسائر ملوك الدول العربية ورؤسائها الغر الميامين بنصر من لدنه مؤزر .
لقائل صادق أن يقول بحق : أن سياسة الغلب والقوة مازالت بعد فواجع هذه الحرب كما كانت قبلها . وقد يجعلون في أيديهم الفولاذية قفازاً من حرير ، ولكن إلى حين — إلى أن يستيثسوا من صبرنا فيجردوا الفولاذ من الحرير ، والأفاعي من الأزاهير .

لكن هيهات . لقد أفاق الشرق العربي من سباته الذي طال مداه . وفي بحار

الحياة العالمية مد وجزر ، وفي حقب التاريخ أمواج تعلو بالمشرفين على الخطر فينجون ، وأمواج تهبط بمن وثقوا بالنجاة فيغرقون .

وما نريد الفرق لفرد ولا جماعة ولا أمة . وإنما نريد النجاة والأمن والعمل الحر الكريم ، للمثل الحر الكريم . نريدها لأنفسنا ونريدها على السواء لسوانا . فأما أن يسام الخسف ستون مليوناً من الأنفس الزكية الأبية الشرقية العربية ، لا لشئ سوى غرور الغرب وغطرسه الغربيين ، واعتقادهم في دخائل أنفسهم ما كان يعتقدوه الفاشيون والنازيون ، من أن الناس من طينتين إحداهما شريفة مصفاة ، وقد خلقوا منها والأخرى وضيفة مزدراة ، وقد خلقت منها العكارة من أبناء آدم — فلا والله لن يكون ذلك أبداً وفيها نفحة من روح ولفحة من حماسة ! ولن نكتفى ، نحن أبناء الأم العربية بحماسة طارئة ، يلمع بريقها عاما أو بعض عام ثم يخبو . لن نكون شموعا بعد اليوم يطفئها النسيم — بل مشاعل قوية لا تزيدها العواصف إلا توهجاً ووقدة .

ولن تكون حماسة مفككة جوفاء ، مفككة كالشرر المتناثر معاذ الله ، أو جوفاء كالطبول الخاوية . بل حماسة الوحدة الحية الوثيقة لا تزايل منها ذرة ذرة ، ولا خلية خلية ، حماسة مفعمة بالتفكير والتدبير والحب الدائم والولاء المقيم .
كوني كذلك يا جامعة الدول العربية ، ويا أفراد شعوبها على القرب والبعد ، في السر والعلن — ثم ارتقبوا النجاح أكيداً والاستقلال الصحيح واقعاً قريباً أو بعيداً — ولكن لا ريب فيه .

هذا وخير ما أختم به هذه الكلمات عاطفة نبيلة عربية جاءت في التصريح الملكي الخطير : —

« ونحن واثقون كل الثقة أن الشعوب العربية التي تتمثل آمالها في جامعة الدول العربية لا تريد إلا السلم والحق والأخاء العام » .

هذه الرؤوس...!

كل شيء في الدنيا يتطور ، إلا رؤوس بعض الساسة الإنجليز . منهم هتافة الحرية والأخاء أيام الحروب ، ومنهم عوامل العنت والبغضاء أيام السلام .
أنظر إليهم بعين الماضي القريب ، وهم ينتفعون بصداقة مصر وعون مصر إلى أقصى الحدود ست سنين ، كانت بريطانيا خلالها طائراً جريحاً في مهب القدر ، فأعارته مصر من جناحها ريشاً ومن طعامها قوتاً ، ومن روحها الحاني عساً يؤويه ، وأباحت له من أرضها وسمائها ومائها آفاقاً رحبة للكر والفر والاقبال والادبار ، وأسعفته بقوات مصرية تحرس القناة شرقاً ، وبقوات أخرى تدفع بعض العدو في بعض المواقع غرباً ، وأرصدت من أبنائها للطائرات المغيرة من يسقطها أو يحاول إسقاطها بمدفعه في كل مكان !

في تلك السنين القربية العصية هتف الساسة والقادة البريطانيون بجميل مصر ، وأشادوا بخدماتها الكريمة لقضيتهم التي زعموا أنها قضية العدل والحرية . وهذا إيدن ورئيسه تشرشل ، ما زالوا في عالم الأحياء وعالم السياسة ، تشهد المنابر والصحف بما سجلاه لمصر على بلادهم من مآثر .

وانظر اليوم إلى بعض الرؤوس البريطانية كيف تنكس ، وكيف يعاودها داؤها القديم في عام أو بعض عام . ألم تسارع إلى تبليغ شفقوى من سفارتها ، مشفوعاً بتبليغ مكتوب من وزارتها ، تطلب فيهما إلى الحكومة المصرية تعويض ما أتلغه غضب الغاضبين لدمائهم من أبنائنا المسالمين ، وقد تجمعت جموعهم في ميادين القاهرة لا في ميادين لندن . والقاهرة عاصمتهم ، والوطن وطنهم ، ورثوه عن آبائهم وأجدادهم منذ ألوف من السنين قبل التاريخ ، ولم يغتصبوه من الإنجليز أو آباء الإنجليز . ولم يتلف أبنائنا الغاضبون بعض المتاع أو بعض المراقق البريطانية ، إلا حفيظة لما أتلقت

سيارات جيشهم من أجسام مصرية ، وأزهقت من أرواح مصرية . ولما ثارت فيهم ثورة الغضب لمشهد الدم المرتخص ، وجنحوا إلى إحراق سور من الخشب يحيط ببعض المرافق الإنجليزیه — أمطروا وابلا دافقاً من رصاص المدافع الرشاشة ورصاص البنادق ، من فوقهم ومن بين أيديهم ، من شرفات بعض العماثر ، ومن ثكنات قصر النيل ، ومن الجنود المراطين خلف السور . وفي دقائق كان القتلى خمسة عشر ، وكان الجرحى فوق المائة .

فهل بهذا الأسلوب يحفظون الأمن في بلادهم ؟ وهل بهذا الأسلوب يحفظون الأمن في فلسطين ، وهى ما زالت بحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ما زالت تحت نير انتدابهم ، والحكم المباشر فيها إلى مدافعهم وطائراتهم وبواخرهم — وفيها تدمر العماثر كل يوم ، وفيها تنسف دور الحكومة . وفيها يغتال من يغتال ويصاب من يصاب ، فلم نعلم ولم يعلم غيرنا من سكان هذا الكوكب أن خمسة عشر قتيلاً وأكثر من مائة جريح خروا صرعى تحت وابل القذائف البريطانية في دقائق . نحن لا نريد أن نهيج في أبنائنا مزيداً من الغيظ والأسى . ولا نريد لأعمال العنف أن تستأنف بحال . بل نهيب مخلصين لله والوطن ، ولجيل مصر الناشئ العزيز ، أن يستجيبوا لدعاء القائمين بالأمر من رجال دولتهم المقداة ، حين يرجون منهم الإخلاص إلى النظام والتزام حدود القانون ، ليكنوهم من متابعة المهمة الوطنية الكبرى في هدوء وسكينة ، حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من نيات الإنجليز !

ليس بنا إذن أن نهيج الشعور ، أو أن نخذل الوزارة في دعوتها الوطنية الخالصة إلى التزام النظام ، بعد أن بذل الشباب من دمه الغالى ما بذل ، وبعد أن أعرب عن إراداته وإرادة أمته بأنفاس حرى صعدت إلى السماء . وإنما نريد أن نحق الحق ونبطل الباطل بكلام صريح . والكلام الصريح ، هو أن الإنجليز هم المطالبون بتعويض مصر عن الدماء التى

أهرقوها بادئين بالعدوان . فأما أن يطالبونا بثمان نافذة أحرق مصراعها ، أو حشية أحرق حشوها ، وما تم الشهداء قائمة ، وجراحات الجرحى ندية دامية — فهذا حكم لا تقبله أمة ولو كانت من الحملان ، من أمة ولو كانت من الذئاب .

والكلام الصريح ، هو أن الإنجليز ليس لهم أن يلقوا علينا دروساً في النظام والأمن ، ولا أن يوجهوا إلينا أوامر في شأن النظام والأمن . فنحن دولة مستقلة وهم فيها غاصبون ، وليس على المغضوب أن يتقبل أوامر الغاصب ، إلا إذا اعترف له بالحق والسيادة ، واعترف على نفسه بالرق والهوان . وحاشا أن يكون بين أبناء مصر إنسان ينزل على هذا الخسف المهين .

حكوماتنا تحتفظ بالأمن مختارة طائفة لا مأمورة مكرهة ، لأنها حكومة بلد متحضر ، لم تبدأ حضارته منذ قرون ، بل منذ عهد عريق في القدم .

فليعدل البريطانيون عن هذا المسلك الغاشم جنوداً وساسة . ليعدل جنودهم عن خوض جموعنا بعجلاتهم كما تخاض الأوحال ، وعن رمي أبنائنا برصاصهم كما ترمى الحدأ والغربان . نعم ، وليعدل ساستهم هنا وهناك عن مخاطبتنا بالأسنة اللوردات ، يتنزلون فيصدرون الأوامر إلى عبيد الاقطاع .

لقد مضت القرون الوسطى إلى غير عودة . وهذا القرن العشرون قد أوشك نصفه أن ينقضى . وليس يدري أحد كيف تكون إنجلترا وكيف تكون مصر حين ينتصف — إلا شيئاً واحداً تدري به مصر وتوقن به يقينها بالله ويقينها بالحياة . وذلك الشيء الواحد ، هو أنها ستكون أمة عظيمة في طليعة الأمم ، لأنها فطنت إلى عزتها وطمحت من جديد إلى مثل مجدها القديم ، ولأن فيها شباباً أباة على رأسهم ملك أبي — ملك أبي تفديه مصر لأنه يفديها ، وتتفانى في أعزازه لأنه يتفانى في أعزازها وأعزاز بنينا . نعم ، وليقلع الساسة البريطانيون عن رفع تبليغاتهم إلى جلالة الملك إن صح ما قيل . فنظامنا نيابي لا يحتمل فيه الملوك تبعات الحكم ، أو تبعات الوزراء . وإلا جاز لحكوماتنا أن ترفع تبليغاتها إلى جلالة ملك إنجلترا كلما نجم بينها وبين حكومته أمر ذوبال .

تطوري يارووس الساسة الإنجليز . وتنورى يا قذائف الرماة الإنجليز . إن كل طيشة فى سياستكم ، وكل رمية من مدافعكم أو بنادقكم — إنما هى هدمة فى الكيان البريطانى بين الدول . ألا تفطنون ؟ ألا تدركون أية أمة تعاملون ؟ إنها ليست أمة الثورة العرابية ، كلا ! وليست أمة سنة ١٩١٩ ، بل هى فوق ذلك ، وأشد من ذلك ، وآبى للضميم والهون من ذلك . أنها وليدة الذرة ، لا ذرة المادة التى يطلقها من يطلقها للفناء ، ولكن ذرة الروح التى يطلقها المصريون من بين الجوائح للجلاء والعلاء والخلود .

(١) الى الضمير البريطاني

ما أظن حليفتنا العظمى ستأبى على مصر أن تستكمل استقلالها يوم تنصرف الشعوب من حومة الموت والدمار ، إلى حلبة الحياة وال عمران . وما أظنها ستحاول القطيعة بين التوأمين اللصقين مصر والسودان ، إذ لو انفصلا لهلكا معاً .

لقد جربتنا إنجلترا عشرات السنين ، محتلة مسيطرة ، فما حمدتنا ولا حمدناها ، ثم كانت الحرب الماضية ، فبسطنا لها المعونة بالأيدى دون القلوب ، واشتد بعد الهدنة حرصنا على الاستقلال ، فاشتد حرصها على الحرمان . أو على تطفيف المكيال ، وتخفيف الميزان . حتى أبرمت المعاهدة ، واعترفت بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، على أن يبقى الاحتلال بالفعل دون الاسم عشرين عاماً ، وعلى أن يكون للطرفين إعادة النظر في الأمر بعد انقضاء عشر سنوات .

وإنما أصرت بريطانيا في ذلك العهد على استبقاء قواتها لسببين : أحدهما باطن ، والآخر ظاهر .

أما الباطن فعدم اطمئنانها إلى إخلاص مصر ، إذا كفت يد الخصومة ، وبسطت يد الاخاء . وأما الظاهر ، فالمعونة على حراسة القناة إلى أن تستطيع مصر وحدها حراستها .

وما نظن الضمير البريطاني الذي اشتعل ناراً تلظى خمسة أعوام ونصف عام — وما زال يشتعل — حفاظاً على الحق وفداء للمحقين — ما نظنه يرى من الحق أن يرتاب اليوم أو غداً في شرف اليهود المصرية ونبيل الأمة المصرية .

أذكر أن لورد النبي ، بعد أن أغمد حسام الجندي الباسل ، وامتشق ضمير السياسى النزيه ، ألح على حكومته في الاعتراف لمصر باستقلالها ، إقراراً بفضلها . وعرفاناً بخدمات عمالها في الحرب الماضية .

كان ذلك عرفان الخصم الشريف حق خصمه الشريف بالأمس . فكيف

يكون عرفان الحليف الشريف حق حليفه الشريف في الغد؟ أى بعد اختبار أعوام من الضراء، كل عام منها أصدق تجربة وأقطع برهاناً من مائة عام!

أما حراسة القناة — فمن؟ لا خطر عليها بعد اليوم أجيالا، في ظروف أصبح فيها بعض أسلحة الجو أسرع طيراناً من الصوت، وأصبحت القوة العالمية كلها مركزة في ثلاث حليفات متعاونات على العدو، حتى إذا تمت عليه الهزيمة، غدون متعاونات على حفظ السلام العالمى بوسائل دولية لا تؤذى كرامة الأمم المسالمة، ولا تضرب عليها ذلة الاحتلال، مهما يبتدع له من أوصاف وأسماء.

هذا — ومهما يكن من تأويل الأقوياء لميثاق الأطلانطي، فإن الضمير العالمى سيضئ في العصر الجديد بميثاق جديد، مداده دماء البشرية التي أهرقها الغالب والمغلوب، والتضحيات الجسام التي عاناها المحارب وغير المحارب على السواء — ميثاق جوهره ان لا إذلال للشعوب بعد اليوم.

الغدر المأمول

في غد قريب سعيد تمحو أنوار السلام ، ظلمات حرب ماحقة ضروس ، وتحظى مصر وأخواتها المجاهدات من شمس الصباح المنتظر ، بحرارة الحياة الحرة ، وضياء المثل الإنساني الأعلى .

تحت أشعة الشمس الجديدة في العصر الجديد ، تفتضح المطامع الجائرة القديمة ، فقتواري أو تذوب — أو يصرخ صارخ عالمي من دم الملايين على الأرض ، ومن أرواحهم في السماء — أين قضية الحق الشامل الموعود التي في سبيلها استمنا ، فمتنا ، فسميتمونا من أجلها شهداء ؟

قد يسخر من هذا خيال قارئ متشائم ، فيقول : —

إن الإنسان لن يزال هو الإنسان في غرائزه وأثرته ، وفي بطشه قويا وذلتة ضعيفا . ألا ترى إلى جنة الحضارة كلما أخذت زخرفها وأزينت ، أكلتها نار الحضارة نفسها ، فتركها قاعا صفصفا كأن لم تغن بالأمس ؟

ومن الناس مع ذلك فلاسفة يفكرون في حكمة الوجود ، ومثاليون يدعون إلى نعمة الأخاء ، وشعراء يحلمون ويتغنون بفردوس الحياة ! فما هي إلا أن يظهر هتار آخر ، فإذا الآدميون وحوش ، وإذا السماء رجوم ، وإذا الأرض والبحار قبور ، وإذا الدنيا قد انقلبت آخرة !

وفيم إنكار الواقع المشهود ، وهذه فرنسا — فرنسا العظيمة أمس الأول ، الضحية أمس ، المقالة اليوم من عثرتها الشاهدة التي أدمت قلوب المعجبين بثقافتها العليا ، وتاريخها الحافل — هذه فرنسا لم تكذ تقال من عثرتها حتى وسوس لها الشيطان ، الذي وسوس لغزاتها من قبل : — أن تحكمي في الصديق مثما تحكم فيك العدو ! وقد كان البر وكانت العظة أن يرعى العدل من عانى الظلم ، وأن يقدر الكرامة من سيم المهانة . وهل أحنى على الجريح من الجريح ؟

هذا قول المتشائمين ظاهره صحيح وباطنه خطأ . فالجماعة البشرية كلما أصابتها من صنع أيديها نكبة قارعة نهضت من صرعتها واعية مفكرة ، ثم تنسى ، فتحترب ، فتشخصها الجراحة ، فيعاودها الوعي والتفكير مرة أخرى ، حتى إذا عمّت الكارثة كل الأمم أو جلها ، كان جديراً بوجودان العالم أن يستيقظ وأن يناجى نفسه كيف الخلاص ؟ هنالك يهتف به هاتف من أعماقه — لا خلاص إلا أن يأمن الحمل حيف الذئب بين الأمم .

تلك خطة مرسومة لارتقاء الإنسانية هي من وضع بارئها العليم — أن تعرج إلى مثلها الأعلى ، على سلم من الأشواك ، حتى إذا دميت أقدامها وتمزقت جلودها خلال المعراج ، ثم بلغت أوج الأمن والأخاء ، نظرت إلى درجات السلم الدامية بعين باكية — تلك دموع الفرح والنصر المبين ! لقد خلص الإنسان من ضراوة الوحش وضلال الشيطان .

أيها المحبوب ملك الكنانة وعزيز الوادى . لقد أنجح الله مسعاك .
يا ملوك الشقيقات ورؤساءها ووزراءها وشعوبها الأمجاد . لقد وافاكم هذا العهد السعيد الموموق فأبشروا ، أبشروا — وفي عروتكم الوثقى كفيل من الله نعم الكفيل .

عزاء ورجاء

إلى صاحب الدمع الهتون والتبعات الجسام !
إلى رجل الساعة ، تقاسمه اللوعة على الصديق ، واللوعة على الوطن .
إلى الأنخ في الجهاد منذ الصبا ، يخلف أخاه الشهيد — وفي نفسه من جلائل
الماضى المزدوج ، ذكريات هي الحياة الوطنية الباسلة في ذروتها العالية !
إلى الصنو العامل فارقه — بالجسم — صنوه الراحل ، وروحه معه تناجيه
وتلهمه وتقويه .

إلى أمل عظيم ترجوه مصر ، بعد أمل عظيم تفقده !
إلى المتين الخلق ، الناصع الصحيفة ، رضيه الله واختاره الملك خلفاً كريماً
لسلف كريم ، في أجلّ عهود الدنيا وأدق مراحل مصر والشرق العربي !
إلى حضرة صاحب الدولة محمود فهمى القراشى باشا — نتقدم بالعزاء مرة
أخرى — ونتقدم بالرجاء .

أما العزاء ففرعة الوادى ولهفته المرتاعة للنبا المشئوم .
والعزاء عبرات فاضت بها عيون الأمة عليتها وجمهورها على السواء !
والعزاء قلب المليك — ينبض بالأسى العميق ، على فقيد فذ من أولياء عرشه ،
وأبطال وطنه ، وينبض بالحدب الشفيق على آل بيته العزيز الحزين .
والعزاء مصر يوم احتشدت مئات من الألوف لساعة الوداع ، كحبات قلب
عظيم جريح سويداؤه جثمان أحمد .
والعزاء أنت وزملاؤك ومواطنوك من كل بيئة وطائفة وطبقة ، من الذين يتناسون
أنفسهم فى السر والعلن ، ليدكروا مصر بالقول والعمل !
والعزاء مثله الأعلى الذى ضربه لطلاب المجد الخالد فى الحياة وفى الممات !

أما الرجاء فهو أن يرقأ دمعك ، وتفيض همتك .
والرجاء هو أن تأسو جراحة مصر بالتشمير لمهمتك .
والرجاء هو أن تجعل إتمام الرسالة — رسالتكما — منذ الصبا — قررة عينك
في الدنيا ، وقررة عينه في الآخرة .

والرجاء كل الرجاء ، هو أن تبحث وتفتش وتنقب ، ما وسعك البحث والتفتيش
والتنقيب ، عن كل ذرة من التبر المصري خافية في الرمال — أعنى المواهب المعطلة
والكفايات المطمورة ، فتش عنها وأبرزها ، وعبئها جنداً محشوداً ، ذا خبرة ودراية
بمخارج البلاد ومطالبها اليوم وفي الغد القريب .

لقد انطلقت مصر بإعلان الحرب من عقال الأمة المنعزلة إلى ساحة الحياة العالمية
والمؤتمرات الدولية ، فانظر في الكفايات العليا بين المواطنين ، وأوفد أصحابها بعوثاً
ورسلاً ، يرفعوا شأننا ، ويظهروا حقنا بين الدول ، ولا عليك أن يكون الرسول من
حزب أو لا حزب له . فالمصرية الخالصة والشخصية البارزة والخبرة الممتازة ، هي
الجواز يومئذ إلى مؤتمر يحكم في مصائر الأمم .

كانت هذه سنة أخيك المثلى . وهى سنتك من بعده إن شاء الله ، لا فضل
فيها لأحد سواك وسواه .

رسالتنا في المؤتمر

وفد مصر إلى مؤتمر سان فرانسيسكو، لو سافر وفي قلبه حرارة الإيمان بأن حضارة إنسانية عادلة يجب أن تنشأ، وبأنهم رسل مصر، فيقيمون حجة الحق على ملأ الأصدقاء الغالبين، دون أن تعرفوا رسالتهم لجلجة أو وهن، ودون أن تذهلهم عظمة الدول العظمى أو أقطابها، عن عظمة الحقوق التي ما دامت مدوسة محقرة، فالعلة قائمة والنتيجة دائمة: حروب وكروب، ومدنيات كاذبة ذاهبة إلى الدمار بين جيل وجيل — أقول لو سافر الوفد ناسياً أن مصر صغيرة، ذا كراً أن حقها كبير — ناسياً أن الأمة العربية فيها ضعف، ذا كراً أنها سبعون مليوناً من النفوس، التي تعاف من الخسف ما تعافه شعوب روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا والصين — إذا نسي وفدنا تلك الطوارئ، وذكر تلك الحقوق التي يجب أن تنتصر، ليزول الرق عن المستعبدين من الشعوب، كما زال الرق عن المستعبدين من الأفراد — إذن فقد أبلغ وفد مصر رسالتها، وأدى أمانتها، وبرر الثقة التي أولتها إياه مطمئنة آمنة.

كاتب هذه اللوحات متفائل بطبعه. ومن عناصر إيمانه أن الحياة البشرية في جملتها تسير — إن لم نقل من حسن إلى أحسن — فمن شر شديد إلى شر أهون. ومن هنا كان مذهبه في حياة الأمم أن تكون أملاً مقروناً بالعمل. أما اليأس الساخر، مقروناً بالحسرة الكاذبة على ما فات، والنوم العميق عما هو آت، فضرب من الموت يفرح به أصحابه، ويحسبونه الحياة كل الحياة — بل الوطنية كل الوطنية!

ومن عجيب أمرهم ترحيبهم بكل شيء يزيدهم يأساً على يأس، واستسلاماً على استسلام. من ذلك ما رواه « روتر » منذ يومين عن مراسل « نيويورك تيمس » في بروكسل « من أن ثقة البلجيكيين ضعيفة في نتائج المؤتمر، إذ الرأي العام يعتقد

أن المؤتمر ما هو إلا اجتماع يعقده ثلاثة من الرؤساء يتزعمون فيه مجموعة من الأطفال ،
ويلقون عليهم دروساً في الأدب والتصرف . »

بهذه العبارة فرح المتشائمون . أما أنا فأقول أن الأم الصغيرة ، لن تقف من الأم
الكبرى موقف الأطفال ، إلا إذا نزلت عن رجولتها وعزتها مختارة طائعة . وحاشا
أن يصدق هذا الوصف على وفدنا أو أي وفد عربي كريم .

وعلى فرض أن يضيق هذا المؤتمر أو سواء بحقوق مصر واخواتها ، فإن في
ميدان الجهاد متسعاً لا يُحَد . لكن يجب أن نخرج من غيابة الجب إلى سطح الأرض ،
إلى مجتمع الدول ، إلى الأمل مقرونًا بالعمل — فلا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة ،
كما قال مصطفى كامل ، وكما يجب أن يقول كل حي .

متى تضى ، سحسنا

داؤنا الحديث كثرة الكلام وقلة العمل . كم نتمنى ولا نكاد نسعى . مطالبنا
جمة وإنتاجنا ضئيل . تسائلنا أرضنا الموت متى أحيا ؟ ومعادننا الدفينة متى أظهر ؟
وماؤنا الضائع فى البحر متى أصان ؟ وكهرباؤنا الكامنة فى مساقط أسوان متى استحيل
نوراً وحرارة وقوة ؟ .

مضى ربع قرن على فجر نهضتنا — وما زال الفجر حتى ساعتنا هذه فجرأ لم تعقبه
شمس ولا ضحى ، رغم الدستور والمعاهدة ، وانتخاب يتلوه انتخاب ، وشيوخ ونواب
يتلوهم شيوخ ونواب . ذلك بأن الاستقلال حتى إذا تم ، والحياة النيابية حتى إذا
توثقت عراها وقاربت الكمال ، إنما هما وسيلتان إلى غاية ، والغاية هى أن تُبعث الأمة
— حكومة وشعباً — بما يتاح لها من تكافؤ الفرص عن طريق الدستور ، وتحرر
الهمم عن طريق الاستقلال ، إلى حلبة زاخرة بالكدح والمجاهدة ، مجاهدة الطبيعة
حتى تؤتينا أقصى مواردها ، ومجاهدة العلوم حتى تمدنا بأحدث طرائقها ، ومجاهدة
النفوس حتى تلتئم الأهواء الممزقة هوى واحداً ، هو هذا البلد الذى يئن من جراحات
الداخل ، مالا يئن من جراحات الدخيل .

أقسم لو أبدل الله منا قوما غيرنا — وأقولها كلمة قاسية على نفسى قسوتها على
القارىء — قوماً من أولئك الذين يحيلون الرمال بالعلم ذهباً ، واللياه بالعلم نوراً ،
ويسبقوننا فى مواكب العلم والفن والاختراع والجد بمئات السنين ، وليس بيننا وبينهم
سوى يوم على مطايا الجو ، أو يوم وليلة — إذن لتضاعفت ثروة مصر القومية ودخلها
القومى أضعافاً ، ولاتسعت مرافقها حتى لا تكاد ترى فيها عاطلاً ولا عانياً ولا محروماً ،
وحتى لا جهل يغشى البلاد ، ولا مرض يعتصر أعواد السواد ، فإذا القرى مساكن
ينعم فيها الآدميون ، لا بركٍ ودمن تشقى بها الأنعام ، وإذا النيل أبداً عروس كل
أيامه أفراح ، وكل ليلاليه جلوة وزفاف ، وإذا الوادى فردوس متصل ، والطرق بسط

ممهدة ، ووسائل النقل والانتقال شبكة لا تقلت خيوطها دسكرة ولا ضيعة ، وإذا
المصانع ألوف مبثوثة تفيض بالإنتاج والرخاء ، وتطلب العامل قبل أن يطلبها ، وتزيد
من رزقه قبل أن يستزيد . وإذا مصر التي تضج بالشكوى من الفقر والجهل والمرض ،
قد أصبحت مصر المثقفة السليمة الغنية بخصب تربتها الزراعية ، وخصب كنوزها
المعدنية ، وخصب مساقطها المائية ، وخصب وسائلها العلمية ، وخصب عقولها المفكرة
وعزائمها المشمرة ! .

ومعاذ الله أن يبدل منا في مصرنا الحبيبة قوماً غيرنا . ولكن معاذ الله كذلك
أن نظل على حالنا الحاضرة في شغل سخيّف وبيل بيومنا عن غدنا ، وبالترهات
عن العظام .

لقد آن لهذا الفجر أن تسطع شمسهُ ، وأن يضحك ضحاه .
فلم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على الكمال

عهد مصر الجديد

قلت في اللمحة الماضية ، إن فجر نهضتنا ما زال فجرًا لم تعقبه شمس ولا ضحى .
واليوم أقول : حان للشمس أن تطلع ، وللضحى أن يرتفع . فهذا عهد جديد
في مصر ، يوافق عهداً جديداً في العالم كله .

ودولة النقراشى باشا — مستمداً عوناً من توفيق الله وعطف المليك وذكري
الشهيد وتأيد الزملاء وثقة البلاد — يستطيع أن ينهض بالأمانة الكبرى نهضة وثابة
لم يسبقه إليها أحد .

ذلك أن دنيا ما بعد الحرب لن ترضيها الهوينى ولا المهل . بل ستقفز في مسالك
الحياة وأفانين الحضارة قفزات لم يحلم بها حالم من قبل . فإذا نحن لم نقبل على هذا
السباق متذرعين بذرائع الغد المنتظر ، فقد ضرب على مصر أن تظل سلحفاة بين
الجياد السوابق .

وما أقصد بهذه الكلمات إلى استتمام الاستقلال وإنهاء الاحتلال . فهذا مطلب
يسرى مع دم الحياة في شرايين المصريين ، والعمل له في يومه القريب مكفول .
وإنما أقصد إلى نواح أخرى أغفلتها الجهود الماضية ، ولا تحتمل إغفالها مطالب
الحياة في العصر الجديد .

أقصد البعث الكامل الشامل ، لكل كمين ودفين من موارد الطبيعة في مصر .
أقصد إلى استدعاء خبراء من ذوى الأخصاء العالميين ، يمحسون مصر تمحيص
علم وفن ، واستيعاب واستقصاء . فلا يتركون فيها بقعة ولا رقعة من عامر أو غامر ،
إلا درسوا سطوحها وأغوارها ، لينبثونا ماذا فيها من خامة خبيثة ، أو خير مجهول .
ولا يتركون حاصلات الزراعة في مختلف أنحاء العالم ، إلا أنبأونا بما يوجد
منها في تربتنا وما لا يوجد . ولا صناعة من الصناعات الكبرى أو الصغرى ،
إلا أنبأونا بما يتيسر لنا منها وما يتعذر . ولا باباً من أبواب العمل المثمر الذى تهبطه

لنا بيئتنا المصرية ومواردنا الطبيعية ، إلا أرشدونا إلى مفاتيحه . ولا أسلوباً من أساليب التربية الحديثة والتعليم الحديث في شتى فروعها ، إلا هدونا إليه — ولو كلفنا استخدام هذه البعثات واستخدامها ملايين .

أقصد أن تصبح مصر قطعة من أوروبا الجادة المزدهرة ، لا أوروبا اللاهية المتداعية . أقصد أن تخلق مصر خلقاً جديداً ، وأن تبعث من رقودها الطويل بعثاً جديداً . أطفالها في البيوت والمدارس ، وطلابها في الكليات والمعاهد ، وزراعتها في الحقول وعملها في المصانع .

بمثل هذه البعثات عظم اليابان وبمثلها عظم روسيا السوفيتية . فإن فعلنا تضاعف لدينا إنتاج العقول والسواعد ، وتسامت الأخلاق فوق مستوى الدنيا والمفاسد . وأصبحت مصر المستقلة — مصر القوية الغنية المستنيرة ، المساهمة في البر والبحر والجو بنصيبها من آيات العزة والسؤدد — أو قل من آيات الحياة .

الآن قد بينا أن البعثات لا يمكن أن تكون إلا أداة في يد من يملكها ، ولا أن تكون إلا أداة في يد من يملكها . والآن قد بينا أن البعثات لا يمكن أن تكون إلا أداة في يد من يملكها ، ولا أن تكون إلا أداة في يد من يملكها . والآن قد بينا أن البعثات لا يمكن أن تكون إلا أداة في يد من يملكها ، ولا أن تكون إلا أداة في يد من يملكها .

القنابل الديمقراطية

إن شقيقتنا — سوريا تصلي اليوم — وقد يصلي شقيقنا لبنان غداً — نيران الديمقراطية الفرنسية من قذائف المدافع وقنابل الطائرات .

والنيران مهلكة ، والقنابل محرقة ، والطغيان ممقوت بغض — سواء أكان مُشعل النار وقاذف القنابل وشيطان الطغيان ، من رجال هتلر أو من رجال ديغول .
وليس احتقار الأمم الصغيرة ، واغتصاب حقوقها الأولية أهون علينا أو أحب إلينا نحن أبناء العروبة ، إذا كان الحاقر الغاصب « ديمقراطية » !!! ولم يكن فاشية أو نازية .

إن فرنسا قد استصرخت العالم يوم نكبتها فأنقذها غوث الغائثين حتى تحملت على ساقها — ولم تكذب — فما بالها اليوم تمطر الرجوم بلدين بكيا مصرعها ونقا على عدوها ، وسأها في معونة الحلفاء الذين أنقذوها من بلاء كان يشبه الفناء !
الأنها تملك من بقايا الطائرات والمدافع مالا يملكان ؟

الآن القوة العمياء عادت في عين فرنسا — هي الحق ، وهي الفيصل بين الشعوب ؟

أم هو مركب النقص ، قد بلغ منها مبلغاً يدفعها إلى التقتيل والتدمير ، إذلالاً للأبوة واستعباداً للأحرار ، بأسلحة كانت فرنسا شهيدتها منذ سنوات لا تعدو أصابع اليد عدداً ؟

إذن يا لضيعة الدموع التي ذرقها الإنسانية حزناً على فرنسا ، يوم كانت حالها تبعث الحزن والرثاء .

ويا لضيعة الموائيق وخيبة المؤتمرات ، ما سبق منها وما لحق وما هو آت !
ويا لخداع التغنى بالحرريات . إن هي إلا رُقي من السحرينيم بها الأقوياء عقول الضعفاء . فإن لم يستنيموا بالأناشيد والرُقي ، فليموتوا بالحديد والنار !

(١) أخبار اليوم (العدد ٣٠) . على أثر اعتداء القوات الفرنسية على سوريا لتسكها بالجلاء .

على أن الحديد قد يَبْلَى والنار قد تخبو ، فأما الذى لا يَبْلَى ولا يخبو ، فالروح
إذا استيقظ — الروح الذى أودعه القاهر فوق الطغاة العتاة قلوب المؤمنين .

وإذا طاب للمعتدى الأثيم أن يَهْلِكَ فى سبيل عدوانه ، فكم يطيب للمؤمن
البرىء أن يُسْتَشْهَد فى سبيل إيمانه ، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون . كلما تفاقت
شروهم رماهم بالقوارع حتى يثوبوا إلى الرشد ، فإن لم يثوبوا ، فإن قوارعه لاتغنى ؛
وهى لهم بالمرصاد . وما الإنسان الغاشم سوى طفل جامح ، إن لم تردعه داهية تلتها
دواهٍ أقسى وأمر ، حتى تكون آية النور هى العليا وآية النار هى السفلى . وما القرون
والأجيال فى مدى التطور البشرى ، إلا بمثابة الثوانى والدقائق فى مدى القرون
والأجيال .

على أن مجلس الجامعة العربية لن يُضِيع الساعات اعتماداً على الأيام ، ولا الأيام
اعتماداً على الأسابيع .

هذا يومنا التاريخى الرهيب الذى قُدِّرَ لنا أن نواجهه ونحياه . وواجبنا له ولأمننا
ولفئتنا ، يقتضينا عملاً إيجابياً إجماعياً حثيثاً .

هذا يوم امتحان الشرق العربى كله . فهل نكتب بأيدينا لأنفسنا صفحة
النجاح والفوز المبين ؟ .

أعزني سمعك بأجوده بول! ^(١)

فإذا أعزنتي سمعك ، فإنما تُعيره رجلاً تعلم لغتك وهو غلام ، ودرس في عاصمتك وهو شاب ، ثم عاد إلى بلاده وفي صدره شعلة من نار الحماسة ونور المعرفة . أما الحماسة فلمثل العليا التي قرأها في كثير من كتبكم ، وأخذها عن كثير من علمائكم . وأما المعرفة فبوجوه الإصلاح التي لا بد منها لكل شعب يريد النهوض : أعنى إقامة نهضته على أساس متين من الأخلاق ، وإشعار ذوى السلطان أو العلم أو المال ، بأن سلطانهم وعلمهم ومالهم ، إنما هي أدوات في أيديهم لخدمة المجتمع . وإن قوام الحياة للأدنى المواطنين حظاً ، يجب أن يكون : غذاء يكفيه ، ومسكناً صحياً يؤويه ، ورعاية طبية تحميه أو تشفيه ، وطرفاً من التربية والتعليم يسمو بإنسانيته ، ويحقق نفعه لنفسه وللوطن .

بهذه الروح الفتية النقية ، عاد صاحب هذا الحديث من بلادك يا مسترجون بول . وعاد قبله وبعده عشرات بل مئات من إخوانه المصريين . وقد أعجبهم من دياركم وعلومكم وآدابكم ما أعجبه ، وخلبهم ما خلبه من سحر تقديسكم للحرية الفردية ، والإرادة القومية ، والعزمات الصادقة الشعبية ، وهي تطمح كل يوم إلى مزيد من العدل ومزيد من المساواة من نِعم الحياة .

عدنا من معاهدكم ومجامعكم — لا أوعية من فخر صُبَّت فيها علوم ومعارف ، بل عدنا مشاعل ، حرارتها من القلوب وضوؤها من الرؤوس . عدنا نحمل إلى أمتنا رسالة الحياة ، لا حياة الرضى بالواقع الذليل ، وإحالة الذنب فيه على المقادير ، بل حياة أرواح خلقت لتفطن ، وتجدد ، وتعلو ، لا لتغفل ، وتلهو ، وتلصق بالتراب .

وعلّونا المنابر خلال الحرب العالمية الأولى . وقصرنا دعوتنا أيامئذ على الأخلاق المثلى في الفرد والجماعة ، وعلى واجبات المواطن لربه ووطنه ونفسه ، ولم تنس صحفنا

ولا منابرنا ولا الخاصة منا ولا العامة في حربك الأولى تلك يا سيد جون بول — انك مرهق بالذود عن مجدك بل عن وجودك بين الدول. فلم يخض فيك لسان، ولم يمسسك بالأذى بنان، ولا بخل عليك صاحب جمل بجمله، ولا صاحب حمار أو أتان، أو شيء مما تنبته الأرض أو يُدرّه الضرع، أو تحويه خزائن البنك من غطاء الذهب. بل لم يبخل عليك قرابة مليونين من عمال مصر بعونهم العظيم، الذي أطلق لسان لورد اللبي بثناء سجله التاريخ.

وصرفتنا بجزرك الأولى يا سيدى عن إصلاح أنفسنا وتنمية مراقفنا، وحبست فينا أنفاس الحرية بضع سنين أفراداً وأمة. وطال اضطبارنا على الهول والأذى... والتمسنا لك المعاذير من بلاتك ومحنتك يا سيد جون بول، وكظمنا غيظنا من إعلانك الحماية على أمة لم تطلب إليك حمايتها، ولا ضرعت إليك في أول أمرك أن تسبغ عليها شرف الاحتلال. وقتلنا لأنفسنا أن الحرب مجنونة في كل زمان ومكان، وهى في العصر الحديث أشد جنوناً وحقاً، ثم منينا أنفسنا أن تثوب إلى الحق والإنصاف إذا سكنت الحمى، وطفء السعير، وعاد السلام.

أما الحمى فقد سكنت، وأما السعير فقد طفىء، وأما السلام فقد عاد، وأما الرجاء فيك يا سيد جون بول فقد خاب! أبيت يومئذ إلغاء الحماية وقد زالت الأسباب التي انتحلتهما للحماية. وأبيت على سعد وأصحابه أن يغادروا الديار ليضربوا في الأرض طلباً للحق المغصوب، وتأميناً للحياة المهددة.

وثارت مصر لا أسفاً على ما أنفقت من جهود ضخام، أو قدّمت من رجال وأنعام وأرزاق، ولكن غضباً وحنقاً على هذه الثمرة الشنعاء، يتمخض عنها ما أسدته إليك مصر من جميل.

ويشتد عليك السخط، وتزداد المرارة، وتفسد علينا بيدك الغليظة وجوفك المكتظ بمجعتك القوية التي تورث الدوار، وسياستك الجافية التي تورث البغضاء.

كل ما أخذه صاحب هذا الحديث وأترابه المصريون ، عن السادة المثاليين من علماء بلادك وأدبائها الإنسانيين .

وتمعن في شل نهضتنا وإذابة أخلاقنا، بلظى التناحر الذى أحدثته بيننا ، أو أعنت على حدوثه ، بما لك من دهاء ونفوذ ، سنده أيام الحرب سلطتك العسكرية وقواتك الحربية ، وسنده أيام السلام جنود الإحتلال .

والآن ، وبعد هذه الحرب العالمية الثانية ، وقد جبت فظاعاتها فظاعات الحروب مجتمعة منذ بدء التاريخ — هل تظل كما كنت أنت أنت يا جون بول ؟ ألا ترق حاشيتك ؟ ألا تطامن من غلوائك ؟ ألا ترى أن عشرين مليوناً أو نحوها من المصريين ، وعشرة ملايين أو نحوها من أشقائهم السودانيين ، أحق ببلادهم منك ؟ وأن الذى أجرى النيل منذ القدم ، وأنبتهم حوله منذ أجراه ، لم يدخر هذا النهر الخالد ليكون لك مشرباً وملعباً فى القرن العشرين ، ولم يدخر أمة النيل بفرعها لتكون لك فى آخر الزمان رقيقاً وخولاً ، بعد إلغاء الرق بأجيال وأجيال !

لقد علمتنا العداوة خمسة وستين عاماً يا جون بول ، أفلم يأن لك أن تعلمنا الأخاء ؟ لقد وفيت لك مصر خلال حربك الأولى . فلما أسأت جزاءها ثارت عليك . ولو أحسنت إلى نفسك وإليها ، لاقتصدت ثمانية عشر عاماً من المتاعب والصلات النكداء ، ولقبلت سنة ١٩١٨ ما لم تقبله إلا سنة ١٩٣٦ .

وها هى ذى مصر قد وفيت لك فى حربك هذه الثانية . فهل تسىء جزاءها على طريقتك المنكرة ، فتمارى فى الجلاء بمعناه الشامل الكامل ، أو تقاوم وحدة الوادى — وحدة الطبيعة — ريثما تضطرك إلى الحق حرب ثالثة ؟

بادر إلى الحسنى أيها الشيخ المبجل ، قبل حرب الذرة ، فمن يدرى ، لعلك أن ماظلتنا ، لا تبقى حتى تؤدى الحق إلى أهله ، أو لعلنا لا نبقي لنستخلصه منك — فتعود إلى الحياة الآخرة غير أهل للنعيم .

لكن اسمعها يا جون بول كلمة صادقة : لقد اعتزمنا نحن المصريين وإخواننا

السودانيين ، أن نستقل استقلالاً صحيحاً فسيحاً لا احتلال فيه ولا أغلال ، ذرة ،
أولا ذرة .

ذلك لنعيش في بلادنا سادة كما تعيشون في بلادكم سادة . ولنبنى سيادتنا على
أساس متين من الأخلاق الكريمة ، لا تفكك بها الزلفى ولا النفاق ؛ وعلى أساس من
العلم الحديث ، والأدب الرفيع .

إن أملك الوحيد في استدامة رخائك ومجديك يا جون بول ، وسط هذه اللجة
العاتية من تنافس الشعوب صغيرها وكبيرها ، لا في مجرد البقاء ، بل في البقاء مقروناً
بالعزة ، مدعوماً على السيادة الذاتية الوادعة المطمئنة . أن أملك الوحيد : أن تثب
وثبة جريئة إلى سياسة جديدة ، سياسة الإخلاص ، لا سياسة الدهاء والإلتواء ،
سياسة تجذب إليك الأمم الصغيرة مختارة راغبة ، لا مقهورة ولا كارهة .

ذلك مآل الدنيا في غدها القريب . إذ ليس معقولا أن يثور الضمير البشرى
على رق الأفراد فيمحوه ، ثم يطول احتماله لرق الأمم .

إن وفدك الرسمى بين أظهرنا يفاوض المصريين ، يفاوضهم في حقوق طبيعية
أولية ، لا يماحك فيها ولا يمارى إلا جون بول العتيق الفانى — ونحن نرجو لك ،
ولأنفسنا — أن ينتفض شخصك انتفاضة جريئة ، تبعثك فتى سمحاً رشيداً من فتيان
العصر الجديد ، فتى سمحاً يبتدر أنوار المستقبل بقلب سليم ، ولا يتيه في ظلمات الماضى
بقلب مريض .

نرجو لك السلامة من نفسك ، ولأنفسنا السلامة منك — بل نرجو للإنسانية
كلها سلامة ونجاة من جموح الإنسان .

جهد تام - ولكن « شركة ! »

يقول غاصب الدار لصاحب الدار — « إنك صدعت رأسي وشهّرت بي خلال جيلين ونصف جيل ، والآن بلغ إحراجك لى على ملأ الأعداء والأصدقاء مبلغاً لا قدرة لى معه على البقاء ، فأنا نازح عن دارك ، رابض حولك وفى جوارك .. لكنى لن أجلو حتى تعطينى موثقاً تكتبه بيدك ، وتشرفه بتوقيعك ، تولينى به حق العود إلى احتلال بيتك ، والتسلط على مرافقك ، والجثوم على صدرك ، كلما شئت لى الظروف ، أو شاء الهوى . »

هذه زبدة البيان البريطانى الرسمى الذى تراه اليوم منشوراً فى غير هذا المكان من الأهرام .. زبدته أن بريطانيا تقبل الجلاء التام عن مصر جواً وبراً وبحراً — على شرط أن يكون لها حق احتلالها جواً وبراً وبحراً ، كلما نشبت حرب أو « لاح لبريطانيا » فى الأفق الدولى « خطر حرب وشيك الوقوع » .
فيا أيها المفاوض المصرى حذار كل الحذر . وأرجو عفوك عن هذا التحذير الغليظ من كبيرة وطنية ليس فيها ، وليس منا ، من هو بارتكابها ظنين .

خطر الحرب ! كلام يضحك منه الصبية الأغرار ، فضلاً عن النساسة المحنكين .
إن الإنجليز لو جلوا عن مصر بقضهم وقضيضهم فى أربع وعشرين ساعة ، وقد أوليناهم هذا الحق المبهم المنكر الخطر ، لكان فى وسعهم أن يعودوا على أساسه بقضهم وقضيضهم إلى احتلال مصر فى اليوم التالى لمسرحية الجلاء .

خطر الحرب ! ما علامه ؟ ما مقدماته وشواهدة فى هذا العصر الذى انقضت فيه الطائرات اليابانية على الأسطول الأمريكى فى المحيط الباسيفيكي ، فأغرقت معظم سفنه والمفاوضات « السلمية » تجرى فى واشنطن بين ساسة الدولتين .

خطر الحرب ! كنا نفهم هذه اللغة أيام كان للحروب آداب مرعية ، قوامها المواجهة الشريفة ، والأخذ والرد والإنذار والإعلان . أما اليوم فقد فقدت الحروب

(١) الأهرام فى ٤٦/٥/٨ مناسبة البيان البريطانى الذى قيد الجلاء بقيود تجعله كأن لم يكن .

حرماتها الأولى ، فأصبح قوامها الخالصة والمماكرة والفجاءة . ورُبَّ خلاف أو تناكر ، أو أخذ بالأكظام والتلايب ينشب في المؤتمرات بين بيرنز وبيفن ومولوتوف ، فيرتج له صرح السلام من أقصى الدنيا إلى أقصاها — ثم لاتنشب حرب . . . ورُبَّ مئات من القنابل الذرية ، في ساعة من ساعات السلام الموهوم ، تصعق دولة من الدول ، قبل أن تظفن إلى أزيز الطائرات التي تحملها . ولن تكون حرب الذرة في مستقبل الأيام — ونرجو من الله أن يعنى عباده من تلك الأيام — لن تكون حرباً مسبقة بعلام الخطر ، بل حرب غرة وبغته ، لأن السبق فيها بساعة أو ساعتين كفيل ببقاء البادىء وهلاك الغافل المطمئن .

خطر الحرب ! منذا يحدده ؟ ومنذا يعين ميقاته ويوم وقوعه أو شهر وقوعه أو عام وقوعه ؟ . . . انجلترا طبعاً . ولن تكلف نفسها التحديد أو التعيين ، بل يكفي أن تقول : « إني ألمح في الأفق بريقاً ينذر بالسوء ، فأعدوا لي أيها الحلفاء الكرام ثغورا لسفنى ، وثكنات لجنودى ، ومساكن لضباطى في كل مدينة وحى وشارع ، وأعدوا لهم الميرة والأرزاق وأسباب المتاع والترفية ، وأعدوا مطابع البنك الأهلى تخرج لهم أوراق نقد مصرية ، يقابلها ما يقابلها من مطابع بنك إنجلترا ، تُكس لكم من الإسترالينى ركماً طريفاً فوق ركام تليد .

خطر الحرب ! على من يخشى هذا الخطر ؟ على إنجلترا طبعاً لأنها حليفتنا الاستعمارية الكبرى التى قل أن تفرغ من نزاع — أن فرغت من نزاع قط — إلا لتشتبك بأوهاق نزاع جديد . فهل من الإنصاف الذى تريده لنا إنجلترا ، أو من الإنصاف الذى نريده لأنفسنا ، أن تظل حياتنا ، أمناً أو خوفاً ، ومعاشنا رخاء أو ضنكاً ، وحياتنا طلاقة أو عنقا ، واستقلالنا وجوداً أو عدماً — رهناً بخطر أو توهم خطر أو زعم خطر يراه أو يتوهمه أو يزعمه الساسة البريطانىون — فإذا نحن كما كنا دولة محتلة ذليلة مرهقة ! وكأننا يابدر الاستقلال لارحنا ولا جينا !

إن قول مصر الفصل فى هذه الأجبولة الخاتلة التى يسمونها « خطر الحرب » قولها الفصل يجب أن يكون — « كلا بل أريده جلاء دائماً واستقلالاً صحيحاً فى كل

حين ، لا أن تكون ديارى ومرافقى وحرىات أنبائى وأرزاق عىالى « شركة » بينى وبين الإنجليز على حد ما عبّر وقرر وكرر مستر بيغن فى تصرّيات وخطب كثيرة ، فلم أفهم مراده « بالشركة » حتى انكشف اليوم سرها الدفين .

وأية شركة أهنا وأربح للإنجليز ، وأذل وأغبى للمصريين ، من أن يخرج حضراتهم من بلادنا ويبدىهم جواز العودة وحق الارتفاق ، بل حق « المشاركة » فى حياتنا كلها ، جملة وتفصيلا ، حساً ومعنى ، كلما شاءت لهم الظروف أو شاء الهوى ! ذلك هو التملك الدائم بعينه ، أو الإشراف الأبدى فى الملكية ، كما يريد مستر بيغن ومدرسته السياسية . غير أن الانتفاع بالعين ومن عليها وما عليها سيأتى فى فترات متقطعة يختارها الشريك ، ويوقتها بما يسميه أوقات « الخطر » .

إن الجلاء على هذا الأساس لن يكون إلا جلاء زائفاً ، وسراباً براقاً ، لا يخدع من جرّب السراب وعاناه ستين عاماً من السياسة البريطانية أو تزيد .

هذا — لا ريب — قول مصر فيما يسمونه « خطر الحرب » .

فماذا عسى أن يكون قولها فى حرب تنشب فعلا بين إنجلترا ودولة أخرى ؟ هل يكون لزاماً علينا أن نعينها على عدوها كما فعلنا فى حربين ضروسين بينهما فترة قصيرة من الزمان ؟ .

إن الجواب من البداهة بحيث لو أغفله المفاوض المصرى ، لكان منه لا شك تغافلاً مقصوداً ، لا تنتظره منه مصر ولا تقبله .

ذلك بأن أية حرب تنشب فى عهد الميثاق الدولى الجديد — إما أن تكون حرباً يندب إليها ذلك الميثاق ، ويقرها مجلس الأمن ، بل يشارك فى إعلانها وتمويلها وتمويلها ، لأنها حرب تأديب إجماعى أو شبه إجماعى يصدر فيه الصادرون عن قرار ذلك المجلس وإرادته .

وإما أن تكون حرب خروج على الميثاق الدولى الجديد ، لا يقرها مجلس الأمن ولا يسهم فيها بنصيب . بل ينهى عنها بالقول أو يقاومها بالقوة .

فالقول الفصل الذى يجب أن يستمسك به المفاوض المصرى ولا يحيد عنه قيد شعرة ، هو أن تكون مصر عوناً لـانجلترا . تمدها بما تقتضيه نصوص الميثاق الدولى الجديد ، وبما يفرضه عليها نظام مجلس الأمن ، فى أية حرب تخوضها انجلترا باسم هيئة الأمم المتحدة ، وطبقاً لأحكامها ، ووفقاً لإرادتها .

أما إذا انفردت انجلترا بحرب لاشأن لها بمجلس الأمن ، ولا سند لها منه ، فلاحقاً فى هذه الحالة لانجلترا علينا ، ولا عون لها عندنا ، لأن الحرب التى تخوضها على هذه الصورة ، إنما تكون خروجاً على ميثاق السلام والأمن العالمى المشترك .

تلك حدود الحق صريحة بينة ، تنطق بها البديهة دون سوق لنصوص أو إيراد لمواد .

تلك حدود الحق صريحة بينة . ولن يتجاوزها المفاوض المصرى ، إلا وقد جرد أمته ووطنه من درع الوقاية الدولية الشاملة ، التى ما أنشئت الجامعة الجديدة إلا لإسباغها على الدول جميعاً ، بتأييد واضح من الدول جميعاً ، وولاء خالص من الدول جميعاً . ذلك حق لا ينبغى لانجلترا أن تمارى فيه ، وإلا قام الدليل على أنها تريد أن تنكث بيدها فى معاهدات حرية ثنائية ، ماتنسججه الجامعة الجديدة من خيوط السلام العام ، داخل نظام عالمى عام .

فإذا كانت انجلترا لا تحفل بهذا الاعتبار السامى الخطير ، لأنها قوية ، فعلىنا نحن أن نحفل به لأننا ضعفاء ، ولأن مستقبلنا رهن بتعاون الدول كلها أو جلها على توطيد النصفة والأخاء بين الشعوب ، إذا حسبت انجلترا مخطئة ، ان مستقبلها رهن بتوطيد سلطانها الحربى على الدول الصغيرة كرهاً ، كما تريد بنا اليوم فى بيانها العجيب . على أن المفاوض المصرى كفيل بنفى هذا الدخل عن استقلالنا وهذا الزغل عن الجلاء . ولا خوف على مفاوض معه حق ووراءه أمة !

حقنا الطام لا ينتقص

ليس للمفاوض المصري الأول ، ولا للأحد عشر كوكباً من مواطنيه الذين يشاركونه في إنجاز مهمة الوطن العظمى — أن يتوجسوا ريبة من أقلام مصرية ، لم يكن لها طيلة حياتها هم ولا مشغلة سوى المعونة على استنقاذ الوطن من براثن المعتدين .

وفي إنجلترا صحف قوية رجعية واسعة الذبوع ، لا تنى يوماً عن نصره باطلهم على حقنا ، فلا أقل من أن نحاول نصره حقنا على باطلهم في صحفنا بين حين وحين . وفي إنجلترا السنة حداد ورجال شداد ، يثيرون في برلمانهم على قضيتنا الناصعة عاصفة بعد عاصفة ، كما حدث منذ أسبوعين في مجلس العموم ، وكما حدث أمس الأول في مجلس اللوردات ، وكما سيحدث مرة أخرى في مجلس العموم غداً . ومثير الزوبعة الآتية ، ومرسل رياحها العاتية — مستر تشرشل أيضاً — جرياً على شنشنة عرفناها من أثرته وضراوته — وهي أن يتخذ من الأمم كلها — إن استطاع — جنوداً مقاتلة عن الإمبراطورية أيام الحروب ، وأن يتخذ من الأمم كلها — إن استطاع — عبيداً حراساً للإمبراطورية أيام السلام .

ونحن لا نكتب لنثير الخواطر المطمئنة .

وإنما يرجع اطمئنان الخواطر إلى ثقتها بأن المفاوضين المصريين لن يفرطوا في حبة من خردل من الحق الذي عهد إليهم في استخلاصه ، مبرأً من الشبهات محرراً من كل التزام أو شبه التزام ، يجعل لإنجلترا علينا يداً أو سلطاناً ، أو منفذاً ولو كان كسم الخياط — إلى التدخل في شئوننا من جديد . هي محالفة عسكرية « مفتوحة » .

وهي مخالفة عسكرية « داخل نطاق ميثاق الأمم المتحدة » ووفق أحكامه ،
تسجل في سجلاته .

وهي مخالفة عسكرية « دفاعية » .

وهي مخالفة عسكرية « موقوتة بأجل » ...

وهي مخالفة عسكرية لا تنفذ إلا « حين وقوع اعتداء بالفعل » ، لا « توجس
من الاعتداء » .

وهي معونة تقدمها مصر لـ إنجلترا في حدود طاقتها ، وعلى صورة تنفق وكرامة
مصر وسيادتها ، وليست معونة معناها « تسليم مصر » لمرافقها برّاً وبحراً وجواً لقوات
إنجلترا ، تصرفها كما يصرف المالك ملكه الخاص ، وإنما تظل سيادة مصر في بلادها
هي العليا في أوقات الحرب والسلام على السواء .
ذلك ما تقبله مصر ، ولا تقبل التزاماً غيره بحال .

ووقت الحرب الدفاعية الفعلية دون سواء ، هو الوقت الذي يكون لإنجلترا
فيه اتصال رسمي بمصر ، أعنى اتصال الحليف الدفاعي بالحليف . أما فيما عدا ذلك
الوقت فكلا .

ولماذا نحتاط هذا الاحتياط ؟ .

نحتاط هذا الاحتياط حذراً منا ، وتحذيراً للمفاوض المصري ، معتردين لألمعيته
العبقريّة — تحذيراً له من منفذ يبدو ضيقاً كسّم الخياط ، ثم لا يلبث أن يتسع اتساع
الحيط أن قبلناه لا قدر الله غافلين . وهذا المنفذ الخطر يترأى تافهاً ضئيلاً في العبارة
التي جاءت على لسان الأيرل أوف بيرت من « الأحرار » ومن القائلين بالجلاء التام
عن مصر في عبارات سمحة ظريفة . قال في مجلس اللوردات أمس الأول :
« ولكن ينبغي أن يتبين أن القوات المصرية الحليفة كافية لمنع تدمير القناة
بل لصيانة الأدوات والخازن ، التي قد نرى فائدة في تركها قريباً من القناة » .
وقال اللورد جويت « من العمال » :

« كل ما في استطاعتنا أن نفعله هو أن نثبت من وجود المنشآت والمعدات اللازمة لهذا الدفاع هناك ، ومن أن الجيش المصرى مدرب على استخدام هذه المعدات ، بحيث يستطيع أن يلعب دوره فى الدفاع عند أول إشارة . »

لقائل ساذج أو متساذج أن يتساءل : وأى ضرر فى القول بأن تكون لنا قوات كافية لمنع تدمير القناة ، ولصيانة الأدوات والخازن التى قد يرى الإنجليز فائدة فى تركها إلى آخر هذا الكلام الذى قاله الأيرل أوف بيرت ، واللورد جويت .
ألا نريد أن نقوى جيشنا وأن نأخذ أهبتنا لصيانة استقلالنا بقوات مستحدثة من كل سلاح وكل طراز !

والجواب : نعم ... غير أنها « نعم » مشفوعة — بلكن !
نعم . نريد أن تكون لنا قوات كافية مدربة . ونحن على ذلك مجمعون ، وله مشمرون ، وفى سبيله مضحون . لأن لكل عزة ثمناً يجب أن يدفع .
نريد ذلك وننويه . ولكن لا نريد بحال أن نعطى إنجلترا حق « التفتيش » أو الرقابة ، أو الإشراف من قريب أو بعيد ، فى معاهدة أو ملحق لمعاهدة أو كتاب متبادل ، أو تصريح رسمى أو شبه رسمى يوجه منا إلى الخليفة فى صورة واجب علينا لها ، ولو ترتب على امتناعنا قطع المفاوضات !

إنما هو واجب أنفسنا لأنفسنا ، واجبنا للوطن والكرامة والاستقلال .
أن أى نص من هذا القبيل فى صلب المعاهدة أو ملحقاتها ، أو فى مذكرات أو خطابات رسمية أو شبه رسمية ، يجعل قواتنا على اختلافها فرعاً إقليمياً تابعاً للقوات الإمبراطورية ، لها عليه حقوق التقدير والتفتيش ، والإحصاء والتدريب بطريق مباشر أو غير مباشر ، سواء تقاضت إنجلترا هذا الحق فى كل حين ، أو جاملتنا حيناً فلم تبشره ثم غاضبتنا حيناً فأنزلتنا منزلة التابع للمتبوع .

حكى أن مساوماً ساوم جحا في شراء بيته ، وبعد أن طال بينهما الحوار ، قبل جحا أن يبيعه البيت على شرط أن يُبْقَى له مسماراً في حائط الدار ، فما أن سمع الشاري ذلك الشرط حتى استغرب في الضحك من ذلك الشيخ المهذار ، ثم ختم ضحكه بالقبول ، وبالنص على أن جحا يملك في الدار مسماراً مثبتاً في حائط ، وانتقل الشاري إلى منزله الجديد .
وانه لمستغرق في النوم ذات صباح باكراً ، وإذا قرع شديد على الباب .

من الطارق المزعج في بكرة الصباح ؟

أنا جحا . أريد أن أتفقد المسمار .

وما زال الشيخ الداهية يزداد حنينه إلى مسماره ، حتى ليطلب أن يراه في كل حين من ليل ونهار ، إلى أن نفذ صبر المالك المسكين ، فأعاد الدار إلى جحا بنصف الثمن ، والفضل للمسمار .

لا نريد أن يُبْقَى الانجليز في ديارنا مسماراً كسماير جحا ينصون عليه في المعاهدة أو ملحقاتها ، ثم يتخذونه وسيلة إلى إزعاجنا في كل حين ، وإلى « مشاركتنا » تلك المشاركة البغيضة الجديدة ، التي هي أثقل وقعاً على الأذان والنفوس من الحماية والاحتلال . ولا نغلو فيما نقول ، لأن الحماية القديمة والاحتلال الحاضر بليتان عابرتان ، قهريتان . فأما المشاركة — إن قبلناها لا قدر الله غافلين ، وقد أعاد ذكرها وألح فيها أمس الأول لورد الترتشام — فإنما قبلها لتكون غُلا في أعناقنا ، ونيراً على عواتقنا ، ينتقل ذله وعاره من جيل إلى جيل .

هذا وأخوف ما نخافه ما يسمونه « التقريب بين وجهتي النظر » .
فقد نشرت الصحف أن كبيراً من الجانب المصري قال : إن مشروع المعاهدة الجديدة التي قدمها الجانب البريطاني « عسر الهضم » وأنه قوبل بالدهشة من الجانب المصري . ويروى أن كبيراً آخر قال : إنها شربة من زيت الخروع ، كما روت إحدى الصحف أن اللورد ستانسجيت قبل أن يسلم نص المشروع البريطاني للمعاهدة
مما كتبت م — ٨

المقترحة ، اجتمع ببعض كبار المفاوضين وقال لهم بالحرف الواحد — على حد تعبير الصحيفة — : سأقدم لكم بعد أيام مشروع المعاهدة ، ولكن لاتنزعجوا إذا لم تعجبكم ، فهذه ليست كلمتنا الأخيرة !

« ولكن عندما اطلع المفاوضون المصريون على نص المشروع البريطاني انزعجوا !!! » .

ذلك ما روته إحدى الصحف . وفي موضع آخر تقول : — « ولكن من المرجح أن تستطيع الاجتماعات المقبلة تقريب وجهتي النظر » .

والذي نفهمه ولا نكاد نفهم شيئاً سواه ، هو أن التقريب بين وجهتي النظر إنما هو تضحية مؤكدة من المفاوض المصري بشيء من الجوهر الأصيل ، أى بجانب أساسى من حق مصر ، قد تنهار معه سائر الجوانب ، فى حين أن هذا « التقريب » لا يكلف بريطانيا إلا النزول عن جانب من مطاعمها المرفقة ، وشهواتها الماثلة لشهوات سنة ١٩٣٦ . والفرق شاسع بين من يضحي بشيء من جوهر استقلاله وحقه ، والتنازل عن شيء من ثمرات فضوله وعدوانه .

إن مستقبل مصر وأجيالها فى كفة القدر ، أستغفر الله ، بل فى أيدي أبنائها المفاوضين وهم من كرام رجالها الوطنيين .

إن العصفور لا يكفيه ولا يقيه أن يطير النسر عن أفنائه ، وإنما الذى يسعده و يقيه ، أن لا تمتد بين النسر والعصفور أسباب العودة والتهديد ، ووقوع الخطر من جديد .

مثل هذا التقريب بين وجهات النظر خير منه ألف مرة ، وقف المفاوضات ، واللجوء إلى مجلس الأمن ، فإن لم نجد عنده النصفة اعتمدنا على الله وعلى أنفسنا فى استئناف الجهاد المنظم المشروع !

أيها المواطنون الأبرار : — لقد شاء الله لهذا المقال أن يختم بتحية مباركة نهديها إلى المفاوضين المصريين مخلصين . ذلك أنهم دلوا ، إن احتاج النهار إلى دليل ، على

أنهم أهل وأى أهل للأمانة العليا التي وكلتها البلاد ومليكيها إلى ذمهم في أمر المفاوضات ، فإنكم ترون في غير هذا المكان من «الأهرام» بلاغاً رسمياً مؤجزاً مؤداه ، أن المفاوضين المصريين يتمسكون بموقف حمل الوفد البريطاني على الرجوع في شأنه إلى مستربين ، وإن ذلك يتطلب بعض الوقت .
فلكم التحيات المباركات مرة أخرى أيها المفاوضون المصريون .

أنا الذي خلقتها^(١)

اسم الرواية التي شهدت تمثيلها « الأنانية » وضعها أديب مصري هو الأستاذ أما موضوع الرواية فتصوير لمعايب المجتمع المصري في عهدنا الحاضر من طلاق وتعدد زوجات وخلاعة ومخدرات وافتئات الوالد المستبد على الولد ومضاربة مالية يتبعها إفلاس ، ودسائس منزلية ، وشهوات بهيمية إلى غير ذلك من مساوئ .
والوالد وولده يتغاضبان ، وكان الوالد ظالماً غاية الظلم ، وكان الولد مظلوماً حقاً . لكنه يعشق علوم الفلسفة والاجتماع ويعكف عليها ، وفي نيته أن يسافر إلى جامعات الغرب ليدرس هذه العلوم دراسة منظمة حتى يحرز « الدكتوراه »
هو مولع بالفلسفة ، فاسمع إذن ما كان منه حين ثارت ثورته على أبيه ! قال له في غضب محترق تمازجه دموع الحزن والقنوط : « لِمَ خلقتني ؟ » (يخاطب أباه) — ثم يقول بعد كلام طويل مؤداه أن والده لم « يخلقه » إلا عَرَضاً ، بدافع من الشهوات « إنك خلقت جسمي ، جسمي فحسب ، أما روحي ، روحي ، فأنا الذي خلقتها »
ولقد أرسل الشاب هذه العبارة في صوت جهوري ملؤه الثقة والإيمان بأنه خالق روحه !

فلم يأخذني ريب في أنه على يقين مما يقول . فأنا معذور إذا تقدمت إلى الأستاذ المؤلف ، أتوسل إليه أن يدلني على « طريقة خلق الأرواح » — لأنني لست راضياً كل الرضا عن روحي الحاضرة وأريد روحاً جديدة ، ولعل بعض عظمائنا بحاجة إلى مثل هذا التبديل ، لتشبه أرواحهم روح العصر الجديد .

موعظة الأقوياء^(١)

مصر فرحة مؤمنة . أما فرحها فمبعثه انتصار الدول التي نادى بالحق ، ورفعت
أعلامه ست سنوات كأنها ستة أجيال ، لما عانت الأمم فيها من هول ، وبذلت من
مهج ، وأنفقت من أموال ، وخسرت من عمران .

إن الموعظة مازالت بارزة تفيض بغيرها . وهي عبرة مقرونة بإيمان الإنسانية كلها
في صبيحة عيد السلام ؛ أى في صبيحة اليوم الذى سكت فيه لسان الحديد والنار ،
ليتكلم لسان الضمير والوجدان .

والموعظة مازالت بارزة تفيض الدمع العصى ، وتلين القلوب المتحجرة ! ملايين
من القتلى ، هم زهرة الشباب فى كل أمة ، وأضعافهم من عجزه ومشوهين وجرحى ، لاهم
إلى الأحياء ولا إلى الأموات ، فى كل بيت ثكلى أو أيم أو يتيم أو بقية من إنسان .
دع أمهات المدائن ، التى أصبحت أمهات الخرائب . حضارة تقوضت أركانها ، أو جُلَّ
أركانها ، فى ست سنوات ضاريات أكل غولها تراث القرون إلا قليلا . ست سنوات
فتاكة مهلكة ، يجب أن يعقبها عشرة أمثالها من الزمن حتى تستوى أوروبا على مثل
عرشها الذى اندك . ومصدر هذا البلاء العميم كله طاغيتان اثنتان . قُتل أحدهما
قتلة زرية ، ومات الآخر ميتة خفية ، عصفت بهما الريح المحرقة التى أرسلها على العالم
فذرتهما هباء ، ثم ركبت بهما فى نهاية الحريق رمادا .

لكن موتهما ماذا يجدى وماذا يشفى ؟ وقد جلبا على الدنيا عامة وعلى أمثيها
خاصة ، ما جلبا من محن قد يعز علاجها على الزمان وإن طال .

ألمانيا . . . أمة العلم العميق ، يكاد يخرق الحجب ويأتى بالمعجزات ! وأمة
الفلسفة الروحية ، تكاد تسمو بالنفس البشرية إلى الملاء الأعلى ! وأمة الموسيقى الرفيعة
المتنعة ، يستوحىها أساطين الفن فى كل الأمم — ذلك الشعب العظيم فى هذه النواحي
العظمى ، يفسد عليه أهداف علمه الإنسانى ، وآفاق روحيته السامية ، مفكر مريض

بشهوة القوة القاسية هو « نيتشه » ويفسد عليه حاضره ومستقبله رجل شاذ طموح إلى تحقيق « النيتشية » لألمانيا ، ليجعلها بالقوة سيدة الدنيا ، ويجعل أبنائها — بالقوة — سادة البشر .

ثم ينقاد له في هذا الحلم الهاذي ثمانون مليوناً من العقلاء ! إنها المعجزة الألمانية في السذاجة وسلاسة القياد ، لا تقل عجباً عن المعجزة الألمانية في العلم والفن والفلسفة . مصر فرحة مؤمنة . فرحة بانتصار أصدقائها من دعاة الحق ، مؤمنة بنصيحتها في هذا الحق المأمول ، الذي لا يحتكره قوى دون ضعيف ، ولا مسلح دون أعزل . نقول : الحق « المأمول » متواضعين في التعبير ، وإلا فهو حق « مطلوب » لا يسكت عنه حتى إلا إذا سكنت عن حظه من الحياة كريمة مستقلة ، لا إكراه فيها ولا عنت .

في طريق الرهدى

نشأتُ تقياً نقياً كالأبرار من أبناء المسلمين ، عيوقاً حياً كالأطهار من أبناء الريف . وربما سنحت لى سائحة الهوى ، وأنا فتى مشبوب الصبا ، فأزويها بالكبت فى زوايا النفس الباطنة ، لا عجزاً عن الفرصة ، ولكن صوناً للمروءة ونزاهة عن الدنس . وما زلت كذلك حتى رمتنى الأيام برفيق السوء . كان أصبر منى على الدرس ، وأسبق فى السن ، وأجراً على المغامرة . كان فى العشرين يكبرنى بعامين . وكان يعجبنى ذكاؤه ، ويزدهينى إخاؤه ، ويسحرنى منه مظهر الأريب العليم بأسرار الحياة . لقد اتخذته إماماً ومرشداً . فكان لى إماماً ، ولكن فى غير مسجد ولا محراب . وكان لى مرشداً ، ولكن إلى غير هدى ولا صواب .

ثم افترقنا كل إلى سبيله . ولولا صحبته لظل عهدى بالشباب مرآة صافية .

رحلت إلى لندن أنشد المعرفة . فإذا أنا فى بحر لحيّ — أمواجه ملايين من الخلق ، لهم علوم وفنون ، وحضارة ومجد ، تليد وطارف . وفيهم جمال وفينا شباب . ولو كانت لى جاذبية الصاوى أو مبارك ، لتهافت الحسان على شخصى تهافت الفراش على المصباح . لكن شخصى لم يكن كالمصباح ، ولا كانت حسان لندن كالقراش . فلا بد لى من تल्प ، وترفق ، وسعى جميل .

واتفق أن نزلت سيدة فى المنزل الذى نزلت فيه — سيدة من الأنس ، لها ابنة من الملائكة — فما كاد حسنهما يضىء جوانب المكان وجوانح الطلاب النازلين بالدار ، حتى كفروا بقوة العلم وآمنوا بقوة الجمال . وكان بينهم من قدم من أكسفورد ، ومن كمبردج ، ليقضى عطلة الدراسة فى حاضرة الخواضر وكبرى المدائن — وفيهم الشرقى ، والغربى ، وابن البلاد .

وأحسست أن لى قلباً وعينين كسائر المتطفلين الحديقين بالنجمة الزهراء . غير

أنى أحجمت حين أقدم الآخرون . أعوزتنى ثقتى بنفسى فى ذلك المجال ، ولو أن الصديقين الحاكمين بأمرهما فى دولة الجبال ، كانا يومئذ على عرش ملكهما فى باريس ، لأبرقت إليهما أطلب النجدة . أما و بطون القدر لم تكن تمخضت بعد عن الصديقين العاهلين — فما كان لى أن أستولد القدر ما لم يلد .

واحتال الفتیان للفتاة ما وسعتهم الحيل . وفيهم ذو الجيب الملىء ، وذو الوجه الوضىء ، وذو اللسان العذب من أبناء لغتها — يتحدث إليها فكان كلماته لؤلؤ مشور . وأنا لى فى هذه الملحمة ظاهر وباطن . أما ظاهرى فتلج ، وأما باطنى فنار . حتى إذا طاشت سهام الرماة عن الهدف ، وعاد الفتیان المدهون من الفتاة الأنوف بخفى أحنينا توفيق الحكيم — أجمعوا أمرهم على عداوة المرأة ، وصاحوا من فورهم بملء الحناجر : « ليحيى العلم — ليحيى الفن — ليسقط الجبال ! »

فهمتُ المساكين يومئذ وعذرتهم ، كما أفهم اليوم وأعذر الفنان الكبير صاحب « رصاصة فى القلب » — أعنى صاحب المسرحية لا صاحب الرصاصة — فليس للصديق والحمد لله رصاص محسوس تخشاه الحسان .

وانصرفتُ الحلو الهيفاء عن جماعة المشاغبيين ، إلى شاب متعاقل حسبته هى عاقلا ، متوازن حسبته رزينا — أعنى نفسى — بل لعلها حسبته سالياً عنها غير مستهام بها حباً . ولها عذرها فهى من بنات الأعاجم لم تقرأ قول العربى الوهان :

فإن أك عن ليلي سلوت فإنما تسليت عن بأس ولم أسل عن صبر
وإن يك عن ليلي غنى وتجد قرب غنى نفس قريب من الفقر

ومن يدري ؟ لعلها أنست فى ستمى بقية حياء لم تمحها عشرة سوء . وبعض الحسان يؤثر التحرز الكريم فى الرجل ، على التلفف المجنون . أو لعل نبضات قلبى على همسها كانت أجراًساً يدوى صداها فى قلبها السميع ،

ولعل نظراتي إليها كانت في سكونها أخطب من قُس، ومن سحبان، ومن «ديمومستين»
و «شيشرون» .

خلاصة القول أنها تعطفت ثم عطفت، وتسامحت ثم سمحت .. سمحت باللقاء ..
ولكن في غير هذه الدار ، بنجوة من الرقباء والعدال .

يا للعيد السعيد ! يا لضيعة المجد الذي أحرزه العاهلان المصريان في باريس ،
إذا قيس إلى مجدى أنا في مدينة لندن . ألم يقم مجدهما على غزو الجمال بسلطان الفحولة
القاهرة ؟ وأي فضل للقط حين تخضع له الفأرة ذليلة مروعة . حينئذ تكون الفأرة
شهيدة ، ولا يكون القط بطلا .

حقاً كان حكم العاهلين في دولة الجمال بباريس، حكماً دكتاتورياً هتلياً عنيفاً .
أما أنا، فقد كنت مع النجمة الزهراء ديموقراطى المبادئ، دستورى السلوك .. أوليتها
قيادى مطاوعاً سلساً ، فقادتني إلى السعادة — إلى يوم العيد — إلى يوم اللقاء .
و ضربنا لاجتماع الشمس والقمر ميقات يوم معلوم — أستغفر الله لهذا
الغرور . إنها شمس ، أما أنا فلا قمر ولا شهاب . لقد حسبت نفسى أحد العاهلين
الصادقين !

وجعلنا الموعد مثل يومنا من الأسبوع القادم . سبعة أيام أبحث خلالها عن نُزُل
مضيف للعابرين لا يكثر من (س) ولا يدقق في (ج) واهتديت إلى بيت أنيق
في ميدان «رسل» .. صاحبتة أجنبية عطوف على الحائرين . فتحت لي جنة الدنيا
حين فتحت لي غرفة مؤنسة ، هي بهجة النفس ومنية الهوى العطشان . ودفعت أجره
شهر هو خير من ألف شهر من الأعمار المقفرة .

وأجمعت رأى — أو أجمعت هواى — على حياة الغزل شهراً بعد أن طالت
بى حياة العمل دهرأ . فتحولت إلى دار النعيم الجديد، أقيم فيها الأيام الثلاثة الباقية
حتى يأتى المساء الموعود .

وسادنة «الهيكل» حفية بضيفها، سخية على غرفته بفنون الزينة والرياحين ،
وما هو إلا لقاء الحبيين ، حتى يكون هذا الخدع قطعة من الفردوس . وأنا أحصى

الأيام الثلاثة بالساعات والدقائق ، وكل آت قريب ، إلا هذا الموعد العزيز فإنه بعيد — جد بعيد .

وبينا أمشي مشية الهوينى فى شارع (ريجنت) وهو يقابل فى القاهرة شارع فؤاد ، أتشاغل بالنظر إلى معروضات المتاجر الموثقة ، وإلى اللوحات المعلقة على مداخل العماثر الشاهقة — كما أفرج عن النفس كربة الانتظار المضى — إذا لوحة صغيرة من النحاس تغير مجرى حياتى ، وتبعثنى خلقاً جديداً ، فلا تكاد تنقضى الأيام الثلاثة ، ولا يكاد يحين الموعد العلوم ، حتى يكون فكرى غير فكرى وشعورى غير شعورى ، فأرى الحياة بما فيها ومن فيها بمنظار جديد — بمنظار كشف لى أسراراً وجلا غوامض ، وأبدلنى حباً بحب وهياماً بهيام ، وبصّرنى بأن للمرء رسالة قدسية فى دنياه من أجلها خلق . فمن أغفلها عن جهل أو عن بينة ، فقد أغفل حكمة وجوده ، وصرفته القشور عن الباب .

ترى ما هذا المكتوب على تلك اللوحة الساحرة ؟ هما كلمتان معنى إحداهما « جماعة » فما معنى الكلمة الثانية ؟ أصعد الدرج ، وانتهى إلى جناح علقت ببابه لوحة مماثلة ..

— سيدتى يا أمينة هذه المكتبة ، ما اسم جماعتكم ، وما هذه الكتب ، وماذا تصنعون ؟ — نحن جماعة « الثيوسوفية » . وهذه كتب فى كل ناحية ودين ، وفى كل رسالة وفلسفة . أعضاؤنا أكثر من مائة ألف ، وفروعنا فى كل حاضرة فى الشرق والغرب . بيننا مسلمون ، ونصارى ، وبوذيون ، ويهود . بل لانرفض عضوية الملحد إذا آمن بالإخاء الإنسانى ، فهو الإيمان الأدنى الذى لا يصلح فاقده لجماعتنا ولا لآية جماعة . أما التفكير فى منشاء الكون وتعرف نواميسه واستخلاص الجوهر المشترك بين أديانه ، فهذه كتب الأقدمين والمحدثين معروضة على من يريد أن يقرأ هنا أو يستعير .

— وهل تفضل السيدة فتختار لى بضعة كتب أولية أقرؤها فى دارى عسى أن أصل من إيمانى القديم ما انقطع أو كاد .

— حياءً وكرامة .

وعدت إلى الغرفة الجديدة أحمل ثلاثة كتب لا عهد لي بمثلها من قبل . أقبلت على قراءتها في نهمة أسهرتني حتى الصباح . ثم تناولتُ فطوري وأخذت مضجعي لأنام نهاري ، فما زالت الجامعة في عطلة . وأستيقظ بعد ساعات فأتغدى وأستأنف القراءة ، فما انقضت الأيام الثلاثة حتى أتيت على الكتب الثلاثة ، ولم يبق بيني وبين موعد اللقاء سوى ساعات .

لكنني الآن إنسان جديد . لا تعجب من هذه المعجزة أيها القاريء العزيز ، ففي نفسك البشرية من عجائب الأسرار ما يزيد غرابة على الأثير والكهرباء والموجة القصيرة والطويلة ، وما يكشفه العلم كل يوم من أكناف الطبيعة في الأرض والسماء .

وإذا كان من عناصر الكيمياء ما إذا تمازج استحال في مثل ملح البصر إلى مادة جديدة ، ليست من خواص العناصر القديمة في شيء ، فقيم العجب من أن تتفاعل عناصر النفس بمؤثر قوى مفاجيء ، فإذا الشخص القديم شخص جديد . ومهما يكن رأيك أيها القاريء العزيز فهذا ما حدث لي أقصه عليك بالحق ، ولك أن تصدق أو لا تصدق ما تشاء :

تعالت نفسي عن طاعة الغريزة الجامحة ، إلى طاعة المثل الطاهر الذي رسمته الكتب الثلاثة أمام ضميري ، فانتظرت الفتاة الحسنة انتظار عفاف لا انتظار مجنون . تسألني : أين ذهب هيامي «بالنجمة الزهراء» ؟ فأجيبك : أبدلني منه وجداني الجديد هياماً أكبر وأبقى وأشرف . هو الهيام بمثل كريم أجاهر به فلا أخجل ، مثال كريم أفاخر به صادقاً على مسمع من أبي وأمي ، وعلى مسمع من أخي وأختي ، وعلى مسمع بعد ذلك من زوجي وولدي .

وجاءت الفتاة فقُبلت ... يدها ، فدهشت . وجلست قبالتها إلى الموقد أحدثها

في كل شيء، سوى الشيء الوحيد، فازدادت دهشة. بل كاد يبدو عليها أثر المساءة، ولو أنني ضعفت في تلك الليلة لما كانت ليلة الفصل بين عهدين من حياة رجل.

وصالحتها بكثير من الحلوى أكلناها، وبسهرة في السينما قضيناها، ثم رافقتها إلى دارنا القديمة حيث أمها الوقور، وحيث إخواننا الخبثاء. ولم أعد إلى «الهيكل» إلا لأعيد أمتعتي إلى مسكن الدرس والعمل.

والآن، هل يغضب العاهلان الصديقان من تعريضي، وقد هجرت ذلك الميدان - أو فررت منه إذا شاء - منذ أكثر من ربع قرن من الزمان.

يا لها من لوحة غيرت مجرى حياة!

ويا لها من ليلة عرفت فيها انتصار الروح!

« إذا صحت العزائم »

إذا صحت العزائم هانت الصعاب . عبارة نكتبها على مضض ، لأنها تشبه الإنشاء المدرسى والبدائية المرتخصة ! وترديدها بالقلم أو اللسان ، ألفاظاً لاتعدو الشفاه ، أو حروفاً لاتعدو الورق — عبث باطل خير منه السكوت ، كترديد حكمة شوقي :
إنما الأمم الأخلاق . تدور على ألسن ألوف من الببغاوات البشرية ، وأخلاقهم صفر ، ومثلهم العليا في هذه الدنيا عدم .

ورغم ذلك لن يزال تذليل المصاعب رهناً بصدق العزائم ، ولن تزال الأمم بأخلاقها علواً وانحداراً وإيجاباً وسلباً . فالعيب ليس في هذه الحكم التي طالما مضغناها بأفواهنا حتى أذبنها ، ثم لفظناها بحاجة مع اللعاب . وإنما العيب فينا — في نفوسنا التي تشهد اشتعال الهمم في كبريات الأمم تحفزاً للغد الحافل ، ثم تحتفظ هممنا بجمود الثلج وبرودته ، على أن في الثلج ناراً كامنة تنتظر ما يوقدها ، كلهيب البرق ينقذح باصطكاك السحب !

فمن لنا بحساسية جديدة تذيب ثلوجنا النفسية كلما اصطكت — لا أقول بثلوج الأمم الأخرى — بل بوقود غزمها المستعير .

إني أهيب بصاحب الدولة رئيس الوزارة ، وإني لمن أعلم الناس بغيرته على غرة بلاده وسبقها في كل ميدان مجيد ، كما أهيب بزملائه الخلفيين الذين أعرفهم معرفة الصديق القديم ، أو معرفة المواطن المنصف ، أهيب بهم أن يحشدوا منذ اليوم لمرافق مصر وعمرانها وشتى وجوه إصلاحها ، مجعاً — ولو محلياً — كالذي ألفه للشورى السياسية فقيد مصر قبل أن يوافيه الأجل .

إن الجمع العلمى الذى صحب نابوليون إلى هذه الديار منذ زهاء قرن ونصف قرن ، أسدى إليها أيادى مخلدة في كتبهم ، ماثلة في عصرهم وعصر مؤسس الأسرة المالكة . على ضوئهم أنشأ مصر الحديثة ، وبفضل بحوثهم طفر طفرته التاريخية المعجزة .

قال نابوليون : لو أتيح لى البقاء فى مصر عشر سنوات ، لما ضاعت فى البحر قطرة من فيض هذا النيل ، كلمة أنقلها عن الأخ الأستاذ عزيز مشرقى بك ، رواها فى صدد حديثه عن لحظة سابقة دعوت فيها إلى استقدام أفذاذ من عباقرة العلوم والفنون والاجتماع والاقتصاد ، ليهدوا مصرنا الجديدة سبل الوثبة الشاملة . واشترك فى الحديث والتعليق جمهرة من ذوى رأى جلهم نواب ، وكان على رأس الباحثين كبير ذو مكان مرموق من دعائم عهدنا الحاضر . قال : إن فى محفوظات الوزارات رُكاماً من الدراسات الفنية المستوفاة . فالبحوث لاتكاد تعوزنا . وإنما يعوزنا التنفيذ ، والمال عقبتنا الكؤود . وما دمنا ننفق فى المرتبات وما إليها أربعين مليوناً ، فماذا يستطيع ؟

فالى لحظة قادمة .

معضن المرتبات

طالما شكنا البرلمان وساسة المال والرأى العام المستنير ، تضخم المرتبات الحكومية التى تفاقم خطبها حتى لتبلغ أربعين مليوناً من ثمانين — وذلك قبل أن نعلم أبناء الأمة أو نقاوم أمراضها ، أو نحفظ أمنها ، أو نرفع مستوى عيشها بالتعمير والإنشاء . وهذه المعضلة المزمنة لاتكاد تبقى للأعمال الجديدة سوى بضعة ملايين ، لاتفى بمعشار النفقات التى تقتضيها مشروعاتنا الكبرى .

فكيف إذن تثب مصر بمرافقتها العامة وثبة صادقة ، تنقلها من الكفاف أو مادون الكفاف إلى الرخاء ، ومن المرض إلى الصحة ، ومن الجهل إلى المعرفة ، ومن اللصوص بالتراب كالزواحف ، إلى النهوض للعيش كالسباع ، أو التحليق فى الجو كاللبواشق . أننى لمصر هذا ، وخزائنها العامة على رغم انتفاخها فى سنوات الحرب ، ما زالت وعاء مثقوباً لايمسك ما فيه إلا ريثما يمر بجوفه وحواشيه !

رأينا الذى نراه عن يقين ، هو أن مرتب الموظف الكفء لا إسراف فيه . إنما يقع الإسراف بل السفه فى الاستكثار من الموظفين . وهنا يجب أن نتحفظ ، فى حين أن رجال القضاء والأمن والأطباء والمعلمين الأكفاء ورجال الطيران — مثلاً — قد يحتاج عددهم إلى مزيد — نرى فى زوايا المكاتب والدواوين ، فى العواصم والأقاليم ، ألوفاً كثيرة من الموظفين العاطلين . وإنك لترى فى أكثر المكاتب موظفاً واحداً يعمل ، وآخرين — ثلاثة أو أربعة — يعوزهم فى أغلب الأوقات ما يعملون .

ولقد تضاعفت هذه الظاهرة منذ ابتداء حياتنا النيابية . تلك حقيقة نقررها مع حرصنا على النظام الدستورى والحياة النيابية . غير أن لكل خير آفة توشك أن تشوبه مالم نصنعه بالإخلاص والحذر .

فالعبادة قد يشوبها الرياء . والصدقة قد يتبعها المن والأذى أو انتظار الجزاء .
فإذا نهى الناهى عن الرياء أو المن ، فليس ينهى عن الخير ، ولكن عن شوائبه .

وحياتنا النيابية خير خالطته شرور . منها إلحاح كثير من الناحيين في التوسل
بالتواب ، وإلحاح كثير من النواب في التوسل بالوزراء ، فيما قد يعدو الصالح العام .
وإذا قلنا إن الكثرة العاطلة في الدواوين هم صنائع هذه الوسائل ، لم نقل إلا
حقاً . أما الكثرة العظمى من العاملين المنتجين فهم صنائع الكفاية والجدارة والسبق .
على أن الموظفين والعمال مهما يكن عددهم الحاضر فهم أبناؤنا وأخوتنا ، ورعاؤهم
رخاء ألوف من البيوت المصرية الممتدة الوشائج والفروع ، وليس للدولة عليهم من
سبيل سوى أن يعملوا مخلصين ما كلفوا العمل .

حرام إذن أن يفكر أحد في فصل موظف أو عامل إلا لجرم خطير . لكن
أشد حُرمة من ذلك أن نستمر على سياسة « التوظيف » إلا لحاجة صارخة ، بعد
أن استغرقت الوظائف نصف دخل الدولة ، وهذا مانع أن الوزارة الحاضرة تفهمه
وتأباه . إنقاذاً لمصر من خطر العجز ، ولا نقول الإفلاس .

ماذا ضربني سجنى

وماذا أفادنى ^(١)

بنى وطنى عليكم سلام .

لقد عركتُ أصابعى أمس حين خروجى من السجن ، فوجدتها ما زالت
أقوى ماتكون على إرسال القلم حراً جريئاً ، لا يخشى فيما يعتقده صالح بلاده —
أشد أنواع الألم .

وخبرت نبضى أمس بعد خروجى من السجن ، فوجدته ما زال مطرداً قوياً
كعهده طوال أيام الجهاد .

وتحسست قلبى أمس حين خروجى من السجن ، فوجدته ما زال ثابتاً بين
جوانحى مكيناً ، وما زال سليم الإيمان متيناً ، لم تذهب الشهور التسعة التى قضيتها
فى غيابة السجن ، بمثقال ذرة من متين بنيانه ، أو سليم إيمانه ، وما كانت لتستطيع
ولو تطاولت إلى تسع سنين .

إنما حططت عن جسمى عشرين رطلاً من الحشو ، لم تكن لصحتى بها حاجة ،
فكانت هذه يداً بيضاء للسجن عندى . وأرجو أن لا يردّ على ترف الحياة المنزلية
ذلك العبء الذى خلصنى منه شطف السجون .

وإنما أثار السجن آلاماً بدنية كانت كميناً ، فأولانى يداً بيضاء أخرى ، إذ
نهبنى إلى مضاعفة العناية بالعلاج .

إن ما كسبت من سجنى يربو على ما خسرت أضعافاً كثيرة . أما خسارة
السجين فهل يجعلها أحد ؟ ... فقدان حريقى تسعة شهور ! وفى هذه الكلمة وحدها
ما يغنى عن الشرح والإسهاب .

(١) نوفمبر سنة ١٩٣٣ على أثر انقضاء مدة سجن المؤلف تسعة شهور ، فى قضية سياسية
برأته فيها محكمة الجنايات ، وأداته فيها محكمة النقض والإبرام برياسة معالى عبد العزيز فهمى باشا .
وكانت هذه أول مرة رأت محكمة النقض أن من حقها إصدار حكم فى القضايا الصحفية دون إعادتها
إلى محكمة الجنايات .

لكن ما هو الخير الذي خلص لى من هذا الشر؟ ما وجوه النعمة التى استحالت إليها هذه النعمة؟ هاأنذا أعالج الجواب .

أحسست يوم نزعت ملابسى لأرتدى ثياب السجون — أحسست فى تلك الساعة كأنى نزعت كرامتى بيدي ، وأن الإعدام أهون على نفسى من هذا التمثيل برجل له من الأنفة ما ليس لكثير من تلك الأشباح التى لا تحسن سوى أن تهوى بمصر إلى الحضيض !

فى ذلك اليوم ، بل فى ذلك الأسبوع كله ، عانيت أزمة نفسية أوشكت أن تورذنى موارد الختوف . وإنى لفى هذه الحال ، إذا صوت خفى ينادينى من أعماق ضميرى :

أيتها النفس الأمارة بالسوء ، متى كانت الكرامة البشرية ثياباً تنزع أو ثياباً ترتدى ؟ إنى أنا الروح المتعالى فوق المكاره والحن . وإنك لأقرب إلى الله وأكرم عنده فى ثياب المحنة هذه منك فى الحلل الفاخرة . وليس فى وسع كائن من كان أن يفض من كرامتك ، وإن كان فى وسعه أن يفض من ثيابك . إنما خلعت كساء من صوف ، لتسبغ عليك أمتك المفداة كساء من عطف وإشفاق .

بهذه الكلمات الصادقة جعل ضميرى ينادينى كل صباح ومساء ، حتى انشرفت لثياب السجن بعد انقباض ، واسترحت إليها بعد امتعاض ، لأنها استحالت فى عيني إلى رمز واضح من رموز التضحية بالتافه اليسير من طلاء الحياة .

أما تباريح المرض التى عانتها فى سجنى ، ومبلغ احترام القوم لشكوى المريض ، فما أحب إيذاء القارىء بالخوض فيها ، أو إيلاء نفسى بذكرها من جديد .

إن الحرية فى مصر ما زالت جنيناً فى غيب القدر .

ومن الخير أن يعانى المصريون فى سبيلها كثيراً من الشدائد ، حتى لا تهون عليهم ،

إذا تمخض عنها اليوم السعيد المنتظر .

جنيت من سجنى هذه الثمرة : رجحان الجوهر على العرض واللباب على القشور ،

فأصبحت لا أبالي ماذا أرتدى ، ولا كيف أنام ، وإنما أبالي كيف شعورى وتفكيرى
وكيف ثبات قلبى ، وحرارة يقينى !

وزوجى وأبنائى ؟ ألم تقدم هذه المحنة شيئاً ؟
لقد عكفت شريكة حياتى هذه الشهور التسعة حبساً فى الدار ، لم تغادرها إلا
ثلاث ساعات زارت فيها السيدة أم المصريين ثلاث زيارات ، لما والت عصمتها من
الاشفاق والعطف ، ولقرب الدار من الدار .
وأبنائى الذين قضوا صيفهم بعد عناء الدراسة وجهود الامتحان ، راكدين بين
الجدران لا يكادون يفكرون فى غير أبيهم السجين ، حتى إذا أزفت ساعة نومهم ،
التفتوا حول أمهم ، واتجهوا إلى الله بقلوبهم البريئة يضرعون .
إن أبنائى لم يعرفوا من الدهر غير ابتسامه ، فكان حقاً عليهم أن يعرفوا عبوسه .
نشأوا بحمد الله أصحاب موفورين ، لا هم لهم إلا المراحة بين الدرس واللعب .
وكنت لا أكاد أخليهم أسبوعاً من مشاهدة قطعة تمثيلية اختارها لهم ، بعد أن أشهدوا
على المسرح أو الشاشة ، فإذا أقبل الصيف ، وفرغوا من أداء الامتحان قضوا أشهر
العطلة مستمتعِينَ بمياه البحر أو هواء الريف . عيشة لينة هنيئة لم يكدر صفوهم فيها
حادث مذكور .

طالت مهادة الزمان ، فلا بد من أمر يقع ، لا بد من أمر عنيف يرج البيت
رجاً ، ويظفر بأبنائى من غرة الأطفال إلى يقظة الراشدين . لا بد لهذه العيون الساذجة
أن تذرف الدموع ، ولهذه النفوس الوادعة أن تتجرع الألم . وفوق كل شيء لا بد
لهؤلاء البنين من الدرس الأول فى التضحية .

يجب أن يصوموا عن اللعب واللهو البريء تسعة شهور . ويجب أن يصوموا
عن نزه الصيف حتى فى ضواحي القاهرة ، ومع ذلك يجب أن يكدوا أنفسهم ليجوزوا
الامتحان ، إرضاء لأبيهم نزيل السجون . وإذن فليجهد الأستاذ صلاح^(١) . حتى

(١) استأثر الله بقرّة العين الحبيب مساء ٢٣ يوليو سنة ١٩٤١ . فى رضوان ربك يا بنى — وإلى اللقاء

ينتقل من السنة الثانية إلى الثالثة الابتدائية ، وليجتهد الأستاذ كامل ، حتى يجوز امتحان الشهادة الابتدائية. ولتجتهد الأنسة عصمت لترقى إلى السنة الثانية من الدراسة الثانوية، والآنستان عليه وإسعاد لترقى إلى السنة الثالثة. وكان ما أرادوا— وأم المصريين حفظها الله ^(١) . تختلف إليهم ففتحهم بأفانين الحلوى ، جزاء لهم على حسن بلائهم في الدرس والتحصيل .

لكنهم تعلموا دروساً أخرى هي خير لهم ، ولبلادهم ، وأبقى . تعلموا درساً قيماً في الغيرية والإيثار ، بما انصرفوا عن أنفسهم ، وعن حاجاتهم ومطالبهم ، وبما توجهوا إلى أبيهم السجين .

وتعلموا درساً قيماً في ضبط النفس ، بما أقلعوا عن ضروب اللعب والتسلية هذا الزمن الطويل .

وتعلموا درساً قيماً في صدق الشعور بالواجب ، بما أقبلوا على علومهم إقبالا كفلاً لهم النجاح جميعاً — ما شاء الله — وذلك من غير حافز إلى الجِد ، سوى إحساسهم بأن العمل على إرضاء والدهم سجيناً ، أوجب عليهم من العمل على إرضائه طليقاً . ولكن الدرس الذي تعدل قيمته سجنى تسعة شهور ، والدرس الذي تزول الجبال ولا يزول من نفوس أولئك الأطفال — علمهم أن أباهم إنما سجن في سبيل الدفاع عن عقيدته وعن صالح الوطن ، وأن الزياد عن صالح الوطن ، عمل واجب محمود ، ولو أعقب المكاره .

وأدلة ذلك لديهم موفورة . إن إخوانهم في المدرسة قد ازدادوا إقبالا عليهم وعطفاً ، منذ وقوع الواقعة ، بل هم يرون في أعين المعلمين والمعلمات ، لمعاً من هذا العطف قد يحاولون إخفاءها ، لأنهم موظفون ، حرام عليهم إبداء الشعور !! والسيدات المتفضلات بزيارة أمهم ، لا يوجهن إليها عبارات التعزية ، بل عبارات التهنية ، ويغبطنها على ما حل بزوجهما من ذلك المكروه في سبيل العقيدة .

وزيارة الزائرين من وجوه الأمة وأحرارها لجريدة الجهاد، ومن وجوه الأقطار

(١) تغمدها الله بأوسع الرحمات

العربية و فرق الكشافة فيها — سيل لا ينقطع — إبداء لعظمهم الكريم على الوالد
السجين !

لا ريب إذن في أن خدمة والدم لوطنه شيء محبوب ، فهم لا بد خادموه متى
استكملوا الأهبة ، وإن أدّى بهم الجهاد إلى التضحية .
وعلى هذا النحو غرست شجرة الإيمان بالوطن في هذه القلوب الخالية . فلو لم أجن
من شذتي سوى هذه الثمرة لكفى بها أجراً عظيماً .

لقد حلت المحنة وانجلت ، دون أن تزيدنا إلا غيرة على خير مصر ، ودوؤو بأعلى نشدانه .
وإن فينا لقوة على احتمال محن أخرى أشد وأنكى ، إذا اقتضتها خدمة البلاد ،
وأملت بها العقيدة .

وما هذه النوازل سوى نعم مطوية في ظواهر نعم ، هي نعم من الوجهة العامة .
فما نصرة الوطن المقهور ، تمراً نأكله ولا رحيقاً نشربه ، وإنما هي مكاره نلقاها مصابرين
حتى تزول المكاره . وهي نعم من الناحية الخاصة ، لأنها امتحان للعزيزمة ورياضة
للنفس وشحن لروح الكفاح ، ولو عاد الزمن أدراجه تسعة شهور ، وجعل إلى أن أختار
وقوع هذه الكريهة ، أو اطراد العيش الهاديء بين جريدتي وداري ، لاخترت وقوع
الكريهة ابتغاء تلك الثمرات .

لكن ذلك لا يعنى أن القانون الذي حوكت على مقتضاه قانون تفره أو ترضاه
بلاد متحضرة .

وليس في الدنيا كلها بلد متحضر يحشر بين اللصوص والقتلة وهاتكي الأعراض
والتجربين بالخدرات ، رجلاً وقف حياته على الصالح العام ، جريمته جريمة رأى ،
يحشر بين هؤلاء ، ويلبس ما يلبسون ويفترش ما يفتشون ، لولا برحاء المرض في حالتي
الخاصة ، ولولا أن الشخصية ، إذا كانت محترمة بصفاتها الذاتية ، تبعث الشعور
باحترامها فيمن حولها — حتى داخل السجون .

لن تتم لنا أسباب الحضارة بحق حتى ترتقى في بلادنا اللوائح والنظم ، وحتى تعترف هيئات التشريع عندنا بجُرمة المشتغلين بالحياة العامة من ساسة وصحفيين ، وإن احتدمت ألسنتهم وأقلامهم فبلغت حرارة اللهب ، وحتى تعاملهم الحكومات غير هذه المعاملة المزرية .

وإلى أن يتم ذلك ، وإلى أن يصبح الصحفي الشريف في عين الدولة وليس أقل شأنًا ولا كرامة من القاضي الشريف ، والوزير الشريف ، وحتى ترتقى نظمنا ، ونظرات الهيئات الرسمية إلى سواد الشعب ، وإلى الخاصة من أفراد العاملين ، ستظل بلادنا متخلفة ، مهما يأخذ الآخذون عن حضارة أوربا من بهرج لامع وطلاء براق . أما بعد ، فإني أقف هنيهة حزينة أستمطر فيها الرحمات على الأعداء الذين فارقوا الدنيا وأنا سجين . جاءني نعي البطل الراحل سينوت بك في برقية من أخى ، فهاجزعت من السجن قط إلا في ذلك اليوم . مات ابن مصر البار وخادمها الأمين طيلة أيامه ، ومنقذ حياة صديقه وزعيمه يوم النصورة . كان دمعى مستعصياً على الحوادث منذ سنين ، ولكن في ليلة ظلماء داخل غرفة ضيقة موحشة ، عكفت على ذكر الرجل كل الرجل ، والصديق سينوت حنا كل الصديق ، فما هي إلا أن مثلت في خيالى خدماته العامة ومروءاته الخاصة كأشعة من نور ، حتى ذل الدمع العصى فأنحدر من عيني سخيئاً . ولم يمحض على هذه الفجعة سوى زمن يسير ، حتى نعى إلى الناعون كبيراً آخر من المؤمنين العاملين في سكون وصمت ، الثابتين على العقيدة لا يبعونها عوجاً ولا يشترون بها ثمنًا قليلاً — المغفور له محمد زغلول باشا .

ثم يهجر الدنيا ذلك الزميل المحبوب الذى شغل رئاسة التحرير في زميلتنا الأهرام أربعين عاماً لم ينحدر خلالها قلمه إلى كلمة شوهاء ، الأستاذ داود بركات ، ذلك الصديق الذى أذكر له فيما أذكر من مكارم — إسرعه إلى دار الجهاد مساء اعتقالى — على رأس لفيف من الزملاء ، مواساة وعطفاً . وإن أنس لا أنس صوته المتهدج ودمعه الجائل بين جفونه ، وهو يناشدنى فى إلحاح شديد ، أن أكلفه خدمة يؤديها إلى جريدتى أو أسرتى أيام سجنى !! .

لقد كنت أرجو أن ألقى هؤلاء الإخوان في بيوتهم زائراً شاكراً، فلم يُرد القضاء
سوى أن أزورهم في القبور، مترحماً ذاكراً .
ثم ينهدم ذلك الركن الركين والخلق المكين ، المغفور له عدلى باشا، فتخسر البلاد
بفقدته خسارة فادحة ، تفقد زعيماً جليلاً ، وسياسياً متيناً ، يترفع عن الدنايا السياسية ،
ويُجل الروح الوطنية ، ولا يفرط ، أو يرضى بالتفريط ، في شيء من حقوق أمته .
رحمهم الله جميعاً ، ورحم إخواناً آخرين انتقلوا إلى عالم البقاء ، سنلقاهم في الدار
الأخرى ، وقد عز اللقاء في هذه الدار ! .

والآن أختم هذا المقال ، حائراً كيف أعرب عن شكرى ، وكيف أوفيه أمتنا
الكريمة التي أبدت نحوى من الإشفاق والعطف مالن أنساه مادمت حياً .

معنى حرية المرأة

صحت عزيمة المرأة المصرية على أن تخرج من الظلمات إلى النور . فقد طال احتباسها بين الجدران كأنها قطعة من الأثاث أو أقل قيمة ، وطال حرمانها من أشعة الشمس تبعث فيها الحياة ، ومن شذى الهواء الطلق تستروح منه أنفاساً مجددة من العافية والهمة .

إنها تستدبر ظلام الأمس لتستقبل ضياء الغد . وقد أخذت المرأة المصرية اليوم تقامس الطريق إلى الحياة الجديدة .

تؤمن المرأة المصرية المستنيرة بأنها روح إنسانية قبلها أنثى وقبلها شرقية ، وبأنه إذا اختص الرجال بشيء قد لا يعنى النساء ، وإذا اختص النساء بشيء قد لا يعنى الرجال ، فإن ثمة ميداناً مشتركاً هو فوق الذكورة والأنوثة — ذلك ميدان الثقافة النقية والخدمة الكريمة للمجتمع بأقصى ما يستطيعه الرجل وأقصى ما يستطيعه المرأة . وتؤمن المرأة المصرية المستنيرة بأن الشمس وضياءها ، والطبيعة وجمالها ، والعلم وآياته ، والفن الجميل وبدائعه ، والأدب الرائع وطرائقه — كل هذا لم يخلق للرجل وحده ، بل خلق كذلك لأمه وزوجه وأخته وابنته ، إذ هُنَّ أرواح تسمو إلى ما تسمو إليه أرواح الرجال ، إن لم تكن بالسمو أولى وأجدر .

نعم تؤمن المرأة المصرية بهذا كله وبشئ هو خلاصة هذا كله وجوهره الثمين — أريد الحرية الفاضلة ، وأقول الفاضلة لأن تقييد الحرية بهذا الوصف أمر لا بد منه ، إزالة للغموض الذى يعتبر لفظ الحرية كلما ورد فى قول قائل ، ولا سيما إذا أراد بها حرية المرأة .

يسئ كثير من الناس فهم الحرية ، ولا سيما حرية المرأة ، فيحسبونها تحرر الفرائز الدنيا من عقالها ، فيصبح أمر الآداب والأخلاق فوضى ليس لها ضابط . ولو كان هذا معنى الحرية لكان من ينادى بها ويدعو إليها ، منادياً بتهديم أركان

الحضارة المثلى . وما رقى الحضارة سوى الرقى النفسى الذى تعالت به الجماعات المهدبة على مستوى العجماء ، وذلك بكبح الغرائز الدنيا ، أو إخضاعها لقوانين — بعضها أديان منزلة ، وبعضها آداب وأخلاق لا تكاد تقل عن الأديان قداسة .

إن المرأة المصرية حماها الله ، وحمتها الكرامة ، تطلب الحرية لعقلها المفكر ، وعواطفها المتدفقة بأنبل المشاعر ، المتحفزة لأبر الأعمال ، وتحس أن عليها لقومها ولنفسها فروضاً يجب أن تؤديها على أكرم وجه مستطاع .

تلك هى الحرية التى تريدها المرأة المصرية — حرية العقول المثقفة والعواطف المهدبة ، تجعلها أداة للخير والنفع العام . وهى تعلم أن المدنية الصادقة ، كما تقوم على ضبط الغرائز الدنيا ، تقوم كذلك ، وبالضرورة نفسها ، على تحرير العقول المفكرة والعواطف السامية . إذ المرأة المصرية على يقين من أن للنفس البشرية جانبين أسمى وأدنى ، وهى على يقين من أن رقيها المنشود ، إنما هو تقييد الجانب الأدنى بالقيود الكريمة ، وإطلاق الجانب الأسمى بأوسع معانى الإطلاق .

فإذا تبين هذا ، وهو حقيقة لا تحتاج إلى بيان ، تحدد معنى الحرية التى تنشدها نساء مصر بل نساء الشرق جميعاً ، ولم يبق ثمة ريب فى أن واجب الرجال هو أن يكونوا عوناً للنساء على هذا الحق العظيم الذى لا يختص به جنس دون جنس . وليعلم رجال مصر أن المرأة المصرية لا تطلب تلك الحرية الشوهاء التى أصبحت فتنة لبعض نساء البلاد الأخرى ، حرية المراقصات الخليعة ، وحرية التبذل فى المظاهر والأزياء ، وحرية المخالطة للإغراء والأغواء ، فهذا كله عود أو شروع فى العود إلى إرسال الغرائز من مكانها جامحة ، مطلقة .

المرأة المصرية أعز من هذا وأجل . وإنما تريد الحرية الفاضلة ، حرية أن ترى الشمس ، وتستنشق الهواء ، وتداعب الطبيعة ، وتتمتع بالعلم والفن ، وتشترك فى الخير العام ، وأن تسير فى الطريق إذا دعت الحاجة ، وتحضر المجمع ، فتلقى من الرجال السنة ناطقة بإجلالها ، وقلوباً خافقة بإعلاء مكانها ، كما يعلى الأخ مكان أخته ، والوالد مكان ابنته ، والولد مكان أمه .

تلك هي الحرية التي تنشدتها المرأة المصرية ، وهي حرية فاضلة ، من حال دونها
فقد أرهق وظلم ، بل حارب مصر في طريقها إلى أمام .

(١) شم النسيم

« شم النسيم » كلمة فيها نسيم الشعر . ويوم شم النسيم يوم يتيه على سائر العام
بانصراف الناس فيه عن أساليب الحياة المألوفة ، إلى الاستمتاع بمشاهد الطبيعة ونفحاتها ،
في إبان ازدهارها وزخرفها . . ولقد تشم النسيم في كل يوم من أيام حياتك إذا كنت
من يحبون الهواء الطلق ، ويسعون له كل أصيل أو غداة خارج المدينة أو القرية . لكن
إفراد يوم معين لشم النسيم له معنى خاص ، هو إجلالنا لجمال الطبيعة واحتفاؤنا بمحاسنها ،
فلا تستغرق مرافق العيش ومشغل المادة كل مشاعر النفوس ، ولا تنسيها أن في الحياة
أزهاراً ناضرة تدعوك إلى قبة ، وجداول عذبة تدعوك إلى رشفة ، وأشجاراً ظليلة
تدعوك إلى جلسة ، وشمساً منيرة تدعوك إلى نزهة ، وخالقاً بديعاً يدعوك إلى عبادته
بتدبر هذه الفنون من بدائع صنعه .

لذلك أعجب لهؤلاء الذين يبيعون لأنفسهم في هذا اليوم الجميل أنواعاً من
الشراب والطعام غير جميلة . فتراهم يحملون إلى الحدائق والبساتين أشد الخمر ضراوة ،
وأخبث الأطعمة ريحاً ، فإذا الرياض حانات ومواخير ، وإذا سندسها النضير بساط ،
ولكن من جلود الفسيخ الملقاة بين أشجار الورد والياسمين وأشجار البرتقال والتفاح .
وعندى أن الذي يفسد أنفاس الرياحين بأنفاس الجعة والوسكى ، دع عنك
« البوظة والعرق » — ولا سيما يوم شم النسيم — يأتهم إلى الطبيعة في يوم عيدها ، وإلى
بنات الطبيعة من زهر ونهر وثمار . وإلا فأى نسيم هذا الذي لا تستنشقه إلا ممزوجاً
بهذه « الأبخرة » ! ألا تستطيع صبراً عن اللحوم والخمر يوماً واحداً ، تجترىء فيه
بالفاكهة طعاماً وبالماء شراباً ، فيكون ذلك لأنفسنا رياضة ، وللطبيعة تحية وشكراً .

الشهادة الدراسية والرجل

الرجل مجموعة كبيرة من القوى والمواهب والصفات — ولا تدل الشهادة الرسمية إلا على أن طائفة من تلك المواهب والقوى، أربعاً أو خمساً في الكثير الغالب — قد صرنت على ما خلقت له من الوظائف والأعمال، مراناً ربما كان مشوهاً منقوصاً. ولكن هب هذه القوى الأربع أو الخمس، بلغت في الرجل درجة عالية من النماء والمران، فماذا نعلم عن القوى والصفات الأخرى؟ تلك القوى الكامنة التي يضيق عنها برنامج الجامعة أو المعهد، تلك القوى اللطيفة الدقيقة التي لا يفرزها غربال الامتحان؟

هل بشهادة الحقوق التي أحرزها مصطفى كامل، علمنا سرَّ شجاعته وإقدامه وأنه سيحيا عظيماً محبوباً، وأنه سينجذب إلى الحق، وإلى الحق سيجذب أمة، وأنه سيورى من الرماد ناراً، ويخلق من البطون قلوباً؟ هل كانت قوته هذه مادة من مواد الامتحان!

هل بالشهادة الحربية التي نالها نابليون في مدرسته، علمنا أن فيه من الصفات ما يخرق به الأرض ويبلغ الجبال طولاً؟ هل كانت قدرته على أن يسود سيدات الأمم ويرغم شاحات الأنوف، ويقهر الجبابرة العتاة، هل كانت تلك القوة المدبرة وتلك المطامح البواسق مادة من مواد الامتحان؟

هل بشهادة العالمية الأزهرية — وكانت فيما سمعت من الدرجة الثالثة — علمنا قدر الأستاذ الإمام الذي كتب (الإسلام والنصرانية) والعهد على الراوى، في بضع ساعات في غرفة مغلقة الأبواب، لا يستعين فيها برأى غير رأيه، ولا بصحيفة غير صحيفته قلبه؟

سارت سورة الغيرة على الإسلام في رأس الإمام، فدفعت شخصه الكريم إلى غرفة أغلقها دونه — غرفة خالية إلا من يراع ودواة وقرطاس — وهناك دفعت

الحمية عقله الرزين إلى الوثوب، وعواطفه الكمينية إلى البروز — ثم حركت يده البيضاء بالقلم تعدو به عدواً متدفقاً لا ينى، حتى خرج الأستاذ الأكبر بعد ساعات معدودات من بين أصحابه قلمه وطرسه ومحرته، وبيمينه رسالة « الإسلام والنصرانية » !

هل شهدت الدرجة الثالثة للأستاذ الإمام هذه المواهب؟ هل أفرزها غربال الامتحان؟ أى فرق بين الدرجة الثالثة فى يد فقيد الإسلام، وبينها فى يد ذلك الآخر الذى سمعه أحد تلاميذه يهتف بأن القدرة الإلهية كتبت على نخذ إمامه مالك « مالك حجة الله فى أرضه » فلما اعترض الطالب قول الأستاذ، أسكت نعل الأستاذ لسان الطالب؟ (على ما حدثنا الأستاذ هلباوى بك) أقول أى فرق بين الشهادة فى يد النابغة الإسلامى، وبينها فى أيدي أمثال هؤلاء الذين كان الطلاب يسألونهم بالسنتهم فيجيبونهم بالسنة النعال؟

الورقة واحدة فى الحالين — ولكن الفرق خارج عن الورقة لأنه فوقها. الفرق دفين فى طوايا الأستاذ الإمام لا تبديه أسئلة السائلين ولا امتحان المتحنيين، إلا فى ظروف توقظ مواهبه من مرقدتها وتبرزها من مكانها — كما بعثتها فى عشر ساعات كتب الأستاذ فيها رسالة الإسلام والنصرانية.

العظيم يرى فى نفسه قوة البرهان على حقيقة نفسه. لذلك أبت نفس (سبنسر) ذلك الفيلسوف الاجتماعى الكبير أن يتخذ من الشهادات دليلاً على علمه وقدرته، فرفض ما عرضت عليه كبريات الجامعات من شهادات شرف علمى شتى !

ليس العلم بضاعة يخزنها العلماء فى خزائنهم، ولا وفقاً يقفونه على رؤوسهم، بل هو ملك شائع يأخذ منه من شاء ما شاء، كيفما تتيح الظروف والفرص. ادخلوا الجامعات فى الشرق والغرب يابنى مصر أفواجاً أفواجاً، وأحرزوا شهاداتها الكبرى كل عام زرافات زرافات — فما أقصد أن ألوكم عن الصراط المألوف صراط الذين يطلبون العلم فى دور العلم، ويأخذون الحكمة من معاهد الحكمة.

لكنى مع ذلك أناشدكم أن لا تقفوا بآمالكم ولا مطامحكم عند هذه الشهادات.
وأناشدكم الله أن تنالوا الشهادة عفواً فى طريق طلب العلم — لا أن تنالوا العلم عفواً
فى طريق طلب الشهادة .

« حياة العمل »

أتدرى من هو أسوأ حالا من الفقير المعدم ؟ هو ذلك الذى كلما هب من فراشه الوثير ساءل نفسه متبرماً حائراً : ماذا أصنع اليوم ؟ هو ذلك الذى يطلب شهى الطعام فيجده ، وفاخر الثياب فلا تعوزه ، وألوان النعيم وضروب اللهو فلا يحول بينه وبينها حائل . حتى إذا مل حياة الدعة والترف ، لم يعرف إلى حياة الجد والعمل سبيلاً . وفى مصر مترفون كثيرون هذا شأنهم ، تراهم ساجدين فى بحار الرفاهية ، بل تراهم غرقى فى بحارها ، فتحسبهم ، وقد شهدت مظاهر سعادتهم — سعداء — وحقيقة أمرهم أنهم أشقياء .

ذلك الذى خارت عزيمته ، فلا يستطيع أن يكون جندياً إذا طلب إليه الوطن أن يكون جندياً ، ولا يستطيع أن يكسب لعيلته بكدحه إذا عصف الدهر بما ورث ، ذلك الرجل وأمثاله الذين أفسدتهم طراوة العيش الناعم ، ليسوا شرفاً للبلاد مهما يكن ما يملكون ، ولا هم من السعداء حقاً ، لأن شعورهم بالعجز عن مطالب الرجال وهمم الرجال ، كثيراً ما ينفص عيشهم ويصغر شأنهم أمام الضمير ، يوم تتفتح فيهم عين الضمير ! يومئذ تسائلهم ضمائرهم : ثم ماذا ؟ ثم ماذا أيها الطاعمون الكاسون اللاهون ؟ ثم ماذا بعد إذا أكلتم واكتسبتم ولهوتم ؟ ألا تحبون وقد بذلت لكم الحياة هذا كله ، أن تبذلوا شيئاً فى سبيل الحياة — أن تعملوا عملاً ! .

قد يكون الترف أشد خطراً على حياة النشء من الفقر والإدقاع . فرب فقر بعث فيهم قوة الجهاد والجلاد ، فإذا بهم رجالاً ذوى عزيمة وهمة . فأما الترف والإخلاد إلى الرفه ، فقد يقضيان على متانة الخلق وشدة المراس ، فينشأ الناشء مائعاً رخواً لا خير فيه . وإذا وهنت عزائم الكثرة من أهل جيل ، فعلى أمتهم العفاء ، حتى ينشئهم الله خلقاً جديداً .

أيتها العام الماضي وداعاً

ومررباً بالعام الجديد

أمس في منتهى الساعة الثانية عشرة من المساء ، وفي مستهل الساعة الأولى من الصباح ، نزعنا بيدي تقويماً كان معلقاً بجدار الغرفة عن يساري . ولم ألق به إلى سلة المهملات إلا بعد أن فصلت عنه آخر ورقة فيه . وكان يحمل اليوم وتاريخه يوم الأربعاء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ — فزقتها في شيء من الحنق ، وقذفت بقطعها الصغيرة إلى السلة ، وأنا أقول وداعاً إلى غير لقاء يا آخر زهرة عابسة من شجرة عام كاشر عبوس . ثم عاودني نوع من الرثاء لهذه الزهرة البريئة الممزقة الراحلة ، وحدثني شعوري بأن الذنب فيما نجنيه على أنفسنا أو يجنيه علينا غيرنا ، ليس للأيام ، ولكنه من عملنا أو من عمل سوانا من الناس . وما الأيام إلا كآنية خالية يملؤها المالء مما شاء من ماء زلال ، وألوان مريئة شهية ، وروح عاطرة وريحان ، أو مما شاء من ماء آسن وطعام فاسد ، وعناصر تحمل في طياتها الأذى والهلاك .

فما ذنب الأيام ؟ ما ذنب تلك الآنية التي يبعث بها إلينا خالق الليل والنهار لنملأها من الخير وأسباب السعادة والمسعى الجميل ، في سبيل المثال الأسمى لأنفسنا أفراداً ، ولأمتنا جماعة ؟

ما ذنب الأيام ؟ ما ذنب تلك الآنية الربانية المصنوعة من المادة الخفية السرمدية ، مادة الزمان ، ما ذنبها ، إن يكن حاكم من أبناء مصر يشايعه ثمانية آخرون ، تشايعهم طائفة تشتري بالمثل الأعلى ثمناً قليلاً ، قد شئت لهم أهواؤهم أن يملأوها من عناصر الأذى لأنفسهم ولهذه الملايين !

أما الأذى لأنفسهم فلا ريب فيه . وهل يستوى الذين يحسنون صنعاً ويحيون آمال أمة ، ويصعدون بها آخذين بيدها ، في مرتقى الحق المنشود والرجاء العزيز المعقود والذين لا ينالونها إلا بالمساءة فيذبون منها الأمل ، ويبطلون الحق ، ويجذبونها عنوة

إلى منحدر لم تنج منه إلا بشق الأنفس ، وبعد العناء وطول العذاب !
ولو فطن السيء ، لما أساء ! لو فطن إلى أنه ينال بالأساءة من نفسه أضعاف
ما ينال من سواه ، لانصرف عن ضلاله وارعوى . ويميناً بخالق الليل والنهار ، الذى
خلقهما آنية روحية لئلاها من الحسنات والمآثر وأعمال الخلود ، لو أن من طعن مصر
وأصابها فى عزتها وحريتها ، لو أنه يعلم كم أساء إلى نفسه ، وكم باعد بينها وبين نفوس
أبناء وطنه ، وكم خسر فى هذه الصفة التى اشترى فيها حكم عام ، بروابط الأخاء وصلات
الثقة والولاء بين المصرى ومواطنيه ، وكم ألحق بشخصه من فعال ستنقض بانقضاء
الوزارات ، وانقشاع السحب والأزمات ، فى حين أن ذكرها ستظل فى صحائف
التاريخ وصحائف القلوب اسطراً شوهاء لاتمحى — نعيدها يمينا بارة ، لو علم هذا الذى
نقوله حق العلم ، وآمن به حق الإيمان ، ما فعل شيئاً جل أو هان مما فعل .
أما الأذى لهذه الملايين فهين . لأن الشعوب لاتتم لها معانى القومية الصادقة إلا
أن تصهرها الحن والخطوب . وعلى قدر ما تعاني الأمم من عنت المستبدين ، وعلى قدر
حرصها على استعادة حقها ونصرة مبادئها فى غير سامة ولا ضجر ، تعود بنصيها من الحق
والحرية كاملاً موفوراً .

إذن فوداعاً رفيقاً شقيقاً يا آخر زهرة عابسة من شجرة ذلك العام العابس الذى انقضى .
وداعاً رفيقاً لأن عبوسك وعبوس أخواتك من قبلك لم يكن عملاً أنت بل
من عمل إخوان لنا من المصريين . وداعاً فى غير إحنة عليك فلعلك كنت تشهدين
حال مصر ، وتشفقين .

وهأنذا أستجمع قطعك المتناثرة فى السلة ، وأضم بعضها إلى بعض ، لأدفن
رفاتك فى ركن من حديقة الجريدة ، وسأوارىها التراب مترحماً ، لأنك لحمة من الماضى
بجلوه ومره ، وما كان الماضى ليهون على رجل رشيد ، إذ لولاه لم يكن حاضر تشحذ
فيه العزائم ويضعف العمل ، ولم يكن مستقبل نعقد به الرجاء ونحياله فى طليعة الأحياء

ومرحباً بك أيتها التقويم الجديد المبارك .

إني أضعك الآن مكان أخيك من هذا الجدار عن يسارى فى غرفتى ، وأضرع إلى الله من قرارة نفس مصرية تغز مصر فوق إعزاز الأهل والولد ، أن تقضى معاً أيها التقويم الجديد عاماً باسمك سعيداً ، عاماً باسمك لمصر ، وسعيداً بسعادتها .

أرفعك يا تقويم العام الجديد إلى مكانك بيدى ، كما وضعت أخاك بيدى . ذلك عام مضى من حياتى . وهذا عام لست أدري هل أتمه معك فى هذه الدنيا . غير أنى أعاهدك يا تقويمى على أن أحاول كلما انفرط من عقد الحياة يوم ، ونزعت منك ورقة ، أن أكون ذرة صالحة عاملة فى هيكل الوطن .

يا تقويمى فاشهد . أنت هنا فى مكتبى ، تنظر حركات قلمى وتسمع صريه ، وليتك تدخل خواطرى فتعلم سرى ونجواى ، حتى إذا أحصيت على صاحبك هجسة سوء أو وسوسة شيطان ، أو إشاراً لخير نفسى على خير أمتى ، انقلبت وريقاتك خناجر نافذة فى عنق ذلك الذى يخاطبك فى هذه الخلوة الهادئة .

ويا أبناء مصر . إن الدعوات الطيبات لتزدحم على لسانى .

هل أدعولكم بالرخاء والسعة ، والنجاة من هذا الضيق إلى فرج من النعماء فسيح ؟ وهل أدعولكم بأسباب أخرى من غبطة اليقين ، هى العزاء عن حطام الدنيا إذا غرَّكم هذا الحطام . لو دعوت لكم أيها المواطنون الأعزاء بكل صنوف الخير التى أحبها لكم ، لقضيت الليلة فى الدعاء حتى ينبلج الفجر ! فحسبى أن أدعولكم بكل ماترجونه لمصر ولأهلكم وأنفسكم من أسمى أنواع السعادة والغبطة .

ويا زعماء الوطن . مد الله لكم فى أيام الحياة وفى وسائل العمل المجيد .

ويا خصوم مصر من بنىها أو غير بنىها ، هداكم الله صراطاً مستقيماً وأحال تراب أنفسكم تبراً وظلامها نوراً .

ويا أمم العالم ، ألهمكن الله آية السلام ، ومحا من بينكن آية الطامع والمكايد والعدوان .

ويا عامنا الجديد ، مرحباً بك من عام سعيد ، ستستعيد فيه مصر بإيمان أبنائها

ما فقدت ، ويبتسم لها الدهر إن شاء الله بعد طول عبوس ! .

القرية في ظلام

القرية المصرية — عدا الليالى القمرية — فى ظلام حالك . نور المسارج محبوس بين جدران الدور والأكواح . أما الأزقة وما بين المنازل وما حولها فسواد كناصية الغراب . وما لم تكن حديد البصر فأنت بحاجة إلى تلمس الطريق بعصاك أو يديك . وليس يأمن المدلج أن تغوص قدمه فى أرواث لا يراها ، أو أن يصطدم رأسه بخشبة ناتئة من جدار . وقد تسمع وقع أقدام على مقربة منك وترى أشباحاً آدمية بين يديك ، فلا تبين الوجوه ولا تميز الأشخاص حتى تقول لهم أو يقولوا لك « سلاماً » فتعرفهم بأصواتهم إن كنت من خلطائهم ، وإلا فأشباح مرت بأشباح ، أو خفير يصيح بك وهو على قيد رمح منك : من أنت أيها القادم ؟ « أنا » « أنت من » « أنا محمد » ، « ومن محمد » ، « محمد أبو خليل . شىء بارد صحيح ! »

(لا مؤاخذه يا أبو خليل ، الواحد معذور ! عيني كانت عسلت حبتين ، وصحيت مدروخ ، والدنيا زى الكحل ، وحسبتك دورية) .

ليس هذا غلواً فى الوصف . ولقد كنت وأنا غلام لم أبلغ الثامنة شديد الروع بالذهاب كل ليلة من الدار إلى « الدوار » كى أصفى إلى حديث الأجداد والآباء ، وكانوا يتنادرون كثيراً بحوادث العصور التى شهدوها ، ويقصون علينا نحن معشر الأبناء طرائف شائقة فيها عظات وسمر وفكاهة ، فلم يكن عجباً أن يفتتن غلام فى سنى بالجلوس إليهم رحمهم الله . لكن أبى كان يسبقنى إلى « الدوار » بعض الليالى فلا أجد بداً من اللحاق به وحدى . وكنت أستحى أن أسأل خادماً أو خادمة مرافقتى لآيناس وحشتى وإيمان خوفى طريقاً مظلمة كانت تملؤنى وجلاً ورهبة . ذلك أنى كنت أسمع فى مجلس السمر « بالدوار » تمدحاً عظيماً بالشجاعة والإقدام ، فكنت أحب الإقدام على خوض غمار الظلام ، وكان فى بعض الطريق حظيرة أبقار يهابها المارة بالليل « إذ يسكنها عفريت ! » لا تضحك ! لقد كان لهذا العفريت شهرة ذائعة بين

أهل قريننا ، فما يكاد يمر بمسكنه أحد في الظلام إلا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وجعل يتلو آية الكرسي بلسان يلجلجه الخوف ، ولم أكن أحفظ آية الكرسي ، فكنت أمر بمسكن العفريت غير مسلح . أكنت أخاف ؟ لا ! لم أكن أخاف . ولكن كنت أحس كأن شيئاً بين جوانحي يريد أن ينخلع من شدة الخفقان ، وكأن ركبتى قد انفصلتا عن سائر جسمى ! وكأن تياراً من الثلج المذاب قد سرى من قمة رأسى إلى أخص قدمى ! وكنت أحسب ديب الفأرة حركة شريرة من حركات العفريت ، وصفير الريح زفرة من زفرات هذا المارد الهائل الجبار . وأغمض عيني كي لا أبصر شبحه الرهيب . وإغمض العين وفتحها في هذا الخلك سواء ، ثم أسرع الخطو المضطرب طلباً للنجاة . حتى إذا بلغت « الدوار » في نهاية الحنة وسألنى أبى « أجئت وحدك ؟ » أجبت « نعم » ! — ألم تخف ؟ — « وهل مثلى يعرف الخوف يا أبتاه ! »

ولو أن أزقة القرية وشوارعها كانت مضاعة ، وصدقنى ، ليست نفقات ذلك بالشئ الكثير ، فدرهمات معدودة يبذلها كل بيت كافية لمحو هذه التعاسة التى تخيم على القرية المصرية وأهلها كلما غاب القمر ، لو أنها كانت مضاعة لما اصطدم المرء بأخيه ، ولا غاصت الأقدام فى الأرواث ، ولا داخلنى أنا وسائر غلمان القرية الأغرار كل هذا الروع من عفريت لا يخلقه فى أوهام الناس غير أهوال الظلام . وإذن لما وجدت بذور الخور الذى يحدثه الخوف فى الصغر إلى قلوبنا الخالية سبيلاً ، وإذن لكنت القرية المصرية بالليل شبيهة بالمساكن « لابلدافن » — جديرة بالقرن العشرين .

ماذا يشربون

إنهم يشربون كسائر الأحياء . لكنهم لا يشربون ماء ولا يشربون « شايًا » ولا يشربون نبيذا ولا جعة ولا « وسكى » إذن فماذا يشربون ؟ يشربون طينًا مذابا في ماء ! أولئك هم أهل القرى في مصر .

لا تقل أنى مبالغ . ولن تقولها إلا إذا كنت من أهل المدائن ، ولم تطوح بك الطوايح إلى قرية أو ضيعة من قرى الريف وضياعه . ولا نكاد نصدق أن بين أبناء المدن أحداً لم تدعه بعض الدواعى إلى مفارقة الحضارة وأسبابها والنزول ضيفاً على بعض سكان القرى . ولا بد أن يكون قد جاع فأكل ، أو عطش على الأقل فشرب أو حاول أن يشرب .

أما الطعام فهنىء مرىء ، لولا أنه مشبع بالدسم أحياناً إلى حد قد يخشى معه سوء الإساعة والهضم . لكن الشراب ! لن تسميه ماء ، فعهذك أيها الحضري بالماء أنه مادة شفافة لا لون لها . أما ذلك الذى يقدم إليك فى القرية فليس من الشفافة فى شىء . بل هو مادة طينية اللون بين الحمراء والسوداء ولا سيما أيام الفيضان .

لكن يجب أن نكون منصفين . قد نرى فى بعض بيوت الريف ماء . ذلك أن قليلاً — قليلاً جداً من وجوه أهل القرى أو المترفين منهم ، يذهبون إلى ما يذهب إليه أهل المدن من أن العطشان إذا أراد أن يشرب فليشرب ماء صرفاً ، لا طيناً مائياً ولا ماء طينياً . فى بيوت هؤلاء قد تصادف الماء فتروى ظمأك من غير أن تجيش نفسك ، أو تأخذك الحيرة فى أمر ذلك السائل الخفيف .

فإذا استثنينا هذا النزر اليسير الذى « يقطر » ماء النيل قبل أن يشربه ، أو يجد فى ذلك مشقة فيشرب من ماء العيون والآبار ، استطعنا أن نحكم بأن أهل القرى المصرية ، وهم سواد الأمة الأعظم ، يرتوون من ذلك الخليط العجيب من ماء وطن . والعلم قد وصل إلى نتيجتين مختلفتين فى أمر ذلك المزيج : إحداهما أنه ينفع

الأرض التي يرونها نفعاً عظيماً ، ذلك أن الطين الشائع فيه يغذيها فيزكو زرعها .
ويزداد نماء وإثماراً . والثانية هي أن ذلك المزيج يؤذى الإنسان الذي يشربه أبلغ
الأذى : ذلك بأن هذا الطين عينه بيئة صالحة لمختلف الجراثيم ، ثم هو مادة قابلة
للتحجر ، فإذا تحجرت في بعض الأوعية البدنية ، فياويل صاحبها من الآلام وياويله
من مدية الجراح .

إذن للأرض أن ترتوى بذلك المزيج ، ولكن ما بالناس نجعله رياءً للآدميين !
هب كثيراً منهم سُدجاً لا يدركون أذاه — فهلا تحس الحكومة شيئاً من
وخز الضمير ؟

معركة الوجدان

قال شوبنهاور — « ليس في استطاعة إنسان أن يكون على اتفاق تام مع أحد
سوى نفسه » .

ونحن نقول بل الاتفاق التام قل أن يستطاع حتى بين المرء ونفسه ، أعنى
بين نفسه الطامحة إلى المثل الأعلى ونفسه الخائرة إلى المثل الأدنى . وههنا يكون النضال
بين النفسين ، أو إذا شئت ، بين القوتين . ذلك هو سر ارتقاء الفرد أو الجماعة طوراً
بعد طور . فإذا علوت نحو الكمال الذي تنشده — درجة ، بدت لك فوقها درجة
أخرى هي أسمى وأرقى .

وكذلك يستمر الجهاد النفسى طوال الحياة . لأن مثلك الأعلى يزداد سمواً
كلما سموت أنت . كطيف جميل شديد الاغراء ، كلما دنوت منه تناءى كالداعب
وهو يدعوك إلى اللحاق ، فتسعى إليه ، وما تزالان على هذه الحال يزداد بعداً وتزداد
سعيًا ، أو يزداد تحليقاً وتزداد في أثره علواً ، فلا تدركه ولكنك تسمو بسمو مثلك
الذى تبتغيه .

الشاعرية والارتاث

لقيت أحد الأصدقاء منذ يومين ، وكان حائل اللون كاسف البال كالمحزون ، فلما استقر بنا الجلوس أقبلت عليه أسأله : ما خطبه ؟ وما بلبله التي ارتسمت آثارها في محياه ؟ وصديقي هذا على جانب عظيم من الفطنة والعلم والتجربة ، فهو قادر على تحليل عواطفه ، يدرك مواطن الضعف منها ومواطن القوة ، وهو في أكثر الأحيان شديد الاعتداد برأيه إلى حد قد تظنه زهواً وما هو بالزهو ، لكنه الإيمان بالنفس . لكنه في هذه الساعة كان أقرب إلى حالة البث والشكوى ، منه إلى حالة القوة التي تبدو في صوته ولهجته حين يقارع الحجة بالحجة ، مستمسكاً بمذهبه ، في شيء طفيف مباح من التهمك برأى مجادله .

حالته الآن حالة بث وشكوى ، فلما سألته مابه أجاب : —

« بي ضعف مصدره شدة الحساسية : ولى مخاوف عجيبة لا تعرض لكل الناس ولى مشاعر يؤذيها مالا يؤذى الناس .

« أنا سعيد بصحتي سعيد بهناءة بيتي ، غير أنه صفو يكدره التفكير في حلول الأجل . أنا سعيد بالحاضر ، وأكاد أكون شقياً بالتفكير في انقضاء الحاضر . فأنا من إشفاقى على عهد السعادة في شبه شقاء . هذه بعض مخاوفى التي كثيراً ما تفسد على هنائى . فإذا أردت مثلاً أضربه (الحساسية) مشاعرى فهناك المثل :

« مرضت حين كنت يافعاً لم تزد سننى على الرابعة عشر ، فرأى لى الأطباء أن أقيم بمدينة حلوان ، وجعل والدى يبحث لى عن جناح منزل أسكنه . فاهتدينا إلى جناح مؤثث ، دخلت أتفقده فإذا أسرة ومقاعد وبسط ومرايا (وصور فتوغرافية) ولوحات فنية . اثاث أسرة كانت تقطن هذا المكان قبلى ، وترقد على هذا الفراش ، وتجلس على هذه الكراسى ، وتنظر فى هذه المرايا ! كدت أذرف الدموع . كيف هان على

أصحاب هذا الأثاث الذين عاشروه وعاشرهم سنين طويلاً أن يتركوه للغرباء . قسوة وجفاء ! إن لهذا الأثاث حرمة يجب أن ترعى » .

« فراشى ! كم من سويعات سعيدة قضيتها فيه ! وكم من آلام مبرحة لم يخففها عني سواه ! هو مهر بي من متاعب يومى ، وملاذئ حين تشدد على قاصمات الظهر من مكاره الحياة ! كم من آمال حلوة سعدت بها فيه ، وكم من خواطر لذيدة خطرت لى بين طياته ! كم ضمنى فراشى إلى صدره حين ضاقت بى صدور الناس ! وكم أراحنى حين أتعبونى ، وكم نهضت منه قوياً نشيطاً بعد أن ارتيمت فى أحضانه ضعيفاً منهوكاً . فراشى . ما أحلاها من كلمة ! كم تثير من ذكريات يخفق لها الفؤاد ! فراشى أصدق أصدقائى وأخلص أحبائى . هو أبداً فى انتظارى يحنو علىّ ويتلطف بى ويرفقه عني ، ويتقبلنى على ما بى من علة قد يهجرنى خشية عدواها الاخلاء ! فراشى ! إن نفسى لا تطاوعنى إلى بيعه أو إيجاره ولو أبدلوني منه زنته ذهباً . فراشى العزيز ! .

« كذلك شعورى نحو مكتبى ونحو مرأتى ونحو الكرسى ونحو البساط ! كلها عاشرنى فأحسن عشرتى ، وخدمنى فأحسن خدمتى ! وليس من الوفاء بيعها أو إباحتها غيرى فى سبيل المال . إنها شاطرتنى حياتى ولا بست أحزانى ومسرأتى ، فهى عزيزة عندى عزة الولد والأخ والصديق .

« راعتنى قسوة أصحاب هذه الأسرة وهذه الكراسى وهذا الأثاث . ولم أبح لنفسى الإقدام على استخدامها بعد عشرينها الأول ، إكراماً لحرمة هذه الآثار الأدمية المقدسة . ثم أضاف صديقى : « ويخيل إلى أن أجدادنا الفراعنة لم يكونوا يدفنون مع المتوفى أمتعة شخصه إلا إدراكاً لهذا المعنى ، وإجلالاً لهذه العاطفة ! فلا غرابة أن يكون جدنا (توت عنخ أمون) قد غضبت روحه من إقدام أهل الدنيا على نبش قبره ونقل أثاثه . »

هذا ما بثنى صديقى متوجعاً محزوناً ، فلم أجد لى ما أقوله على سبيل النصيح سوى كلمة حضرتنى قالها (تليران) « رقة الشعور إلى حد الإفراط مدعاة إلى الشقاء ، وبلادة الشعور إلى حد الإفراط مدعاة إلى الإجرام ! . »

(١) مآئنا

في الساعة الثالثة بعد منتصف الليلة الماضية ، فزع سكان الحى فرعة يقصر دونها الوصف — فالأطفال هبوا من رقاهم ذاهلين كمن به مس . والنساء هبن فرعات يحسبن حريقاً هائلاً قد امتدت نيرانه إليهن من حيث لا يشعرون . والرجال خفوا من مضاجعهم يتساءلون عن الخطب المفاجيء ؟ و بعد هنيهة عادوا إلى مضاجعهم يسخطون من عادات ممقوتة ليس لها شبيه في بلد متمدن .

مريض طال عليه المرض وأدركه الأجل المحتوم في تلك الساعة ، فكان ما يكون في ديارنا عند كل وفاة من تصويت يمزق الأعصاب ويخلع القلوب ، دون أن يراعى أهل « المرحوم » حرمة الموت وجلاله ، ودون أن يذكروا أن الجيران في مثل تلك الساعة نيام ، وفيهم الطفل الرضيع والشيخ الضعيف والمريض العانى — وقد يكون شفاؤه رهناً بالطمأنينة والسكون !

وما كانت هذه الأصوات المنكرة ، دليلاً ولا شبه دليل على أن الفقيد عزيز يشق فراقه على أهله . إذ الحزن احساس فى النفس أو دموع فى المآقى ، وليس تقطيعاً للحناجر ولا لدمال للصدور ولا شقاً للجيوب . والحزن عاطفة رقيقة خافتة الصوت مهيضة الجناح أبعد ما تكون عن ثورة البراكين وهدير العود . لكن يبدو أننا مولعون بالجلبة والضوضاء حتى فى مواطن الشعور والوجدان .

نريد أن نعلن حزننا للناس جميعاً ، وأن لم يشاطرونا الأحران ! بل نريد أن نشرك الملاء فى همومنا وإن كان لكل إنسان نصيبه من المتاعب والهموم . إذا قام ماتم فى دار أبى أهلها إلا أن يجعلوا كل دار فى الحى شريكة فى المآثم ، بما يرفعون به عقائرهم إلى عنان السماء من عويل أصيل ومجلوب : نقول « ومجلوب » لأن النائحة الشكلى لا تكتفى بنواحها ونواح الحميات من قريبات وصديقات ، بل تستعين بالنائحة المستأجرة . وكلنا يعلم أن فى مصر صناعة رائجة فى المدن والأقاليم هى صناعة

« النادبات . . » نساء قد اتخذن إثارة الشجون واستدرار الدموع مهنة ومرزقا .
ونحن نجد — كسائر الناس — موت عزيز من الأهل أو الأصدقاء مبعثا للأسى
واللوعة . لكن الذى نستعجبه ويستعجبه كل بيت مهذب فى عصرنا هذا — هو أن
تستعين النساء الحزينات بنادبة لا تشاطرن حزنهن إلا تكلفا وتجارة ، فيتخذنها
عونا على ذكر الفقيد وتعيد مناقبه ، فى كلمات محفوظة تترنم بها فى صوت يتهدج
بالعاطفة الكاذبة ، وهن يتبعن كل وقف من ترانيمها بصرخات مزعجة ، يصوت بها
النساء فى وقت معا ، فما أقبح وما أرذل ! . ذلك إلى لطم الخدود وتسويد الأيدي
والوجوه أحيانا ، وتجليل الرؤوس بالتراب والطين إذا جل المصاب . فإذا رأيتهن قائمات
يدرن فى حلقة يضربن الوجوه المملخة بأيد ملطخة ، والنادبات يبنهن يضربن بدفوف
يسمينها « الطار » ، إذا رأيتهن على هذه الحال لم تقل نساء ، ولم تقل من أمة متحضرة
أو شبيهة بالمتحضرة — فضلا عن أن تكون حفيدة أعظم الحضارات .

ولو أن هذه الشناعات كانت مقصورة على أفنية البيوت أو محبوسة فى مضائق
الأزقة لكان الخطب شيئا . لكن ما بالك ونساء بعض الطبقات فى مصر يشيعن الجنائز
على هذه الصورة النكراء ، فلا يراها نزلاء مصر والعابرون بها إلا سجلوها على أمتنا
عارأ تندى منه الجباه !

ثم لا تنس أولئك الرجال الغلاظ الأشداء الذين اتخذوا الإنشاد السخيف
المرذول أمام الجنائز ، صناعة أولئك الذين هم من الرجال كالنادبات من النساء :
« جيناكم يا سيادى — يا سيادى جيناكم ! »

الحق أن كثيرا من ماتنا منكر تضج منه آداب الدين والدنيا معا .

الوطنية الفاضلة

إذا كانت سلامة القلب وطهارة النية من فضائل النفس التي لا بد منها لكل من يعمل في ميدان الحياة؛ إذا كان التاجر لا ينجح نجاحاً شريفاً حتى يتصف بشريف الخلال؛ إذا كان الصانع لا يحسن خدمة الجماعة بما يقدم إليها من نتائج صنعه، إلا إذا أخلص لهذه الجماعة واستشعر حبها، ثم جعل جهوده رمزاً إلى حبه وإخلاصه؛ إذا كانت محاسن الشعور الباطن شرطاً لمحاسن العمل البارز؛ إذا كانت نبضات قلبك وخطرات نفسك مصدر كل لفظ تفتقر عنه شفتاك، وكل سعي تحت فيه خطاك، فإن شراً فشر، وإن خيراً فخير. فإن خدمة وطنك عن طريق السياسة لا تستغنى عن سلامة القلب وطهارة النية بحال.

وليس من سلامة القلب ولا طهارة النية، أن تحب الوطن وتكره فريقاً من بنيه انقياداً لهواك، أو طواعية لهوى سواك، فحب الوطن ليس معناه مجرد حب الدور والقصور، أو حب الزرع والضرع، أو حب الماضي المجيد أو حب المستقبل السعيد. نعم أنت تحب هذا كله. ولكن عليك واجب آخر هو أن لا تنسى أن حب الوطن، معناه قبل كل شيء — حب المواطنين، فهم الذين بهم ولهم تعمز الديار، وتشاد القصور، وبهم ولهم يحيا الزرع والضرع، وفيهم وبهم تتزاوج ذكريات الماضي وآمال المستقبل من أعزّ الوطن حقاً أعزّ أبناء الوطن. ومن أعزّ أبناء الوطن، صن بهم جميعاً فلا يرمى أحداً منهم بسوء، ولا يأخذه بريية، ولا يناديه بلقب، حتى يستيقن أنه لا يتهم بريئاً ولا يثلب كريماً. ذلك بأن النفس المصرية التي قد يعيها المصري في غير عيب، ويشوبها في غير شائبة، نفس ثمينة غالية، لا ينبغي إرخاها بالحكم عليها من غير دليل سوى الظن، ولا مبرر سوى الانقياد لهواك، أو الطاعة العمياء لهوى سواك.

ليس هذا من حب الوطن في قليل ولا كثير. إن الزارع الذي يحب زرعه،

ليحرص على كل سنبله وعلى كل حبة من سنبله ، إعزازاً لثمار جهاده ، وتقديساً للنعمة
المباركة التي أنعم الله بها عليه . هذا هو الزارع المخلص لعمله حقاً . فهل ترى محب مصر
يرخص أخاه المصري مالا يرخص محب الحقل برة أو سنبله !
إن البستاني أو الزارع ليألم حين تزعم أن شجره أوزرعه مؤوف ، ولا آفة فيه ،
فهل أبناء وطنك أهون عليك من الشجرة أو الثمرة على صاحب البستان .
لقد تسب نفسك حين تسب مواطنك ، وتهدم نفسك حين تهدمه .
أيها المصري الكريم ، أعزز إخوتك في المصرية كما تعزز إخوتك لأمك وأبيك ،
ولا تغمز وطنية أحد منهم إلا أن تأتي بأية قاطعة وبرهان مبين .

باتاويه

هذه كلمة الاستغاثة ، يستنجد بها المستضعف من الناس حين ينقض عليه بعض المعتدين ، أو حين يسطو بعض اللصوص بامرأة مسكينة يسلبها متاعها في جنح الليل والناس نيام ، وعلى الجملة ، حين تعتدى القوة على الضعف بطريقة ما من طرق العدوان . لكن الشاويش غائب . إذن نبحت عنه . نعدو ههنا وههنا مسائلين المارة في لهف : ألم يصادف أحدكم رجلا من رجال الشرطة ، فإن بعض الأشرار يفتك ببعض الأخيار ، في ناحية من ميدان الأوبرا ، والجمهور حولها يتفرج ، ولا يعرض للمعتدى الأثيم بسوء . وبعد جهد جهيد وتعب شديد ، تعثر برجل البوليس يمشى الهوينى مفكك الأوصال كأن قنطاراً من الأحجار الثقيل عالق برجليه ، وعيناه متجهتان إلى السماء زهادة في شؤون الأرض ، أو متجهتان إلى الأرض يحرق بهما في حذائه كأنه امرأة يجتلي فيها حسن طلعتة . فإذا نظر أمامه فإلى بائع الخيار والقثاء وإلى بائع البرتقال أو الشمس — ينظر إلى عربة ذلك البائع المتجول وما تحمل من فاكهة الصيف أو الشتاء ، فيتحلب منه اللعاب ، ويتدفق بالصياح والسباب « امشى ياراجل متجفش جولت لك يا ابن ال . . . »

— « إحنا عملنا إيه ما احنا ما شيين . زرمح يا شويش ؟ »

— « كان جليل الحيا . إمشى جدامى على التمن كلمة واحدة . والله ما اعتجك »

— « اتفضل . . تمن تمن . . . يعنى حيودونا المشنأة . بس من فضلك تمشى

من الحارة دى يا حضرة » .

وما هى إلا لحظات قصيرة حتى يخرج رجل الشرطة في وقار وسكينة من هذا الزقاق ، تعلو محياه علامات الاغتياب والرضا ، فتتنظر إلى يمناه فماذا ترى ؟ منديلا واسع المساحة أحمر اللون فيه نقوش بيض وصفر وفيه برتقال أو مشمش أو قثاء ، فإذا سألتها ما هذا ؟ أجابك مزهواً : « حبتين فاكهة للعيال ، لكن الرجل دامغلوانى جوى ! »

— « ما علينا يا جاويز . من فضلك تعال معي . ففي ميدان الأوبرا رجل شرير كسّر أحد الناس هناك تكسيرا » .

يحار الشرطي هنيهة ، ويلعن صناعة البوليس وما فيها من مشكلات ، ثم ينادى أحد منظفي الأحذية فينهره قليلا : لماذا يتخذ هذه المهنة من غير رخصة ، حتى يخيّل إليك أنه سيقبض عليه لا محالة ، ولكنه يُسلمه المنديل ، ويأمره بانتظاره مع — الأمانة — حتى يعود ، « وأنجلك مسحة والا اتنين معلّش ، ولكن بكره إن شفتك هنا حتما من التمن سامع يا جربوع ! »

— « سامع يا حضرة الشويش ربنا يخليك . البركة فيك » .

وفي النهاية ، يمضي معك الشرطي متمملا ضجراً ، وكأنه يريد أن يسألك ما شأنك أنت ؟ وما هذا التصدي لما لا يعنيك ! لكنه يخشى أن تكون متصلا بحضرة المعاون أو حضرة البك المأمور ، لا سيما عليك سيما الوجاهة من حسن هندام وعبوس وقلة كلام . يتبعك إذن في كراهة وجنوح إلى الإحجام ، حتى يصل إلى حيث كانت المعركة ، فلا تجدان سوى دم تخضبت به الأرض ، يحيط به نفر من الحوزية وغللمان الشوارع .

هناك يُنحّي الشرطي أولئك النظارة عن الدم العبيط المسفوح ، ويسألهم في شدة وعنف . . « أين المعتدي والمعتدى عليه . . هذا دم أيها الناس . إذن وقعت هنا جناية فأين الجاني أيها المتفرجون وأين المجنى عليه ؟ »

فيتطوع أحدهم بإجابة حضرة الشاويش بأن المجنى عليه قد حملته نقالة الإسعاف إلى المستشفى في حالة خطرة يرثى لها ، وبأن الجاني قد فر .

— « مش عيب عليكم تبجوا رجاله كدا تخان وعراض ، وتخلوه يفر من أيديكم » .

ثم يلتفت حضرته إليك ويخاطبك عابثاً « وجنابك ياسيدنا الإفندي تجي لي بعد المجرم ابن ... ما مَوْت الراجل ، دا يصح ! »

— « إسمع يا شاويش على ، لست لمثلّي تقول هذا اللغو ، إني أعرفك من حيث لا تعرفني ، تفضل فاقرأ هذه الورقة ، ولعلك تستطيع القراءة . أرايت ما فيها ؟ أعلمت

الآن أنتى « مراقب » لكم من قِبَلِ المحافظة ، قبلت هذا العمل احتساباً لوجه مصر
الكريم . إن رجال الشرطة من أمثالك يا حضرة الشاويش خزى لمصر وعار عليها .
إن أمثالك من رجال الأمن أخحوكة قاسية وقد جعلوا أمتهم كذلك أخحوكة . إنك أنت
مكنت الجانى من الفرار بمنديك الذى أضعت ربع ساعة فى حشوه بما سلبت . وأضعت
دقائق أخرى فى محاورة منطف الأحمية الذى لا رخصة بيده ، مراوحاً له بين الوعد
والوعيد ، ليؤدى إليك ماتسميه — أمانة — وماهى إلا سلب ومهانة . وبعد فراغك
يا حضرة الشاويش من هذه الدنئات ، كنت أشد ما تكون بغضاً لإسعاف ذلك
المسكين ، الذى يصرخ ما ترى من دمه . والشرطى القائم بحراسة الأمن فى هذا المكان
مهمل وجبان . تفضل فسر أمانى إلى المحافظة ، وهأنذا أقبض عليك . لا بد من إصلاح
الشرطة فى مصر . أما هذه الحال ففضيحة وعار ! تفضل ! »
مرحى لهذا المراقب الجديد ، لو صح أنه موجود !

الصفائر المزعجة

هبك أيها القارىء العزيز لا تسكن قصر الدوبارة ولا جاردن سيتى ، ولا حياً غربى النظام والآداب كقصر الدوبارة أو جاردن سيتى .

هبك تسكن « بيرالمش » أو « قنطرة الذى كفر » أو « كفر الزغارى » أو « سوق السلاح » أو زقاقاً آخر من أزقة القاهرة ، أو شارعاً وطنياً من شوارعها . فهل تستطيع النوم فى طرفى الليل ، أو الاستراحة والهدوء عصر النهار ؟ كلا . ما لم تكن من مواليد تلك الأصقاع الذين درجوا فيها وشبوا وشابوا ، وإليك بعض البيان : نفترض أنك من أولئك الذين لا يحبون السهر ، وأنك تؤثر الهجوع فى الساعة التاسعة من المساء ، وأنك الآن فى مضجعك لأن الساعة التاسعة قد حانت .

« طازه يا لبن » صوت ضخم ممتد من حنجرة قوية ، لا يزال يلح على سمعك وأعصابك حتى يؤذيها أبلغ الأذى ، وقد تكون ممن لا يشتهون لبن « الزبادى » أو ممن يشتهونه ، ولكنك ملأت منه جوعتك وقت العشاء حتى لا موضع لمزيد ، فيقع منك هذا النداء موقعاً مؤرقاً ألماً .

يمضى بأفع اللبى فتحمد الله وتغمض العين وتأخذك إغفاءة لذيذة ، لكنك تستيقظ بعد قليل على وقع صوت جديد حاد ، ينال من الأذن مالا تنال المسامير . « سميط طازة » ويمضى بأفع « السميط الطازة » بعد أن تكون سخطت فى فراشك سخطاً شديداً يقع أذاه عليك وحدك ، لأن شدة السخط مجلبة للأرق . وكذلك شأن كل ما يهيج الدم فيصعد به إلى رأسك المسكين .

لكنك تنام على أية حال بعد ساعة أو نصف ، فتربى فيما يرى النائم أنك مررت بأحد الشوارع فلقيت بأعين ، أحدهما يحمل فوق رأسه لبن « زبادى » والآخر يحمل سلة فيها « سميط طازة » فتتنقض على هذا تلكمه وعلى الآخر تلطمه . لكنك تستيقظ

ممسكا إحدى يديك بالأخرى من شدة الألم ، لأنها أصابت قائمة السرير ولم تصب هذا البائع ولا ذاك .

تزداد حنقا وسخطا فتزداد أرقا ، وتسمع ساعة الحائط تدق الدقة الثانية عشرة فيأخذك شيء من اليأس ، ولكنك تعلل النفس بإمكان النوم من جديد . فتغمض العين مرة أخرى متوكلا على الله .

لا تسمع دقة الساعة الأولى من الصباح ، لأنك تستغرق في النوم قبلها بقليل ، لكن ماذا نقول في بائع « السجائر » إنه معذور ! خشى أن يكون الشيطان قد أنساك شراء اللقائف التي لا بد لك من تدخين بعضها في الصباح بعد الإفطار . فهو إذن يوقظك من نومك رغم أنفك لمصلحتك أنت ، إذ يرفع عقيرته في جوف الليل الهادىء مناديا « سجائر ديمترينو — ما توسيان — من كل ماركة » .

الساعة الثانية بعد منتصف الليل — طار طائر النوم ولن يعود — تغمض عينيك ، وتقلب في الفراش ، تعالج الرقاد على جنبك الأيسر ، وتعالجه على جنبك الأيمن ، وتستلقي على ظهرك ، ثم على صدرك ، وتخبأ وجهك بين الوسائد — مستحيل طار طائر النوم ولن يعود .

الساعة الثالثة ! بدأ المسبحون في الطرقات القاصدون إلى المساجد لصلاة الفجر يرفعون العقائر بترتيل آيات الذكر الحكيم ، ولولا أنك منهوك القوى معقود اللسان . — لا مؤاخذه — من عذاب ليلتك ، لعبدت الله أنت أيضاً ولو في فراشك ، لا سيما وأنت تسمع صوت المؤذن ينادى « الصلاة خير من النوم » مسكين ! كأنك نمت !

الساعة الرابعة من الصباح ! ما زلت في فراشك متبرماً خجراً تود لو اكتحلت عينك بالنعاس ولو إلى الساعة السابعة . لكن أنى لك هذا ؟ إن زلازل العربات « الكارو » قد بدأت ترج أركان غرفتك وتصدع — لا مؤاخذه — أركان رأسك الملهب . وناهيك بعربات نقل الأحجار . ثم تمضى الساعة الخامسة وأنت هكذا ضائق بنفسك وبالحياة ذرعاً ، إلى أن تسمع حوالى الساعة السادسة امرأة تنادى

« ياللى عندها نخالة » ؟ تمضى تاجرة « النخالة » ويعقبها مناد جهير الصوت يطيل المد والتغنى « غلة للوابور » — يمضى موفد « الوابور » فيتلوه ذلك الصوت الرنان « سبىرتو » — ثم « الجاز الأمريكانى » — ثم « رشيدى ياملح » — ثم ينفذ صبرك بحق قتهب من سريرك فى الساعة السابعة وبينك وبين « أولئك السيطة » ثأر لن تدركه ويالأسف أبداً .

أصبحت بالطبع مضطرب الأعصاب يزعجك وقع قبقاب الخادمة على سلم البيت ، ويزعجك من يقول لك « نهارك سعيد » لا سيما ولم تكن ليلتك سعيدة ، فأصبح من الراجح بحكم أعصابك ألا تقضى نهراً غاية فى السعادة .

تتناول شيئاً من « الفول المدمس » — لا مؤاخذه — إن كنت من عشاقه ، أو أى لون آخر مما يطيب لك ، ولكن شهيتك هذا الصباح ضعيفة . ما علينا . تلبس « بدلتك » وتصلح من شأنك وإن دلتك المرأة على أن يحياك اليوم حائل اللون بعض الشيء ، ولكنك ترجو أن يعود إليك إشراقك ونشاطك إذا فررت من هذا السجن المزعج ، إلى الهواء الطلق خارج المدينة ، فإن اليوم يوم جمعة ولن تذهب إلى « الديوان » .

تفادر البيت وفى نيتك أن تعترض من عبوس ليلتك بابتسام نهارك . بل تذهب إلى حد الغناء لنفسك همساً ، أو بعبارة أوضح تتكلف « الدندنة » لكن لا يخطر ببالك ، لسوء الحظ ، أغنية سوى قول الشاعر « لم يطل ليلى ولكن لم أنم » فتذكر الليل وتذكر النوم وتذكر الأرق ، وتضرب الأرض بقدمك من شدة الغيظ ، ثم تستأنف المسير حتى تبلغ « باب الخلق » فتركب الترام قاصداً إلى « روض الفرج » وإنما تختار هذه الضاحية تفاؤلاً باسمها ، عسى أن يفرج الله عنك ما بك . تدخل عربة الدرجة الأولى فتجد فيها ستة من الركاب قد اختص كل ثلاثة منهم بجانب ، فتنتظر أن يفسح لك بعضهم مكاناً ، لأن العربة جعلت لثمانية ، فلا يتحرك « البكوات » ولا يستحون ، وأنت متعب ، ولو أطاعت يدك ما تشريك إليه أعصابك ، لامتدت إلى وجه بعضهم بسوء ، ويكون لك بعض العذر ! غير أنك تملك غضبك وتسألهم : هل أستطيع

الجلوس؟ فيترحزح أحدهم قليلا في تثاقل مرذول، كأنك تسلبه مكاناً في سيارة أييه.
وأخيراً تجلس. وأصحابنا ينظرون إليك شزراً كأن عيونهم سهام. كل ذلك
لأنك تقاضيتهم حقاً وكلفتهم في سبيله حركة. وما أكثر الذين يضمنون بحقوق الناس
ولو كانت يسيرة، ويبغضون أن يتكفوا في سبيلها حركة ولو كانت هينة.

ثم لا تستقر في مكانك حتى يصعد سلم الترام رجل بادن يسد بجسمه الضخم
باب العرب، ويحجب عنك الهواء الذي نزلت في طلبه. ثم هو لا يجلس ولا يزول،
حتى يجيء العامل فيسأله ثمن التذكرة، فيجيبه في عنف من يريد المعراك « نازل
في المحطة الثانية ».

العامل: « ولو — لا بد من ثمن التذكرة ».

المتطفل: « مفيش! » ثم يصفر العامل فيقف الترام. وما هي إلا لحظة حتى
يمسك كلا الرجلين بتلابيب الآخر، وبعد زمن غير قصير يصل الشرطى، فينزل
المتطفل وهو يسب الترام وأصحاب الترام وركاب الترام، فتختنق أنفاسك من هذا
البلاء المتواصل، وتزهّد في « روض الفرج » — وتتراخى منهوك القوى على أول مقعد
في أول مقهى يصادفك! ... مسكين!

(١) البرطانه المأمول

مواطن الألم في بلادنا كثيرة . أدر ناظريك حيث شئت ، فهل ترى إلا متبرماً ضجراً ؟ لماذا ؟ لأن المصريين طال عليهم عهد من الحكم هو إلى القلق والفوضى أدنى منه إلى الطمأنينة والنظام .

كان طالب العلم فيما مضى موفور النشاط ، عاكفاً على الدرس والتحصيل ، حتى إذا انفسحت له ميادين الحياة بعد تمام الدراسة ، وكان به نزوع إلى الأعمال العامة ، ولج أبوابها مستكمل العدة ، فإذا هو رجل ناضج في عداد الرجال .

أما اليوم فشأن الطلاب غير هذا ، وعذرهم واضح . فإن الرجة العنيفة التي أصابت مصر على أثر إعلان الحرب الكبرى (سنة ١٩١٤) لم تدع قلباً مصرياً إلا تركت فيه أثراً عميقاً . فالنساء في الخدور ، والشيوخ على أبواب الآخرة ، والشباب في المدارس وفي غير المدارس ، وفي أكبر المدن وفي أصغر القرى ، كل أولئك قد شملهم تيار عنيف من كهرباء الهزة القومية ، لم تدع الطالب طالباً فحسب ، ولا المعلم معلماً فحسب ، ولا الموظف موظفاً فحسب ، بل أصبح كل مصري مهما تكن سنه ومهما تكن صناعته ذا قلبين ، أحدهما متجه إلى السياسة ، والآخر متجه إلى عمله .

ولسنا نستنكر من أبناء مصر المشتغلين بمختلف الصناعات والمهن عنايتهم بالمسألة السياسية الكبرى . وإنما نقرر أن الاشتغال بالسياسة غلاب على الاشتغال بغيره من الشؤون ، حتى لتجد هذه الظاهرة بارزة في عهدنا الحاضر بين الطلاب . وفي هذا بالطبع استنفاد لحيوية الفكر ، التي لولا شدوذ موقفنا السياسي لانصرفت إلى وجوها الملائمة لعهد الصبا من تحصيل المعارف وتكوين الأخلاق . وإذن لأصبح النشء المصري بعد حين ، جيل مصر المتأهب للحياة القادر على احتمال عبئها في غير عجز ولا قصور . والمعلم إذا ألقي تلاميذه منصرفين عن الدرس غير جادين فيه ، أورثه ذلك بعض السامة واليأس ، فلا يلبث أن يلقي عليهم « المقرر » في شيء من التكلف قد يطول

به العهد ، فيصير عادة وخيمة العواقب . والفرق شاسع بين المعلم إذا أقبل عليه تلاميذه يستقون من مورده في حرص وشغف ، وبينه حين يجرعهم تجرعاً وهم عنه في شغل شاغل .

هذا شأن كثير من طلاب العلم في مصر اليوم ، وشأن كثير من المعلمين . لكن الزارع والتاجر لهما شكاة أخرى من غير هذا الطراز . يشكون كساد الحاصلات وخمود الأسواق ، ويعزوان ذلك إلى إهمال ولاية الأمور وقلة حرصهم على مرافق البلاد . والحق إن الحكومات المصرية لم تظهر يوماً من الأيام عناية صادقة بحماية الحاصلات ولا بتشجيع التجارة أو الصناعة .

وأول جهد في هذا السبيل إنما هو المبلغ الذي دفعته وزارة المالية إلى بنك مصر يتولى توزيعه قروضاً على أصحاب الصناعات الناشئة . فأما تأليف النقابات المنظمة الثابتة ، وأما حماية الحاصلات من ذوى المطامع والجشع من تجار الصادرات ، وأما تسهيل القروض الصغيرة على الفلاح المسكين بفائدة قليلة معقولة — فذلك ما لم تصنع حكومة مصرية في سبيل تحقيقه شيئاً . فلا غرابة أن يكون الزارع والتاجر ، وهما سواد المصريين ، في ضنك شديد .

والموقف السياسى الذى تقفه البلاد ليس مما يسهل معه تذليل هذه العقبات . فإن وزارة مصرية تذهب ووزارة تجيء ، وهما منصرف إلى شيء واحد هو المسألة السياسية الكبرى . وليت الوزارات تنزل في هذه المسائل الكبرى على ما يريده الشعب بل كثيراً ما تتخذ وجهة مناقضة لما يريد .

هذه حال الطالب والمعلم . وحال التاجر والزارع . لكل طبقة من الأمة نوع من الشكوى وسبب إلى القلق .

وفي مسائلنا العامة . هل تولت وزارة مآشئون مصر ، فأرضت الشعب بسياستها إرضاء يحقق آمالاً ؟ كلا ! إنما هي فروق بين درجات التقصير ، لا تنافس في المراتب العليا من الخدمة القومية التى ترضى المصريين ! وإذن ، فما هو الدواء لهذه الأدواء الكثيرة المتشعبة ؟ كيف يكون الطالب طالباً حقاً والمعلم معلماً حقاً ؟ وكيف تتوافر

للزراع والتاجر أسباب الطمأنينة والرفه ؟ وكيف يشق المصريون بحكومتهم فلا تتولى أمور البلاد إلا عن رضاهم ، ولا تصدر إلا عن إرادتهم فيما جلّ وهان من شئون البلاد ؟ كيف تتولى الأمة شؤون الأمة ، وكيف تحسن رعاية مرافقها وتربية بنيتها وترفيه الآلام عن كل طبقة متألمة ؟

هل أنت بحاجة إلى جواب عن هذا السؤال؟

أليس تأليف البرلمان هو وحده دون سواء منقذنا مما نحن فيه ؟ إنه لذلك وأيم الحق — ولكن على شرط — على شرط أن يكون أعضاء البرلمان رجالا قادرين على احتمال العبء بما في رءوسهم من حكمة ، وبما في صدورهم من إخلاص .

فخر النبالة

الانتخابات عند كثير من الناس ميدان تنافس في الوجاهة والنفوذ ، لا ميدان تنافس في الكفاءات والمواهب . يشق على فلان أن يكون واسع الرحاب خصيب الجنب موفور الأموال كثير « الأطيان » — ثم لا يكون عضواً في أكبر هيئة نيابية في البلاد . فإذا أتاح لك القدر أن تحدثه في الشؤون العامة ، ألفتته خلواً من إدراك الأوليات التي لا بد منها لكل نائب يريد أن يكون ذا رأى وصوت في البرلمان . وإذا أمعنت في بحث الدافع الذي يحدو به إلى الدخول في المعركة الانتخابية ، كان دهشه منك فوق دهشك منه . ذلك أنه يرى الانتخابات مباراة يتكافح فيها الوجهاء والأعيان ، كل يحب لنفسه السبق والتبريز ، كالسباق في الحلبة لا أقل ولا أكثر . وليس معقولاً عنده أن تعلن المباراة ثم ينكص على عقبيه . وهل يكون ذلك إلا اعترافاً منه بأن غيره من أهل الإقليم أرجح منه وزناً وأعلى شأنًا ، وأولى بمظاهر الجحد وألقاب الفخار والزهو ؟ والاعتراف بهذه الهزيمة شين لاحق بكرامة البيت العظيم الذي يتولى صاحبنا زعامته ! بيت « أبي فلان » لم يتقدم منه أحد إلى البرلمان ، أو تقدم ولم ينجح ! عار لا يطاق . إذن لا بد لهذا المجد الأثيل من مقعد في البرلمان بجهل أو بعلم ، بحق أو بباطل .

وهل يجوز أن يكون « فلان » أفندى « ابن امبارح » والذي لا يملك ضيعة واسعة ، ولا نعمة ضافية ، ولا يزدان اسمه بقلب ولا صدره بوسام — أيجوز أن يكون هذا الأفندى الذي لا ميزة له سوى أن بيده شهادة يقولون إنها شيء ، أوله إمام بما يسمونه معارف وعلوما ، أيجوز أن يكون هذا عضو البرلمان عن دائرتي أنا — أنا صاحب الألف من الأفدنة الخراجية السلطانية ، أنا صاحب العزة أو السعادة ، أنا صاحب « الدوار » المفتوح لكل طارق ، وصاحب الكبش المذبوح لكل ضيف ، وصاحب الجاه بين جيراني والنفوذ بين أجراءي وعمالي ، — أهذا هو ما يريد منا

العهد الذى يصفونه بالجديد ، والنظام الذى يسميه بعض « المتحذلقين » ديموقراطيا !
ما شاء الله ! لا يا عم ! القديم على قدمه . وإن كان لا بد من التغيير والتبديل فليكن
ذلك بعد دهر مديد وعمر طويل .

لسنا فى تصوير هذه الحالة مسرفين . بل هو الواقع بعينه فى بعض بلاد القطر
وعند بعض أهله ممن أخذوا من المدنية مظاهر كثيرة ، ولكن نفوسهم ما زالت
على حالة شبيهة بالبداوة الأولى . فى بيوتهم الزخارف والرياش ، وطاسات من الذهب
وأسرة من الفضة ، ولكن فى قلوبهم خلاء من المعانى الحديثة التى يفهمها الغربيون
حين يذكر لفظ « البرلمان والانتخابات » — ولا يعرفها أصحابنا حق معرفتها
أو يقدرونها حق قدرها . إنما هى عندهم وسائل إلى الفخر وسبل إلى « الظهور »
كائناً بعد ذلك ما يكون من عجز وتقصير .

على أن الذى يسرنا ويسرك أيها القارئ الكريم ، أن هذا البعض الذى
أشرنا إليه قليل إذا قسناه بالعدد الجم من أهل الفضل والفطنة . وليس كل ذى ثروة
أمياً . ولا كل ذى جاه ومكانة جاهلاً بالشؤون العامة . وأكثر الذين يؤنسون من
أنفسهم عجزاً عن النهوض بأعباء النيابة من أعيان البلاد ، قد يجتنبون المعمة المقبلة ،
وقد يكون لهم من أبنائهم أو قرابتهم أو من أهل بيت آخر نائب ، إن لم يكن من
أغنياء المادة ، فإنه من أغنياء العقول والعواطف والهمم .

من أجل ذلك لا نتطير بل « نتفائل » خيراً . ونعتقد أن مجلسنا النيابى المقبل
لن يكون دون المجالس النيابية الغربية بكثير إن لم يماثلها . ولن تمضى إن شاء الله
إلا أعوام قليلة حتى يضارع جمهورنا جمهور أوروبا معرفة بالشئون القومية . وحتى
يكون أغنيائنا كأغنيائهم وأعياننا كأعيانهم ، دقة فهم للمسائل العامة ، وشدة غيرة
على المصالح العامة .

نحن المصريين : لا نقل عن سوانا من شعوب الغرب ذكاء وحسن استعداد .
فإذا خطت أقدامنا على النهج القويم بضع خطوات ، ألفنا النهج القويم ، واشتد

مضينا فيه ، غير ضالين ولا واهنين ، كالسهم تحسن تصويبه ثم ترمي به الغرض
فتُصميه . كذلك المصريون سيحسنون انتخاب النواب . وسيحسن النواب خدمة
البلاد . وسيصلون إلى ما ينتغون لمصر من حرية مطلقة واستقلال كامل الأركان .
فإذا تمّ لهم ذلك إن شاء الله وشاءت همهم العالية ، لم يكن استتمام استقلالهم
سوى سلم إلى مجد فوقه مجد فوقه مجد .

« العاطفة » المتجربة

هو شاب كريم الطبع ، حلو السمائل ، من أسرة عريقة النسب واسعة الثروة ، عزيزة الجاه . لم يفسد الترف سجاياه على ما يظهر . ليس بنفور من البحث في معضلات المجتمع وأمراضه . ولعُ بقرأة القصص في اللغات الغربية ، يعجبه منها ما كان تصويراً بليغاً للآفات الاجتماعية . ويعجبه من أنواع البطولة القصصية ما كان مداره النجدة والرحمة والإحسان .

كنت أجد لذة عقلية في محادثة هذا الشاب ، وكنت أشعر كأنّ الكامن في نفسي من عاطفة الإشفاق على الإنسانية المعذبة — ينبعث قوياً ملتهباً كلما استمعت إليه وهو يصف أهوال الحرمان الذي تعانيه الطبقات الفقيرة ، وأهوال العلل الجثمانية والخلقية التي يجربها الفقر على أولئك التاعسين . وعلى الجملة ، كان صاحبي يرثي النظم الاجتماعية الحديثة كلما جلست إليه رثاء محزوناً ، تكاد تنحدر له دموعه ودموعى أنا أيضاً . سحرني جمال هذه النفس الرقيقة الحساسة ، وقلت إن في شباب مصر خيراً يرتجى . ولما أن وجد صاحبي منى أذنًا مصغية وعاطفة مشتركة ، ازداد إقبالاً على مصاحبتى وتبسطاً إلىّ .

لكن بقي شيء لم أفهمه من خلائق الفتى . إنه جميل طوايا النفس ، جميل الرغبات ، جميل الأمنى والأحلام — أحلامه لا تدور حول نفسه بل حول الفقراء والمرضى والمساكين . وأكثرهمه الشكوى من تلك الهوة السحيقة التي تباعد بين الأقوياء والضعفاء ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين السعداء والأشقياء . فماذا يمنعه إذن من أن ينتظم في سلك المصلحين لهذه المعايير المداوين لهذه الآفات ؟ فإذا لم تكن في مصر جماعات منظمة من العاملين لهذا الغرض الأسمى ، فلماذا لا يبدأ هو فيتبعه الناس ، أو لماذا لا يقوم هو بنصيبه ولو كان فريداً .

لكن لم تكن صداقتنا بلغت المبلغ الذي تسقط معه الكلفة . ولست أحب الهجوم على الرفاق أسألهم : ما سر تقصيرك في هذا الأمر وما سر تقصيرك في ذاك . لاسيما وصاحبنا مرهف الحس ، فأخشى أن يقع منه سؤالى موقعاً يسوءه .

وفي ذات ليلة لقيته في « سولت » حوالى الساعة التاسعة ، فرجاني إن لم أجد
بأساً أن أرافقه إلى دار من دور الصور المتحركة ، لأشهد معه قطعة عنوانها « الشقاء »
قال إنها مؤثرة تمثل مساوىء المجتمع فتستبكي العيون ، ولم أكن مشوقاً إلى البكاء
من مشاهد السينما لأن بكاءنا — والحمد لله على السراء والضراء — من مشاهد الحياة
متصل لا يكاد ينقطع ، لكنى طاوعته لأنه رقيق وحساس .

وإنما لني بعض الطريق بشارع عماد الدين حيث « العربات » تزحمها السيارات
والسيارات يزحمها « المترو » وحيث الأنوار الساطعة والجموع المائجة ، هذا إلى
الكوزموجراف وذاك إلى « الراديو » وآخر إلى « رمسيس » وغيره إلى الكسار ،
وحيث الملاهي متنافسة على ساق وقدم ، ومشارب الخمر والمقاهى متقابلة في الصفين ،
غاصة بالجلوس في هذا الحى الصاخب بعجيج المبادل والملاهي ، بين ممجوج ومقبول ،
وإذا صرخة تند من غلام لم يبلغ العاشرة ، داسته قدم عابرة ، فأزعجته . وكان المسكين
مستلقياً إلى جنب جدار في ناحية من الطريق إعياءً ووهناً ، غلام عارى البدن إلا من
بقية خرقة بالية . وكان الفصل شتاء وأسنان الغلام تصطك وجسمه يرتعش وعيناه
معان ، فيهما ذلة وفيهما ضراعة ، إلى هذه الدنيا الضاحكة حوله وهويبيكى ، يبكى
من جوعه وعريه وبرد الشتاء وتلج القلوب .

نظرت إلى الغلام ثم إلى صاحبي ، ثم إلى صاحبي ثم إلى الغلام ، وحدثت
في صاحبي مرة ثالثة أريد أن أتبين في وجهه مبلغ تأثير هذا المشهد فيه ، فلم أر شيئاً ،
بل تعججني إلى دار الصور لأشهد معه « رواية الشقاء » !

عجبت ! وحزنت ! ظهر لي في تلك الساعة ما قرره علماء النفس من أن بعض
الطبائع مرزوء بتبخر العواطف الطيبة .

يبكى صاحبنا إذا قرأ رواية فيها تصوير خيالى للشقاء . ويبكى إذا شهد رواية
الشقاء على المسرح أو على الشاشة البيضاء .

لكن الشقاء الحى المائل أمام العيون ، الشقاء الذى ينخر عظام المجتمع المصرى في
عاصمة الديار المصرية وفي أحشد شارع من شوارعها — ذلك لا يحركه ولا يؤثر فيه .
أيها الشباب من أبناء مصر ! من كان منكم ذا عاطفة طيبة فليتخذ منها دافعاً
إلى عمل طيب !

القناعة فضيلة^(١)

إخوان ثلاثة أتموا الدراسة العالية منذ عشر سنين : مهندس رى ، وطبيب مركز ، ومحام فى الأقاليم ، ما زالوا إلى اليوم أصدقاء كما كانوا أيام الدراسة ، وقد جمع الزمان بينهم هذا العام فى مقر واحد . ذلك أن وزارة الأشغال نقلت المهندس إلى حيث يشتغل صاحبه .

فاحتفاء بمقدم صديقهما ، أولم الطبيب والمحامى وليلة عشاء يتخلله ويتلوه شراب ، ورأيا أن أحظى بأنسهم فخطيت ، لأن لى سابق معرفة بأشخاصهم منذ كنا طلابا بالمدارس الثانوية .

فأما الطبيب ففى نعمة واسعة ، لأن الأمراض فى الأقاليم ليست قليلة ، ولأن المعارك التى تنشب بين أهل القرى لأتفه الأسباب ، فتشج فيها الرؤوس وتهشم العظام وتسيل الدماء — ليست نادرة الوقوع ، ولبعض الأطباء سلطان على الجريح والمشجوج والمهشوم ، سلطان يتصل بمدة العلاج طولا وقصراً ؛ والمصاب يحب الإطالة رغبة فى تضخيم الجريمة أمام القضاء !

أما المحامى فكذلك فى رخاء ، لأن الشجة التى يداويها الطبيب ، لا بد أن يتولى المحامى وصف شاعتها للمحكمة ، وإن استطاع أن يجعل منها بساطع برهانه « عاهة مستديمة » فعل ، ثم لا تنس أن الخصومات المدنية من تزوير وتهريب ودين ممطول ، وحجز يعقبه استرداد ، واسترداد يتلوه حجز — كل هذه لا تقل فى الأقاليم انتشاراً عن الأمراض المتوطنة ، فإن كان الطبيب أوسع رزقا من المحامى ، فلأنه الطبيب الرسمى الأوحده ، أما المحامون فى عاصمة المركز فكثير .

وكان المهندس كثير النفقات . ولست أدري أله مصدر للرزق آخر ، أم يستدين ! فرغنا من العشاء فتحولنا إلى حجرة الجلوس ، واستأنف الإخوان رشف المدام ، لكن بقدر مقدور أحدث فيهم نشوة سرور . والنشوان كثير الكلام ، ولكن

عن شعور لا عن تكلف ، فلا غرابة أن تكون هذه الحالة النفسية أصلح الأحوال لاستبانة ما يختلج في قلب صاحبها من عاطفة أو يستهويه من أمل .

وكان المحامي أكثرهم كلاماً ، وأجهرهم صوتاً ، وأعنفهم إشارة يميناه ويسراه . ولقد أراد أن يضرب بيده مائدة الشراب توكيداً لكلمة قالها : « الثروة ، الثروة قبل كل شيء ! » فتحطمت الكأس تحت يده ، وشقت إحدى الشظايا كفه فأدمتها ، ولو أن هذه المأدبة كانت في غير منزل الطبيب لخرجنا نلتمس لكف صاحبنا ضماداً .

ثم أخذ المحامي مكانه وقد زایلته النشوة قليلاً ، لكنه استمر يقول ، موجهاً إلى الخطاب : « هل تعجب أن ترانا غير عاكفين على الدرس والتحصيل ؟ وفيمَ وعلامَ ولمَ الدرس والتحصيل ؟ أمحام أنا أم مؤلف في التشريع ؟ أطبيب كالأطباء هذا أم يريد أن يكون « باستور » الثاني ؟ أمهندس كالمهندسين هذا الآخر أم يريد أن يكون ويلكوكس ؟ ... القناعة فضيلة ... خصوصاً في العلم ! » ثم ضحك ، وبقهه صاحباه !

أما أنا فابتسمت ابتسامة الأسف ، ورجوت أن لا يكون هذا الطراز من فهم الحياة متفشياً في الجيل المأمول .

فرع عظيم^(١)

كان أمس في الحى الذى نحن فيه « فرع » : عروسان آن لهما أن ينعما باجتماع
الشمس فاجتمعا . إنيهما من بيتين يسبحان في بحار الثروة . أتدرى كيف عرفت هذا ؟
الأمر بسيط . أحصيت المصاييح التى أقاموها على جانبي الطريق للزينة فوجدتها
مائة مصباح من تلك « الفوانيس » الفخمة الضخمة التى تنظر أضواءها من بعيد
فيخيل إليك أنها قطع من الشمس تساقطت فأحالت الليل في هذا الحى نهراً .

ثم شرعت أحصى ثريات الكهرباء ، فلما بلغت المائة الخامسة أتعبني العد ،
لأن تألق أنوارها ردّ عيني كليلة . تركت إحصاء هذه الكواكب المصنوعة إلى إحصاء
الأرائك المصفوفة ، والزرايب المشوثة ، والكراسى المطلية بأمواء الذهب ، المفروشة
بالوان الخبز والحرير ، أحصيت منها ألفاً أو تزيد . وقد ضربت حولها قباب بديعة
الصنع مترامية الأطراف لا يكاد البصر يدرك مداها .

وآلات الموسيقى أيها القارئ العزيز تصدح لك بالتحية إذا دخلت السرادق ،
فيخيل إليك أنك فاتح عظيم ، تستقبلك الموسيقى الحربية بأناشيد الظفر . وصدقني .
ربما أحسست في نفسك شيئاً يسيراً من الزهو حين تدخل محفوفا بهذه الحفاوة الصادحة
لولا أنك تذكر في طرفة عين أنك أنت أنت ولست أدهم باشا ولا مصطفى كمال .

وعلى موائد الطعام . عفواً : أريد « البوفيه » عشرات من الضأن ،
« وعشرونات » من الديكة الرومية ، « وخمسونات » من الدجاج ومئات من الحمام
والسمان ، وألوف من العصافير ، و... كم من الدنان ، وكم من الكؤوس ؟ شئ
لا يحصيه العد .

كان شعوري حين رأيت هذا الذى أردت أن أصف لك ولو بعضه فلم أستطع ،
شعوراً مزدوجاً . مئات من الثريات والمصاييح تملأ العيون نوراً ولكن تملأ النفوس
ماذا ؟ أما نفس من يحدثك هذا الحديث فقد امتلأت عطفاً على العروسين وحباً

لهنأهنا ، ولكن يمازج هذا الشعور شعور آخر ، هو وُدِّي لو أن بعض هذه الألو ف من النيرآت كانت تضيء الليلة مئات من الأكوخ المظلمة التي يطلب أصحابها ثمن مسرجة ، أو ثمن زيت يوقدون به المسرجة فلا يجدون !

إذن لما ضاعت نفقات هذه الأضواء سدى كما ضاعت أمس ، وإذن لسرت أشعة من هذا « الفرخ » العظيم إلى بيوت مئات من المعوزين بل إلى قلوبهم . نعم . ولو أن الأموال الطائلة التي أنفقها آل العروسين في إطعام الأغنياء من سراة المدينة ، كانت أنفقت في بعض الملاجيء ، لكان هذا القران السعيد مصدر سعادة أخرى لمئات من المعوزين الذين هم بحاجة صارخة إلى المأوى والطعام .

وما كان ذلك ليضر حضرات المدعوين من وجهاء القاهرة شيئاً ، لأنهم يجدون في بيوتهم وفي « شبرد » و « الكونتنتال » مثل الذي أكلوا وشربوا أمس في « البوفيه » .

ترى متى يمسك مواطنونا عن تبذير أموالهم في مفاخر ليس فيها من فخار ! ومتى يكتفى العروسان بحفلة سرور من الأهل والأقربين في غير « مظاهرات » ولا مباهاة بالترف والإسراف . فإذا كان لا بد من المباهاة ، ففي ميدان البر والعمل النافع ، —

متى أيها المواطنون !

« النكتة » الرذعة

قال بعضهم تعريفاً لموهبة « النكتة » « انها الفن الذى ينفّر منك الناس » .
ولا ريب فى أن اشتهاك بالنكتة اللاذعة من أشد العوامل على استيحاش
الناس منك . ذلك أنه على الرغم من إعجابنا بذوى الخواطر الحادة السريعة ،
فإننا نخشاهم .

ولا أنكر أنك تحس لذة خاصة حين تبدى ملاحظة ساخرة رائعة . فإن لضحك
السامعين من « نكتتك » وقعاً حسناً فى نفسك . ونظرات الإعجاب التى يرسلها
إليك الحضور تبعث فيك اغتباطاً بموهبتك . وما أسرع ما تكون أنت محور المجلس
ومركز الدائرة . لكنك تشتري هذا كله بثمن باهظ هو إغفالك حسن العشرة
والمجاملة .

إن شعور المرء بسلطانه على من حوله شعور لذيذ . ولعل ألد أنواع هذا الشعور
قدرتك على أن تبهرهم فتحملهم على الضحك .

لكن لا ينبغي أن تنسى أن بعض الضحك مر المذاق . وشر السموم ما كانت
خميته السخرية .

لذلك ترى بعض نوابغ « النكتة » فى شقاء كلما اقتربت منه نهاية الحياة .
يجد نفسه منبوذاً ، بينما الرجل الرصين الفهم يحيط به الأصدقاء المخلصون .
والسبب واضح . لقد أحرق نابغة « النكتة » خيوط الصداقة والمحبة بنار
حرصه على إحراز الإعجاب .

عرفتُ واعظاً كان أسرع أهل القرية خاطراً وأذعهم « نكتة » فلم تكن تقام
حفلة إلا دُعِيَ إليها .. وكانت عباراته التى يقولها على البديهة مثار ضحك لا ينقطع .
ونكاته يتناقلها الرواة . والسامعون يُطرونه ويشيدون بموهبته .. وذات يوم هفا هفوة

في شئون كنيسته ، فما كان أشد ذهوله وغمه حين عرف عدد أعدائه وشدتهم . فقد هبّ الرجال من أما كنهم هبة رجل واحد ، وهبت النساء هبة امرأة واحدة ، ثم جذبوه قسراً من على المنبر . أسفتُ لحاله إذ كان طيب القلب — لكنه اشترى مزماره بثمان باهظ .

كثيراً ما يكون اصطناع النكات اللاذعة غطاء لطبيعة حساسة . أما ذوو الطبائع الصلبة والعقول الرصينة فقلما يرغبون في الاشتهار بالنكتة . إنما هو القلب الرقيق الخفاق ، يريد أن يوارى ضعفه بتصويب سهام حادة حامية إلى من حوله .

قليلاً ما تكون المرأة ذات اللسان الذرب محبوبة .

ليس ذوو المواهب العادية موضع إعجابنا ، ولكنهم مع ذلك موضع حبنا . وهذا هو السر في أن الفتاة الذكية الفؤاد السريعة الجواب الفياضة بروائع الكلم ، كثيراً ما تراها مهملة ، بينما يختار الشاب لنفسه زوجة أسيلة الخد عادية المواهب ذات دل ووفاء .

فإذا منى إنسان بحدة الذهن وتوقد الفؤاد ، فليكن من همّه أن لا يرسل « نكتة » موجعة تثير الموجدة .

إن انتقام البلداء شديد مروّع .

قد ترتكب الخطايا على مشهد منهم فيعفون عنك . وقد تخدعهم فيصفحون . أما إذا صوّبت إليهم سهم ابتسامة ساخرة ، فإنهم لا يصفحون ولا ينسون . إذا ضحكك منهم ، أو أضحكك منهم آخريين ، فذلك هو الذنب الذي لا يغتفر .

(١) تربية الأهل في المنازل

جاءه جاك روسو

أصاب جان جاك روسو حين فزع إلى الآباء والمعلمين ينعي عليهم طريقتهم في تربية الأطفال لعهدده . لأنهم كانوا في ذلك العصر يتخذون من الطفل شبه آلة ميكانيكية يسيرونها كما يشاءون لا كما تشاء مصلحة الأطفال . فكانت أوامر الآباء والمعلمين ونواهيهم ، وشدة استبدادهم بأولئك الصغار المساكين ، وما يريدونهم عليه من تعاليم لا يفهمون حكمتها ولا مغزاها ، ومن حشو للعقول لا يدركون نفعه ولا غايته ، كان هذا كله أمراً مألوفاً في كل منزل وفي كل مدرسة ، وكان مصدره الجهل بنفوس الناشئين وما تقتضيه أطوار نموهم من أناة ورفق ومن فطنة وعطف ، وكان مصدره كذلك جهل القائمين بأمر التربية ، إن الطفل لا تنمو نفسه ولا ينشط عقله ولا تسمو أخلاقه إلا إذا جاء الوازع من داخل نفسه لا من خارجها ، ومن أعماق ضميره حين يستيقظ الضمير رويداً رويداً بشيء قليل من الإرشاد الحكيم وشيء كثير من الحرية الشخصية يستمتع بها الأطفال .

ثار روسو على ضلالات العصر في شأن التربية فعادت ثورته على أساليب رعاية الأطفال بنفع عظيم . وهو نفع ما زال علماء التربية يعترفون به ويأخذون بكثير من الوسائل المؤدية إليه كما أشار بها روسو .

لكنه أفرط حين أراد أن ينشأ الطفل نشأة فردية بحته فلا يخالط أمثاله من صغار نوعه وذراى البيئة التي هو منها . فجاء « أميل » وهو الطفل الذى أراد روسو أن يجعله نموذجاً ومشالاً للتربية الصحيحة ، جاء طفلاً صناعياً نشأ نشأة لا تسمح الطبيعة ولا شؤون الحياة الواقعة بمثلها مهما عانى الآباء وولاة التربية في أى عصر أو بلد .

على أنه إذا أمكن الجرى على هذه الوتيرة الفردية الموحشة في تربية الطفل ، لما كان ذلك من المصلحة في شيء . إذ ليس من مصلحة الطفل نفسه ولا من مصلحة الجماعة التي

ينتمى إليها أن ينشأ في عزلة عما حوله من ظروف الحياة ، وفي عزلة عما حوله من طبائع النفوس التي سيضطر إلى ملابتها والعيش بينها يوماً ما قرب أو بعد . والطفل لم يخلق لنفسه فحسب . ولا هو وحش من وحوش الغاب يسعى لصيده فيأكل ولما نه فيشرب كأننا بعد ذلك ما كان . بل من الوحوش ما يتعاشر ويأوى إلى الآجام زرافات ، ومن الطير ما يطير أسراباً ويقع إلى مرتزقه في الأرض أو الشجر أسراباً .

وهناك أغلاط أخرى وقع فيها روسو لا يتسع المقام الآن لذكرها . وإنما الشيء الذي يعنيننا فيما نحن بسبيله من القول هو أن روسو على رغم إصرافه فيما رمى إليه من هدم لكل قديم ودعوة صارخة إلى كل جديد ، ورغم قوله أن القاعدة في توخي الصواب هو أن تنظر في كل ما يجري عليه أهل العصر فإن خالفته كله بحذافيره فقد وفقت إلى الصواب ، على رغم هذا الإصراف في الهدم ، وهذا الإصراف في التجديد قد نجح نجاحاً باهراً ووفق توفيقاً عظيماً . ذلك أنه استطاع اختراق الآذان إلى القلوب فأيقظ أهل جيله من كل بلاد العالم المتمدين إلى أن التربية بحاجة شديدة إلى الإصلاح . ومنذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا أخذ العلماء والعلمون والمستنيرون من الآباء يوجهون همهم وهمهم إلى العناية بشؤون التربية . حتى لقد أفرد علماء النفس كثيراً من جهودهم وأوقاتهم لدراسة نفوس الأطفال وأطوار نموهم دراسة بعيدة الغور واسعة المدى . وأخذ رجال التربية يفاضلون بين الأساليب المختلفة ويكثرون التجربة والاختبار . فمن أعظم علماء النفس الذين عكفوا على دراسة أحوال الأطفال « هربرت الألماني » وقد أفادت بحوثه ودراساته رجال التربية أعظم فائدة . ومن رجال التربية الذين عكفوا على التجربة والاختبار « بستالوزي » الألماني وتلميذه « فروبل » فأثمر اختبارهما في هذا الحقل الجديد ثمرات قيمة .

عقاب الأطفال

كانت العصا أداة الآباء والمعلمين لا تكاد تفارقهم فيما يزعمونه تربية للأطفال . فإذا خالف الصغير أمر أمه أو أبيه عجزا إليه بهذه الإداة ، أداة الإرهاق والتعذيب ، وإذا تخلف المسكين في حفظ درس أو « تسميع » قطعة من المحفوظات ، كانت العصا مفزع المعلمين . فكان التخويف والتربية مترادفين ، وكانت الرهبة لا الرغبة قاعدة المدارس والبيوت .

فلما نهض المصلحون نهضتهم التي أشرنا إليها أخذ الترغيب يحل محل التهيب ، وأخذت المحبة تحل محل القسوة والإرهاق . « وهربرت » الألماني هو أول من درس « شعور الرغبة » في الأطفال وهو ما يطلق عليه علماء النفس بالإنجليزية والفرنسية لفظ « Interest » . قال : إنه لا سبيل إلى امتلاك مشاعر الطفل ولا إلى ضمان إقباله على ما تقول وأخذه بما تريد إلا إذا استطعت أن تحدث فيه « الرغبة » فيما أنت بسبيله من قول أو عمل . ومن ثم أخذ اللجوء إلى طرق الإكراه ، ولا سيما العقوبة البدنية ، يزول قليلا قليلا حتى أصبح بعض المدارس يحظر العقوبات البدنية حظراً ، بل أصبح بعض المدارس يحظر العقوبات على اختلافها بدنية كانت أم معنوية .

« بستالوزي » والعقاب

على أن « بستالوزي » ، وقد كان أباً رحماً لتلاميذه الصغار ، ولم يكن تلاميذه في أول الأمر سوى لمة من ذراري الدرك الأدنى من طبقات المجتمع ، حشدهم إلى مزرعة كانت له تحيط بداره وكان ينفق عليهم من ريعها حتى أثقلته الديون فنزل عنها للدائنين ، نقول إن بستالوزي ، وهو ذلك الأب الرحيم لصغاره الذين جمعهم من هنالك ومن هنا ، كان يلجأ أحيانا قليلا جداً إلى عقاب أحدهم إذا ركب منكراً عظيماً د لا يناسبه النصيح الرفيق .

لكن عاطفة الأبوة التي كان يشعر بها ذلك المربي العظيم نحو أطفاله ، وروح
مما كتبت م - ١٢

العطف التي كانت تمازج كل صغيرة وكبيرة فيما بينه وبين أولئك الأطفال ، رفعتهم من ذلك المستوى الوضع الذي عاشوا فيه بين آبائهم وأهليهم ، وأيقظت فيهم شعوراً حياً جديداً بعرفان الجميل لمن يدأب هكذا على رعايتهم والقيام الخالص بتعهد نموهم أجساماً وأخلاقاً وعقولا ، حتى إن أحدهم لو اجترح ذنباً كان أسفه لغضب ذلك الرب العظيم أشد من ألم العقاب الذي قد يناله . ولقد كان أحدهم يفضل أن يوجهه « بستالوزى » بعصاه ثم يرضى عنه بعد ذلك على النجاة من العصا مع استياء هذا الأب الرحيم .

وإن بستالوزى نفسه ليصف هذه الحالة النفسية عند أطفاله في خطاب مسهب أرسله إلى أحد أصدقائه فيه شرح مفصل لأساليبه وطرقه . وليس في مقدور قارئ أن يقرأ هذا الكتاب دون أن يلهمه ذلك أكبر إجلال لعظمة الرجل الذي سنّ للتربية العملية خير طريق قائم على الأبوة والرفق وعلى حفز المشاعر السامية في نفوس الأحداث ، لا من طريق الإرهاب ولكن من داخل تلك النفوس الناشئة . ومن أرق ما يؤثر في النفس ما رواه « بستالوزى » عن أحد أولئك الصغار : على ما أذكر ، وقد اجتراح سيئة غض عنها الأستاذ نظره فجاء الصغير منفعلًا والدمع يجري في عينيه من وخز ضميره وحبه لأستاذه وهو يقول : « ألا عاقبتني على ذنبي يا سيدي ؟ فإني أستحق ! »

هربرت سبنسر والعقاب

أما هربرت سبنسر ، العالم الإنجليزي المشهور ، فقد أفرد باباً للتربية الخلقية في كتابه « التربية » أبدى فيه دهشة عظيمة كيف لا تكون تربية الأطفال موضوعاً هاماً من موضوعات الدراسة في كل المعاهد العلمية التي يتخرج فيها الطلاب من بنين وبنات . ذلك أنه يرى كما يرى جميع الفلاسفة والمفكرين أن إحسان القيام بتربية النشء هو الوسيلة الأولى والوسيلة الناجعة إلى ترقية المجتمع ، وأن بنات اليوم هن أمهات المستقبل وأبناء اليوم هم آباء المستقبل ، لكن الصعوبة العملية التي تقوم في سبيل ما يدعوا إليه « سبنسر » هو أن فريق الطلاب ، ولا سيما الذكور منهم ،

لا يحسون من تلقاء طبائعم — وسنهم ما زالت حديثه — بغرائز الأبوة ولا غرائز الأمومة حتى يعانوها . ومهما يكن من أمر فإن الذي يعيننا فيما نحن فيه الآن هو ما كتبه هربرت سبنسر في شأن عقاب الأطفال .

كان سبنسر شديد الحنق على حماقات بعض الآباء الذين يتولون هم عقاب أبنائهم بأنفسهم . وكان يروى فيما يروى أن من الآباء والأمهات من يرى طفله وقد جاءه محمولا على الأيدي لزلة زلتها قدمه فأنحطمت لها ذراعه ، كان يروى أن من الآباء والأمهات من يرى طفله على هذه الحالة فينحى عليه بالضرب واللطم لأن قدمه زلت ولأن ذراعه انحطمت . وليس شيء أقرب إلى الجنون من هذا ، لأن الطفل الذي يكون وهو في هذه الحال أحوج الناس إلى الرفق والعطف يعامل معاملة المجرم الآثم ، وهكذا يضرب « سبنسر » الأمثال لحماقة الآباء وشدة سخف بعضهم في معاملة الأطفال ثم ينتهي من ذلك إلى أن « الطبيعة » هي التي يجب أن تتولى عقوبة الأطفال كلما خرجوا على قوانين الطبيعة . وليس على الوالدين سوى أن يخليها ما بين الطبيعة والطفل فلن تلبث هي أن تتولى تربيته وتخريج . فإذا بسط الطفل يده إلى النار لذعته ، فإذا لذعته كان في ذلك درس له وعقوبة . أما الدرس فهو ما عرف من أن النار لذاعة وفي هذا توسيع لعلمه بطبائع ما حوله من الأشياء ، وأما العقوبة فهو ما أصابه من ألم اللدعة فلن يعود إلى بسط يده إلى النار مرة أخرى .

لكن هربرت سبنسر قد غالى في ذلك غلوّ روسو من قبل في عزل الطفل عما يحيط به من ظروف المجتمع . لأن الطبيعة ليست من الحكمة ولا من الرفق بحيث يجوز في كل الظروف أن يخلي بينها وبين الأطفال . طفل على حافة هاوية ! ولو تركناه حتى يدرك نتائج عمله لألقى بنفسه إلى التهلكة فمات . أفينبغي أن نتركه للطبيعة يتعلم عنها مباشرة ، ولهذا العقاب الصارم عقاب الموت ؟ كلا . إن تجاريب الآباء يجب أن يرثها الأبناء وينتفعوا بها ، فلا بأس على الوالدين أن يلقوا في روع أطفالهم أن هذا العمل ضار وخوف ، وأن ذاك نافع مأمون ، على شرط واحد هو أن يعقل الأطفال ما استطاعوا هذه التعاليم لا أن يجروا عليها كآلات الطائفة في غير فهم ولا إدراك .

على أن من ذنوب الأطفال ما لا يسهل إخلاء السبيل فيه إلى الطبيعة . ما للطبيعة ولطفل سرق درهما من جيب أبيه . ما للطبيعة ولطفل كبير اعتدى على أخيه الصغير فوكزه وكزة قاسية وليس في مقدوره دفع الأذى عن نفسه ؟ إذن فعقاب الطبيعة فضلاً عن أنه قد يكون قاسياً غير مناسب لمقدار الجرم فهو لا يشمل كل أنواع السيئات التي يراد إصلاحها في الأطفال .

شروط العقاب

إذا كان لا بد من العقاب فليكن شذوذاً نادراً إلى الحد الأقصى ، لا قاعدة يجرى عليها الوالدان . وإذا وقعت العقوبة فلتكن لسيئات خطيرة يريد المربي أن يقرنها بألم ينفذ إلى الطفل نزوع العودة إليها . وهذا قانون « تقارن الأفكار » في علم النفس « Association of ideas » . فكلما عاود الطفل نزوعه إلى العمل المنكر الذي من أجله عوقب عاودته مع هذه النزعة ذكرى الألم الذي ناله من جراء جريمته فيزدجر . لكن المربي يجب أن لا يعتمد على العقاب وحده دون أن يحاول إصلاح ذات النفس في الصغير . وإلا فإن ازدجاره بعامل الخوف وحده مجبنة للطفل مفسدة لأساس الرجولة فيه . وإذن فبعد العقاب ، إن لم يكن بد من العقاب ، يجب على المربي أن يصالح الطفل ويعود إلى الترفق له وملاينته ، فيبين له وجه الضرر البليغ الذي يعود عليه من مسلكه الذي سبب له العقاب والألم ، ولن يزال الوالدان أو المربي بالطفل الصغير حتى تشعر أعماق نفسه بأنه أخطأ خطأ جسيماً ، وبأن العقاب لم يكن ثورة غضب ولا شهوة انتقام ، ولكن وسيلة خير لجأ الوالدان أو المعلم إليها أسفاً مضطراً رغبة في مصلحة الصغير . ولن يتيسر هذا المسلك حتى تكون المحبة الصادقة والعطف الشديد وضبط النفس أساساً دائماً لصلة الأهل والمربين بالأطفال : ذلك حتى يتزعزع في الطفل واعز الضمير فلا يعود في حاجة إلى واعز من الخارج أو إلى عقاب مهما لطف ، وكلما بكر الآباء في إنماء هذه الحاسة الباطنة المستقلة كان ذلك خيراً وأبقى .

المراد بالكبح

إن تربية الأخلاق في الصغير تقتضى أمرين : حفزاً وكبحاً . والكبح وإن كان ضرورياً فإن أساليبه تختلف ، ونسبته إلى الحفز والتشجيع تختلف ، والآن نزيد هذه النقطة الهامة التي هي أساس التربية كلها شيئاً من التفصيل فنقول :

ليس كبح الغريزة الضارة معناه قتلها وإبادتها ، وإنما معناه صرف الحيوية التي يبذلها الطفل فيها إلى غريزة أخرى أسمى وأنفع . وإذن فطريقة الإصلاح ليست محو الغريزة الضارة محواً يطرأ من الخارج . وإنما طريقة الإصلاح هي تحويل النشاط الذي تستنفذه الغريزة الضارة إلى بعض الغرائز النافعة . خذ غريزة التدمير في الأطفال مثلاً ، هب هذه الغريزة شديدة الطغيان في طفلك الصغير . هبه لا يكاد يصل إلى شيء من أدوات المنزل إلا حطمه مادام قابلاً للتحطيم . كيف يكون سبيلك إلى تحويل نشاطه من هذه الغريزة إلى غريزة نافعة . ليس السبيل أن تنهيه عن التدمير وأن تزجره وتعاقبه عليه . وليس السبيل أن تجعله ذا غرفة خالية من الأثاث ليس فيها ما يستطيع تدميره . إنك بذلك تقتل فيه نشاطاً وتخدم فيه حركة يجب تحويلهما إلى غريزة نافعة قد تكون بحاجة إلى التشجيع . وإذن فالسبيل هو أن تحيطه بلعبة ذات أجزاء قابلة للتفكيك والتركيب دون أن تنكسر . فإذا هو فكك أجزائها حاول بعد ذلك أن يردّها إلى ما كانت عليه . وعلى هذا الأسلوب تنمو فيه غريزة عكسية نافعة هي غريزة الإنشاء . فإذا آنس في نفسه هذه القدرة على تركيب الأجزاء ازداد فيها رغبة وعليها حرصاً لما هو دفين في طبعه من فطرة المنشئ الخالق .

أو هب طفلك شديد الضراوة بالحيوان الأنيس بالمنزل كالقط الأليف أو الطير الداخن . هبه لا يرى قطاً إلا نهره ولا يرى دجاجة إلا طاردها . هذه غريزة الافتراس تبدو في أبسط مظاهرها فكيف تداوئها ؟ لا بالأمر والنهي ولا بإخلاء المنزل من القطط والدجاج ، ولكن بأن توقظ الأم فيه غريزة تناقض هذه التي تشكوها ، فلو أنها على مشهد منه أخذت تبدى عطفها على الدجاج وعلى القطط ، فتلقى إليها الغذاء

رائية لها مشفقة عليها ، متممة بكلمات العطف والإشفاق ، مشيرة في لطف ورقة أمام طفلها « المفترس » الى أن هذه المخلوقات مسكينة شديدة الحاجة إلى رعايتنا ، معربة عن هذه العواطف في صوتها المتهرج بشعور الحنان الذي ألفه ذلك الطفل من أمه حين تدلله وترضيه ، ثم دعت بعد ذلك إلى أن يعاونها على تغذيتها وإسعادها ، فإن هذا الطفل عينه سينصرف قليلاً قليلاً عن غريزة « الافتراس » إلى غريزة الشفقة و « الغيرية » (altruism) — ثم تنمو فيه حتى تراه بعد حين نشيطاً في رعاية الحيوان الضعيف نشاطه من قبل في مطاردته وإيلامه .

فهل ترى الآن معنى الكبح الذي يريده علماء التربية وطريقته؟ إن هو إلا تحويل لنشاط الطفل من غريزة إلى غريزة ، من غريزة مرغوب عنها إلى غريزة مرغوب فيها . كل ذلك في غير عنف ولا ضغط ولكن بأسلوب لطيف من الحيلة النفسانية المحمودة . وهكذا لا تقتل في الطفل نشاطاً ولا تمحو منه حياة ولكن تحوّل مجرى النشاط فيه ومجرى الحياة . وهكذا دواليك في كل ضار من غرائزه . تبدل شعوره السيء بشعور حميد وعمله الضار بعمل نافع . شعور يطرده شعور . وقوة فائرة من شهوة فاسدة إلى قوة فائرة من عاطفة صالحة ، حتى إذا امتلأت النفس من رغبات إيجابية فاضلة لم يعد ثمت في نفس الطفل ولا في نشاطه متسع للردائل .

وعلى هذا القياس يستطيع الأب أو الأم علاج غريزة بغريزة وصفة بصفة . هب غريزة خوف الظلام شديدة في طفلك . فلن يكون الدواء أن تضيء له كل مكان يدخله ، ولا أن تزج به إلى الظلام ثم تتركه مذعوراً ينتحب ، ولا أن تنيم معه الخادمة في الغرفة المظلمة خشية أن يفرع أو خشية « الأسياد » — ولكن سبيل العلاج أن تضرب له الأمثال بأخيه الذي لا يخشى الظلام وبأخته التي تدخل الغرفة فتطفئ السراج ثم تظل وحدها فيها . « تعال يا عزيزي نجرب » . ثم تأخذ الأم بيده وتماشيه حتى يدخل الغرفة المظلمة فتضيئها ثم تطفئها ثم تضيئها ، وهي في خلال ذلك تلتقي في نفسه القابلة للتشجيع أن الظلام لا ينبغي أن يخيف ، وأن الطفل الذي يريد أن يكون يوماً من الأيام رجلاً كابيه لا ينبغي أن يخاف ، وأن الغرفة وقت الظلام هي عين الغرفة

حين قضاء ، لا يزيد منها شيء ولا ينقص منها شيء . ولن يمضي على الطفل غير حين قصير حتى يألف غشيان الظلام فلا يستوحش منه ولا يفزع . ويكون هذا أول درس من دروس الشجاعة ألقته الأم في روع طفلها الصغير .

المرحلة الأخيرة — تحويل الغرائز إلى عادات

فإذا تكشفت حركات الطفل عن مختلف غرائزه ، وإذا اهتدت الأم إلى النافع منها والضار ، لم يبق عليها سوى أن تصرفه كما قدمنا من الغرائز الضارة بأن توجه نشاطه إلى إبراز الغرائز النافعة . فإذا توالى ذلك تحولت الغرائز التي تظهر أحياناً وتختفي أخرى إلى عادات ثابتة لا خوف من تغلب الظروف عليها وإخفائها بين حين وحين . وهذه هي المرحلة الأخيرة في تربية الأخلاق عند الأطفال .

إن قوة العادة هي تأثير الماضي في توجيه المستقبل . والعمل الذي يقوم به الطفل أول الأمر في مشقة وعناء لا يلبث أن يسهل عليه مع الإعادة والتكرار . ألا تراه يتخاذل في أول عهده بالمشي فيسقط مرة وينهض أخرى ؟ ألا تراه لا يرفع قدمه في ذلك الطور إلا بمقدار ولا يخطو إلا بمقدار ؟ ألا تراه يتحامل على بعض المقاعد تارة ويعتمد إلى الحائط أخرى . ثم هو يزداد كل يوم قدرة على المشي فلا ينقضى عام أو بعض عام حتى تراه يقفز ويعدو . زال العناء وزال الجهد الذي كان يكابده الصغير لأول عهده بالمشي . والسرف في ذلك راجع إلى قوة العادة . كل خطوة يخطوها تسهل عليه الخطوة التي تليها . وكل عناء يبذله يخفف عنه ما يتلوه من عناء . ولولا قوة العادة ما حذق صانع صناعته ، ولا مهر فنان في فنه ، ولا نمت لنا موهبة من مواهب العمل أو الأخلاق .

وهذه القوة العظيمة ، قوة العادة ، لا يقتصر فعلها على الجوارح والحركات الظاهرة ، بل الروح والشعور وخلجات النفس وحركات العقل وعزمات الإرادة كلها خاضعة لتأثير العادة . فإذا عودت طفلك إظهار غرائزه الصالحة في أعمال صالحة منذر طوبه عوده وانقياد نفسه كان ذلك سنة سابقة لأيامه التالية ، وقاعدة لا يخرج عليها لأنها من مألوفه

ومتجهه . تظهر شجاعته حين مقتضيات الشجاعة وإقدامه حين مقتضيات الإقدام ، ويظهر عطفه في كل ظرف يحتاج إلى العطف وجهاده في سبيل حياته وحياة أمته في كل وقت يدعو إلى الجهاد . يثابر على عمله ويقوم بواجبه ويؤدي نصيبه من الخدمة المشروعة لنفسه . ومن الخدمة الواجبة لأُمته ، كل ذلك في غير عناء ولا كلفة لأنها عادات تعودها منذ نعومة أظفاره ، كما تعود المشي صغيراً وكما تعود اللعب يافعاً وكما تعود القراءة والكتابة غلاماً .

فأما قول روسو : « إن خير العادات التي يجب إنشاء الطفل عليها أن لا تكون له عادة » فقول هو إلى ثورة الغضب من حالة الجمود التي كانت عليها التربية لعهد أقرب منه إلى القول الجذ الذي يصدر عن الرجل الحكيم وهو ضابط لنفسه واع لعواقب ما يقول . إن علماء النفوس قديماً وحديثاً لجمعون على أن تكوين العادة الصالحة منذ الصغر أساس الفضيلة وكبار الأخلاق . ولقد أجمع أفلاطون وأرسطو على أن لا سبيل إلى إيناع شجرة الفضيلة في الكبر إلا إذا غرست بذورها لعهد الطفولة في الفطرة التي تولد مع المولد ، أي في الفرائض الصالحة بتحويلها إلى عادات ثابتة . ولكي لا يكون المرء عبداً خاضعاً لعاداته كأنه دولا ب يتحرك لا إنسان يعقل ويشعر ويريد ، كان لا بد من أن تكون عادات المرء كلها خاضعة لعادة كبرى هي الحكمة التي تجعل العادة شيئاً غير مقصود لذاته ، بل للغاية السامية التي ترمى إليها . وهذا أمر ليس يتعلق بتربية الأطفال في المنازل ، بل هو داخل في تربيتهم بالمدارس والمعاهد حين تكون سنهم قد أعدتهم لمثل هذا التدقيق .

أما بعد

أما بعد فهل يجري الآباء في منازلنا على هذه الأصول ؟ أيعنون بأطفالهم هذه العناية ويراقبون غرائزهم هذه المراقبة ، ويقاومون الطاح منها هذه المقاومة ، ويروضون الصالح منها هذه الرياضة ؟ أليس كثير من الآباء والأمهات يضحمون في الأطفال غريزة الخوف بما يخيفونهم به من سطوة العقاب الدائم ، وبما يذكرونهم بعض الخدم

من أقاصيص المردة والغفاريات ؟ أليس بعضهم يغري الأطفال بالكذب لأنه يكذب أمام أطفاله ، وبالخور والضعف لأنه يخور أمامهم ويضعف ، وبالشثيمة والسباب لأنه يسب أمامهم ويشتم ، وبالقسوة والغلظة لأنه يتعالم أمامهم ويقسو ؟
سيداتي وسادتي :

لا تبحثوا عن عظمة الأم في أساطيلها ، ولا في جيوشها ، ولا في مظاهر الأبهة والمجد التي ترونها في القصور والقلاع . لا تبحثوا عن عظمة الأم في أى مظهر من هذه المظاهر مهما تعددت وفحمت . ولكن ابحثوا عنها بين جدران البيوت ، وفي مهد الطفولة ، وأحضان الأمهات . هنالك في مدارج الصبا تغرس الأم أول بذور العظمة الصادقة التي تنمو فيما بعد وتنبسط فروعها وتعلو ، فتريكم من آيات العظمة البارزة ما تنظرون . فهلا أزلنا من أطفالنا جرائم الخوف أطفالا فلا تعوزهم الشجاعة رجالا ؟ وهلا وسعنا لهم في ميادين اللعب النشط أطفالا فيقبلوا على الحياة متذرعين بقوة النشاط والهمة رجالا ؟ وهلا عودناهم الرحمة بالحيوان الضعيف ، والحب للزهر الأنيق ، والأنس بمظاهر الطبيعة من شجر ، ونهر ، وبحر ، وجبل ، ليرتوى فيهم كل شعور ظمآن ، وتزدهر فيهم كل عاطفة محبوسة ؟ ألا حبيننا إليهم الجمال وحبيننا إليهم الرحمة وحبيننا إليهم الشجاعة والإقدام ؟ ألا غرسنا في نفوسهم الخصبية هذه الفضائل الإيجابية القوية التي يغالبون بها البيئة رجالا فيسعدون بها في الحياة ويخدمون بها المجتمع .

ألا إن مصر ترنو إلى كل طفل في كل مهد ، في كل قصر ، وفي كل كوخ . ترنو إليهم وهي عالمة بأن هؤلاء الأجنة في بطون الأمهات ، وهؤلاء الأحداث في بطون البيوت ، هم ذخرها الأغنى الأعلى تواجه به المستقبل معتزة واثقة .

ليس الفخار بكثرة المواليد وعدد النفوس ، وإنما الفخار بمعدن النفوس وأخلاق الرجال . وإن من صفار السمك في جوف البحار ما يلد ملايين في اليوم ، فما هو إلا يوم آخر حتى تبيد تلك الملايين إلا قليلا . نريد أن يكون لنا خلف جدير بمصر . ولن تحظى مصر بهذا الخلف إلا بعناية الآباء والأمهات .

تربية الأهل في المدارس^(١)

نشأة المدرسة

سيداتي وسادتي :

كانت التربية في العصور الأولى من عمل الأسرة دون سواها ، لأن الأسرة كانت هي «الهيئة» الاجتماعية الوحيدة قبل أن تتألف البيوت قبائل ، والقبائل أمماً . فلما نشأت القبائل ، ثم الأمم ، لم تعد التربية موكولة كلها إلى الأسرة ، ولكن بقي لها حتى اليوم قسط عظيم في هذا الشأن هو الأساس الأول الذي عليه يقوم بناء الأخلاق . فتقصير الأسرة في العناية بتربية الأبناء صار أبلغ الضرر حتى يومنا هذا ، صار مهما اختلفت العصور وتبدلت الأحوال . وإن في أبناء الفقراء والمعوزين الذين جمعوا إلى ضيق الفاقة شديد الجهل بتربية الأطفال ، وفي أبناء الأغنياء الذين يستخفون بصغارهم فيذرونهم لرعاية المراضع والخدم ، أقول إن في سوء تكوين هؤلاء الأبناء وأولئك ، لموعظة بليغة ودليلاً ماثلاً على ما نقول .

كانت الأسرة إذن مربية لا شريك له في العصور الأولى ، فلما أخذت الإنسانية في معارج الرقي قليلاً قليلاً ، أخذت أغراض المجتمع تسمو وتتشعب ، وأخذ بصيص التربية الأولى يستحيل شعاعاً منيراً .

وبدأت أول مرحلة في هذا السبيل حين أخذ المجتمع يرتقي من نظام الأسرة إلى نظام القبيلة ، هنالك أخذ الإنسان القديم يشعر بحاجة غير حاجات البدن ، أخذ يشعر بحاجة روحية إلى إله يعبده ويقدسه ، فنشأت أديان ونشأت عبادات ، ونشأ معها رجال يهدون إليها ويقومون بطقوسها ويحتفظون بأسرارها ، أولئك هم الكهنة والقسيسون ، وأولئك هم الذين بذروا أول بذرة للتربية المنظمة — خارج المنازل — لأول مرة في التاريخ .

(١) المحاضرة الثانية أُلقيت في نادي المعلمين العليا سنة ١٩٢٥

وكانت التربية في هياكل الكهنوت روحية صرفة أول الأمر ، ثم اتسعت للقانون والطب والفنون الجميلة والعلوم لذلك العهد البعيد ، حتى كان رجال الدين مصدر الثقافة القديمة ومصدر كل فن جميل وعلم . ولم يزل الحال هكذا في الغالب حتى عصر النهضة الأوروبية بعد انقضاء القرون المظلمة .

ثم نفّس الملوك والأمراء على رجال الدين احتكارهم لتربية الناشئين ، فأخذوا يلحقون بقصورهم شبه مدارس يتخرج فيها من الشباب من يطمح إلى أن يكون حاكماً أو جندياً ، وكانت هذه المدارس مقصورة على أبناء الأشراف يتعلمون فيها كيف يحكمون وكيف يحاربون . ففنون الحرب وصناعة القانون كانت إذن أهم أغراض تلك المدارس ، وقديماً ناهضت القوانين الوضعية قوانين الهياكل والكنائس .

فلما نما العمران في كبار المدن ، ولما اتسعت ثروة الأفراد باتساع التجارة ونمو الصناعة ، بدأ عهد جديد أنشأ فيه القائمون بأمر التجارة والصناعة مدارس تروض الشباب على هذا الضرب من الكفايات . وكانت هذه أول خطوة في القرون الماضية خطاها المجتمع إلى توسيع نطاق التربية ، بعد إذ كانت موقوفة على طبقات معينة من الناس . ولم تزل الأمم توسع دوائر التربية وتنوع أغراضها حتى بلغنا إلى ما نحن فيه اليوم ، وحتى أصبحت التربية الأولية على الأقل حقاً أولياً لكل فرد من أبناء الأمة لا مجرد ميزة يمتاز بها بعض الناس ويحرمها بعض .

منذ عهد قديم إذن فطن رجال الأديان إلى أن المدارس أنجع وسيلة إلى الإكثار من المؤمنين ، ومنذ عهد قديم أخذت الطوائف الأخرى تنافسهم في هذا الميدان الخصب ، وما زال التنافس في توجيه التربية عظيماً حتى عصرنا الحاضر ، فكل حركة جديدة في التجارة ، وكل حركة جديدة في الفنون أو العلوم أو نظام المجتمع ، تحاول أن « تضم » المعلم والمدرسة إلى جانبها ، وأن تحملهما على وجهتها ، حتى أصبحت تربية الناشئين أعقد المسائل وأشدّها استعناء لأنظار كل مشغول بالشؤون العامة .

من هذا الإلحاح الموجه إلى تاريخ المدرسة نرى أن التربية — في أول عهدها على الأقل — كانت ترمى إلى أغراض سامية ، وكانت تحاول أن تروى ما تجده

الروح الإنسانية من ظماً . ولو ظل الإنسان القديم يكتفى من عيشه بالطعام والشراب ، لو ظل يكتفى بتوفير مطالب البدن فلم تتسام نفسه إلى ما فوق ذلك ، لكان بحسبه أن يعيش كما تعيش العجاوات ، يقلد آباءه تقليداً آلياً لا فطنة فيه ولا غاية بعده ، أولظل مدى الملايين من السنين على نشأته الأولى كأخيه الحيوان يعيش لياً كل ، وياً كل حتى يفنى ويموت ، يومه مثل أمسه ؛ لأنه لا يحمل بين طواياه تجارب الماضي ، وغده مثل يومه ، لأنه لا يحمل بين طواياه آمال المستقبل . نعم لو اكتفى الإنسان القديم بحاجات البدن لظل كما كان ، ذئباً في جملة الذئاب ، أو قرداً في جملة القرود ، لا يفضلها في شيء لأنه لا يختلف عنها في شيء . لكن في قلب الإنسان جوهره كمينه ، في قلبه مشكاة فيها مصباح ، هي التي أضاءت له سبيل الارتقاء منذ عهده الأول ، وكلما مرت عليها الدهور ازدادت وضاءة ونوراً . حتى كان من بين بني الإنسان رسل وأنبياء ، وكان من بينهم فلاسفة وعلماء ، وكان من بينهم مصلحون مجاهدون ، وكان من بينهم أهل إيثارية يعيشون لمجتمع خداما ، ولسعادته فداء .

تلك أيها — السيدات والسادة — هي الجوهره الكمينه التي لمعت في الإنسان القديم ، فأنعشت من آماله ، ووجهت قلبه إلى المعاني السامية — وتلك الآمال القديمة ، وتلك المعاني السامية ، كانت هي الدافع الأول إلى إنشاء المدرسة في العهد القديم من التاريخ .

* * *

توسيع التجارب

قلنا في محاضرتنا الأولى وفي هذه المحاضرة : إن تربية الصغار في المنازل هي الأساس الأول لكل ما يليها من أنواع التربية . لكن التربية المنزلية وحدها لا تستطيع كل شيء . ذلك أن تجارب الأطفال في المنازل ضيقة محدودة ، فهي لا تكفي لتنمية ما أورثتهم الطبيعة من قوى ومواهب . فلا بد لهم من بيئة أوسع نطاقاً فيها عوامل جديدة تستثير من طبيعة الطفل ما لم توقفه بيئة المنزل ، أو ما أيقظته ولكن إلى حد محدود . ولو رأيت صبيّاً قضى طفولته في منزل قليل الاتصال بالناس ، دون

أن يلتحق بمدرسة أو جامعة لرأيت عليه طابعاً من الخمود والوحشة واحتباس القوى ليس يخفى على أحد .

وروح النظام في المنزل كثيراً ما تكون شديدة إلى حد القسوة ، وكثيراً ما تكون هينة لينة إلى حد التراخي والتفريط . ففي الحالة الأولى ينشأ الطفل مرهقاً بالأوامر والنواهي ، وما هو أشد من الأوامر والنواهي ، وفي الحالة الثانية ينشأ الطفل راكباً رأسه جموحاً ، ليس يعترف لأحد بسلطان ، ولا تحس نفسه إجلالاً لأحد . وكلا الحالين خطر يجب اتقاؤه ، وإنقاذ الصغير من عقابه ، وليس إلى ذلك من سبيل سوى المدرسة .

دائرة المنزل ضيقة وتجارب الناشئ فيه محدودة . فصلته بوالديه وإخوته ، إن كان له إخوة ، وصلته بالخدم وبغير الخدم ممن يغشون المنزل بين حين وحين ، كلها لا تكفي لإيقاظ مواهبه وشحن قواه . فإذا كانت تربية المنزل هي الخطوة الأولى التي لا بد منها ، فتربية المدرسة هي الخطوة الثانية التي لا بد منها كذلك . كلا التربيّتين من دون الأخرى عمل ناقص لا غناء فيه .

يدخل الصغير المدرسة فيحيا حياة الجماعة فينمو فيه من الصفات والعادات ما يتكون به خلقه ويلائم الجماعة . في المدرسة مباراة بين التلاميذ في تحصيل العلم ومباراة في كسب الصفات الممتازة ، ومباراة في أنواع شتى من اللعب المنظم . وهذا التنافس يثير من عزائم الناشئين ، ويؤجج في قلوبهم حب العمل ورغبة الإتيقان . تضع المدرسة أمام أعينهم غرضاً ثم تدعوهم إلى أن يتسابقوا إليه ، فإذا الهمة الراكدة نشيطة ، وإذا النفس الفاترة قد ألهبتها حماسة الظفر . وفي هذا خير إعداد لمعترك الحياة الحديثة التي لا يهدأ فيه تنازع البقاء . فإذا خرج التلميذ بعد الدراسة من جماعة المدرسة ليكون أحد العاملين في الجماعة الكبرى خرج مزوداً بعزيمة مروضة على مجالدة المصاعب في سبيل غرض نافع .

لكن شرطين خطيرين يجب توافرها في كل ضرب من ضروب المباراة ، يجب ألا تكون المنافسات المدرسية مثاراً للأحقاد بين التلاميذ ، ويجب ألا تنسيهم حماسة

التنافس أصل الغرض الذي فيه يتنافسون . ذلك أن الأحقاد إذا لوثت نفوسهم أفسدتها ، وكان شرها أكبر من الخير الذي يرجى عن طريق التنافس . وإذا لم تكن سن الصبا مزرعة المحبة والأخاء فلن تروى النفس بعد ذلك بإخاء ولا محبة . على أن خطر هذه النزعة قليل . إن قلوب التلاميذ في الغالب أصفى من أن يشوبها حقد أو يفسدها خصام . والشرط الثانى ألا ينسى التلاميذ الغرض الذى ترمى إليه المباراة لا ينبغى أن يكون حب الظفر دافعهم الأول ، وإن كانت هذه الغريزة قوية فى طبائع النفوس . لكن التربية معناها أو من معناها تهذيب الغرائز : فالشبان المتبارون فى لعبة الكرة مثلاً يجب أن يجعلوا غرضهم الأول فى المباراة رياضة أجسامهم على الحركة القوية ، وحواسهم على اليقظة الدائمة ، والفريق الذى هم منه على التكافل . فأما أن يغالبوا الفريق الآخر لرغبة الفوز ولذة الانتصار ليس غير ، فذلك مالا ينبغى ولا يجوز . كذلك من ينافس إخوانه فى إحراز جائزة علمية ، ليس ينبغى أن يكون دافعه إلى الجهد مجرد أحراز الجائزة ، فإنه إذا تعود التلاميذ إغفال الجوهر وحصر أنظارهم فى العرض ، لم تلبث طبائعهم أن تعروها البلادة فى كل ظرف لا يحفزهم فيه حافز « صناعى » من إحراز نصر مبين أو جائزة بارزة . يجب أن تكون الجائزة الأولى وأن يكون النصر الصادق : شعور التلميذ بلذة أداء الواجب . فإن لم يكن هذا أساساً تقوم عليه جميع المنافسات ، ثم برز التلميذ يوماً إلى ميدان الحياة ، كان من العسير عليه أن يعمل ويجد فى ظروف هادئة ليس فيها شديد عراك ، إذ يكون أشبه شئ بالآلة الثقيلة لا تتحرك إلا بمحرك عنيف .

روح التعاون

وفى المدرسة يدرك التلميذ معنى التعاون ويتلقى فيه دروساً عملية قيمة . نضرب لعبة الكرة مثلاً — أليس هم كل عضو من الفريقين اللاعبين أن يعاون فريقه بكل ما فيه من قوة جسم وسلامة شعور ومضاء عزيمة ؟ جسمه وعاطفته

وإرادته كلها تعمل لغاية مشتركة هي غاية الفريق الذي هو منه . وهذا أول عهده بروح التكافل وسنة التعاون في هذا الوجود . يعمل ولكن لمجد فريقه لا لمجد شخصه ويكد لا ليحظى بسرور خاص ولكن بسرور يعمه وزملاءه أجمعين . فإذا جاء اليوم الموعد يوم يودع المدرسة ويواجه الحياة لم يدخلها فج الأخلاق ، ولا خالي الذهن والقلب من معاني التعاون في المجتمع على غرض شريف مشترك .

لا زهو ولا إنكماش

وفي المدرسة لا يدأب التلميذ المزهو على زهوه ، ولا التلميذ المنكمش على انكماشه . في بعض البيوت ينشأ الطفل مدللاً إلى حد يملؤه إعجاباً بنفسه وزهواً . وهذا خطأ في التربية مصدره أن يكون التلميذ وحيد أمه وأبيه ، فهما يحفلان به في كل وقت ويرسمان على جبينه كل ساعة قبلة . وهما فيما يرضيه دائبان ، ولو كان ما يرضيه أمراً غير صالح . هذان الأبوان ومن على شاكلتهما يفرسون في أطفالهم من ضروب الضعف ما لا ينبغي . هنالك يتولاه نظام المدرسة وتقاليد جماعة التلاميذ ، وهي تقاليد قائمة في الغالب على المساواة ، فلا ابن الفقير يزدرى لفقره ، ولا ابن الغنى يعز زلفناه ، ومن ثمة يشعر الصبي المدلل أن أحضان المدرسة أقل نعومة ورفها من أحضان المنزل ، وأنه يجب أن يعامل إخوانه بما يجب أن يعاملوه به ، فيعتدل المائل من خلقه ، ويحول زهوه القديم أدب نفس وإنصافاً للزملاء .

وبعض البيوت يأخذ الأطفال بالقسوة ، ويجعل دافعهم إلى الطاعة دافع الإرهاب فينشأ الطفل المسكين منقبض النفس مستوحشاً شديد الحياء والخجل . لأنه كان يحاسب على اللفظ وعلى الحركة حساباً عسيراً فلا تندفع طبيعته إلى حب اللعب البريء ، ولا إلى تلك المظاهر الحية التي يمتاز بها عهد الطفولة . ذلك الطفل يدخل المدرسة فيجد نفسه بين وجوه لا عهد له بها ، فكيف لا ينكمش بين هؤلاء الغرباء وقد كان شديد الانكماش بين أهل والآباء . لكن مرح الزملاء الذين يحيطون به من كل جانب وما يشاهده فيهم من حياة طليقة فيها نشاط ولعب وكر وفر ، لا يلبث أن يعديه

على التدريج في لعب كما يلعبون ، ويضحك كما يضحكون ، ويتفتح من طبيعته ما كان مغلقاً ،
ويزدهر ما كان جافاً ذاوياً ، وبذلك يعود الطفل كائناً حياً بالمعنى الكامل من جديد .

مفوق واجبات

وفي المدرسة يشعر التلميذ الصغير بأن عليه واجبات إلى جانب ماله من حقوق .
يشعر بواجبات حيال سلطة المدرسة قد تكون أوسع وأدق من واجباته حيال أبويه .
يشعر بواجبات حيال معلميه وأخرى حيال زملائه في غرفة التدريس وفي ملعب المدرسة .
وعلى هذا الأسلوب يجد نفسه بين جماعة منظمة هي « الرأي العام » في مرتبته
الأولى . فالمدرسة إذن هي الأمة الصغيرة التي يلابسها التلميذ عدداً من السنين قبل
أن يندمج في الأمة الكبيرة ويأخذ نفسه مأخذ الرجال . المدرسة أمة وسط بين
عشيرة المنزل وعشيرة المجتمع الأكبر . وهذا « الرأي العام » الذي يعالج التلميذ
أطواره في عهد الدراسة ، أصرح وأصفي من الرأي العام الكبير . فهو يحكم على
أفراده من التلاميذ ، بل على معلميه — أحياناً — أحكاماً يغلب الصدق فيها على
الكذب ، والإخلاص على الرياء .

فالرأي العام في المدرسة يسمى المسمى مسيئاً في وجهه ، والمحسن محسناً . وهو
يجل الصفات الطيبة فيعجب بالشجاع ويلتف حول المذهب الحميد الخصال . هذه حال
المدرسة ، أو هكذا يجب أن تكون حالها . فما أحسنها من بيئة وإن شابتها الشوائب
أحياناً ، وما أصح عهدها عن عهد حلول لذيذ .

النظام والنسق

ولا ننس فضل ما يعتاده التلميذ في مدرسته من جرى على نظام محترم ونسق
مطرد . نحن لا نقول بأن تكون المدرسة آلية الحركة في كل شيء فلا يأخذ الطلاب
في شأن من شؤونهم إلا بأمر ، ولا ينتهون عنه إلا بنهي . كلا ! وإنما نقول بأن روح
النظام المعقول وروح « الترتيب » للأوقات والأعمال وروح المثابرة على طلب

ما أنشئت له المدرسة من تنقيف للعقول وتطهير للعواطف وإنهاض للعزائم والههم — كل ذلك من شأنه في المدارس التي تجرى على هذه القواعد الفاضلة ، أن يكون ذخيرة الطلاب في مستقبل أيامهم ، حين ينتقلون من عالمهم الصغير إلى عالم الجهاد والعمل . يومئذ يقدمون على الدنيا وقد ألفوا احترام النظام واحترام الأعمال المنتجة ، وبذل الجهود في غير ملال ولا وهن .

حياته تنفتح

أليست هذه العوامل إذا توافرت — ويجب أن تتوافر في كل مدرسة جديدة بهذا الاسم العظيم — تفتح من فضائل الفتيان والفتيات كل كمين وتوقظ منها كل نائم ؟ تلك الحماسة التي تغلي في صدور الناشئين في ميعة الصبا ، وتلك العدوى الجميلة التي تسرى فيهم جميعاً فتوجه قلوبهم وجهة طاهرة صالحة ، لأن روح الجماعة تسهل انقيادهم إلى كل صالح طاهر ما دامت المدرسة فاضلة ، كما تسهل انقيادهم إلى كل خبيث ضار ما دامت المدرسة فاسدة ، نقول أن تلك الحماسة وتلك العدوى عاملان عظيمان يتدرج الطفل بفعلهما من عجز الطفولة إلى استقلال الرجال . وعلى هذا الأسلوب تؤثر المدرسة الفاضلة في تهذيب العواطف وشحن الإرادة ، أي في تربية الأخلاق أحسن تأثير . وعلى هذا الأسلوب يدرك التلاميذ معنى الواجب ويفهمون معنى الحياة . يفهمون ذلك بأكبر مقدار يستطيعونه في أطوار سنهم المتوالية على التدريج . وكذلك ينشأ التلميذ بحكم هذه البيئة المدرسية الفاضلة وقد ألف توجيه نفسه من تلقاء نفسه وارشاد ضميره إلى ما ينبغي وصرفها عن كل أمر لا ينبغي . وهل ترمى تربية الأخلاق في كل أدوار النمو إلى شيء غير هذا ؟ أم هل تقصد الفضيلة على رغم ضخامة هذا اللفظ وخفامته إلى شيء غير هذا ؟

الرغوة والغف

لسنا نقول بأن تكون المدرسة رخوة النظام تطلق لتلاميذها من الحرية ما يفسد معنى الحرية الصحيحة . ولسنا نرى مع « روسو » أن ينشأ التلاميذ على النحو الذى أنشأ هو عليه فتاه الوهمى « أميل » . لقد بلغ من إفراط روسو فى الدعوة إلى حرية الناشئين وإطلاقهم من كل رقابة وقيد أن كان يفاخر بأنك إذا ذكرت « لأميل » وقد بلغ الثانية عشرة من العمر لفظ الطاعة أو لفظ الواجب لم يفهم من مدلولها شيئاً ، لأنه لا يعرف ما هو الواجب ولا ما هى الطاعة . نحن تؤيد روسو حين يدعو الآباء والمعلمين إلى أن « يحبوا الطفولة ويشجعوا ألعابها ومسراتها وغرائزها البريئة » لكن هل معنى المحبة أن تخلى الناشئين من كل نظام ومن كل قيد ؟ لقد رأى روسو أن الجماعة لعده كانت فاسدة الأساليب جامدة النظام ترمى إلى « أن تجعل من الطفل لا طفلاً ولكن رجلاً عالمًا » . وكان يدرك هو بحق أن حياة المرء أطوار من النمو وأن كل طور وكل مرحلة من الحياة لها أوان تتم فيه وتصل إلى الكمال أو النضج الذى يناسبها . وكان غرضه أن يلائم بين أطوار التربية وأطوار النمو . لكنه بالغ فى إطلاق الحرية للأطفال إلى حد الإفراط حتى لجأ إلى عاطفة تشبه الأنوثة حين رجا من المعلمين أن لا ينالوا تلاميذهم بأى ألم وإن كان الدافع إليه رغبتهم فى « إصلاح الميول الفاسدة فى قلب الإنسان » . ثم أنشأ يقول « أيها الآباء ! هل تعلمون الساعة التى يحل فيها الموت بأطفالكم ؟ إذن لا تسلبوهم الساعات القليلة التى جادت بها الطبيعة عليهم ، فإن ذلك يورثكم حسرات (أى إذا وافاهم الأجل صغاراً) .

لأنقول بهذا رأى الفطير لأننا نعلم أن محبة الطفل هى نفسها التى يجب أن تدعو إلى مراقبة الضار من غرائزه رغبة فى سعادته هو قبل كل إنسان . وفى هذا نوع من التضيق على الحرية ، ولكن على أى أنواع الحرية ؟ على الحرية التى تورث الطفل أذى بليغاً يوماً من الأيام لا يقاس بالأذى الطفيف الذى يناله من مقاومة الغرائز الشريرة . ولأن تقاوم فى الطفل نزعة السرقة صغيراً أقرب إلى معنى الرحمة الصحيحة

من أن ينشأ لصاً مصيره ظلمات السجون . فنحن إذا قاومنا الحرية الخبيثة في الصغير فإنما نريد أن يستمتع بالحرية الصحيحة في سائر أيام الحياة .
لا نرى إذن أن يكون نظام المدرسة رخواً ولا أن يكون الرفق بالأطفال معناه التجاوز لهم عن كل سيئة مهما شغعت وإلقاء الحبل على الغارب لكل غريزة مهما ساءت .
لكننا مع هذا نرى القسوة مفسدة للقلوب الناشئة أى مفسدة . ولسنا في مصر نخاف على الأطفال غلو المدارس في اللين والهوادة وإنما نخاف عليهم غلوها في القسوة والجفاء .
ذلك أن مواد التلاميذ في المدارس هنا لم تصل بعد إلى حد يخشى معه الخطر . وإنما الخطر الذي نخشاه وهو واقع بالفعل في بعض مدارسنا خطر القسوة الحمقاء .
في تلك المدارس لا يتحرك الصغير إلا عن رهبة ولا يسكن إلا عن رهبة . إذا قام بواجبه فخشية العقاب وإذا انصرف عن سوء فخشية العقاب . فإذا غفلت عنه عيون الرقباء يوماً لم يرقم بواجب ، وإذا أخل سبيله يوماً بدا شره الختفي بين جوانحه في أشنع صورة ، ذلك أن مدرسته قد عودته العمل الصالح — الصالح في ظاهره — بسائق العقاب وحده ، فإذا فتر عنه العقاب تكشفت طبيعته التي أفسدتها المدرسة القاسية عن سيئات قد يكون فيها هلاكه يوماً ما وضرر شديد بالمجتمع .

أسوأ المدارس

أسوأ المدارس إذن هي المدارس القاسية . وإذا كان لابد من خوف فليكن خوف الخروج على الواجب . أو إذا كان لابد من خوف فليكن خوف شيء غير عقاب البدن . إن خشية عقاب البدن أخط أنواع الخوف وأدخله في معنى الجبن المهيبن . يجب أن يكون في جو المدرسة وفي أشخاص القائمين بأمرها شيء معنوي مهيب هو الذي يخشاه التلميذ ، نوع من الجلال ومن الحرمة الموقرة هو الذي يجب أن يملأ نفس التلاميذ ويحول بينهم وبين التقصير في الواجب أو ارتكاب السيئات . وهذا هو الشأن اليوم في كثير من المدارس في أمريكا وبلجيكا وسويسرا وبلاد أخرى . أدرك بعض القائمين بأمر التربية هناك أن في نفوس الأحداث خيراً كثيراً

لو عرف المعلمون كيف يفتشون عنه ويوقظونه . والنفوس في حداثتها سهلة منقاد لمن يعرف كيف يترفق في تناول القياد .

عرف بعض رجال التربية هذا السر الثمين فانتفعوا به ونفعوا التلاميذ . وهذا مذهب جديد تقوم عليه أحدث طرائق التربية . حتى لقد استغنت بعض المدارس عن جل أنواع العقاب إن لم نقل عن كلها . أما العقوبات البدنية فقد صارت في رأى تلك المدارس الراقية أثراً من آثار الوحشية القديمة ودليلاً على قصور المربي في صناعته أفصح قصور . ومن أحدث هذه النهضات في ميدان التربية نهضة جماعة من العلماء يطلقون على مذهبهم اسم « المدرسة العاملة » L'école active وعسى أن يتاح لى في العام الدراسي القادم أن ألقى بعض محاضرات في هذا الموضوع الجليل .

في قلوب التلاميذ إذن مهما بدا من جموحهم أو من خمودهم نقطة خصيبة يبضاء هي مصدر صلاحهم إذا اهتدى إليها الأستاذ برائد من الكياسة والرفق . ولقد صدق جون ستوارت مل حين قال : « إن الشياطين بين الناس قليلون قلة الملائكة » وأنا أقول إن الشياطين بين الأطفال لا يوجدون لو عرف الآباء والمعلمون كيف يعالجون الطفولة بالتي هي أحسن وأقوم .

إن المدرسة الفاضلة أجمل بيئة بعد بيئة المنزل الفاضل . وإن عهداً لآلذ العهود التي تنازعنا النفوس إليها في حنين ترافقه ذكريات الصبا العزيز . ولكن وا أسفاه ! بعض المدارس يبعث إلينا هذه الذكريات ويخمد في نفوسنا جذوة هذا الحنين . بعض المدارس مغلاق لا مفتاح لفضائل النفوس ومدارك العقول . في تلك المدارس ترى المعلم أشد الناس انقطاعاً عن تلاميذه لأنه بينهم بجسمه وليس بينهم بقلبه وروحه . صلته بهم مقصورة على الدرس يلقيه — بحكم الضرورة — لا بدافع من الرغبة الصادقة في خير هؤلاء المساكين . فإذا قصر أحدهم في الدرس يوماً لم يجد هذا المعلم وسيلة إلى تنشيطه سوى « ورقة العقاب » . أين الأبوة العاطفة المرشدة ؟ أين الإخاء العذب النصوح يحسه الصغير من معلمه فينقاد إلى نصائحه الحكيمة وإلى رغائبه الرشيدة لأنها عن هذا الأخ الكريم أو عن هذا الأب البار قد صدرت ؟ أين الأستاذ

الذى يصل عقله المجرب بعقول تلاميذه ويصل قلبه النضيج بقلوبهم وعزمته القوية بعزائمهم؟ قد كان ذلك قليلاً بمصر في العهد الذى مضى . كان قليلاً لأن ولاية « التعليم » ولا نقول التربية يومئذ لم يكن يعنىهم سوى حشو الرؤوس بالمعلومات غشها وسميها ، لأنهم لم يكونوا يبتغون سوى آلات مطبوعة لا ترمى في الحياة إلى غاية سوى الوظيفة والمرتب . أما الأخلاق فلم تكن لتعنيهم في مراح ولا مغدى . وكيف يحفلون بالأخلاق في أمة لا يستطيعون أخذها إلا من جانب الأخلاق ؟ .

لكن العهد قد تغير . ورجاؤنا في المعلمين أن يحدثوا لنا في التربية عهداً جديداً ، عهداً لا يقتصر على تحسين البرامج فحسب ، فإن البرامج من دون القلوب والأخلاق لا تنفع .

معلمو مصر سينشئون لمصر أرواحاً فتيمة قوية قادرة على مكافحة أحداث الزمان .

الحب المفقود

حوادث هذه القصة وقعت بالفعل قبل الحرب الماضية الكبرى . والذي قصها علىّ هو نفس الشخص الذي وقعت له تلك الحوادث . وهو صديق حميم من أصدقائي وزملائي في جامعات الغرب منذ أكثر من ربع قرن . وكان يقصها على تارة كمحب قديم يستعيد حوادث الماضي ، وتارة كمحب شاب يلبس بالفعل تلك الحوادث . فلا عجب إذا جاء سياق القصة على هذا النمط المزدوج ، مما قد يخيّل إلى القارئ أن وحدة الزمن في سرد القصة عنصر مفقود

لذلك رأيت التمهيد بهذا البيان لإيضاحاً للحقيقة

قال صديقي :

شغف الحب قلبي صغيراً لم أبلغ العاشرة . وحببتي كانت في مثل سني . طفلان غريزان بص فيهما بصيص الوجدان . هي بنت خالي . أول اسمها ع . وما ينبغي أن أفشيهِ مخافة الحرج . وبحسبي ، بل بودي أن أسميها الآن « عين » — حينئذ إلى ذلك العهد العزيز البعيد ، يوم كانت عيني وقلبي ، أبصر بهما الدنيا وأحس الحياة ، ذلك العهد الذي مضى ، فمضت معه روضة الصبا ، ثم مضت في أثرها جنة الشباب ، واليوم تكاد بعدهما تذوي شجيرات عجاف في وادي الكهولة لتفضي بنا بعد حين إلى صحراء الهرم ، إذا توانى عنا الأجل الواقف بالمرصاد .

كيف عرفت الحب في سنتي العاشرة ؟

كما عرفت الرضاع والتنفس ساعة الميلاد ، وكما عرفت الخطو نحو « حبي الأول » في سنتي الأولى — نحو أمي ، وكما عرفت النطق بكلمة الحب في سنتي الثانية — أقولها لمن أحس منه الحذب والإشفاق .

هى كوامن فى الفطرة ، تتفتح عنها قوى الأجسام أو قوى الأفهام والقلوب ، كالرياحين يسقيها الغيث أو يسقيها النيل ، وتمدها العناصر ويغذوها الثرى الخصب وترسل عليها الشمس نفحة الحرارة ونفحة النور ، فإذا الأكام تفتّر ضاحكة عن زهر غرض وورد بهيج .

صادفت ريحانة قلبى مثل هذه العوامل . بدأت النبتة بذرة خفية ألقها فى الفؤاد نظرة عابرة . فلم نحسبها أول الأمر شيئاً . لكن والدتى كانت كثيرة الزيارة لبيت أخيها . وكان زعيم قرية كبيرة فى هذا الإقليم من الريف . وهى من قرينتنا قريب ، تبلغها المطايا فى دقائق . وكان هذا الخال أمدى إخوته يداً وأرفههم عيشاً ، فلا عجب أن يسبقهم إلى العناية بتربية « عين » — فيرسها إلى مدرسة أجنبية للبنات ، فترتدى الثياب الغربية وتلبس القبعة ، وتبدو فى هندام وشارة ، وفى رشاقة ودل — كانت زهرة القرية فى ذلك الزمان .

وأنا تلميذ بالمدارس الابتدائية ، أقضى أيام الدراسة فى القاهرة ، وعطلة العيدين والصيف بين الآباء والأخوال .

والبذرة قد نبتت فى قلبى الخالى ، لأنها لم تسقط فى أرض موات . نبتت وأريد لها السقيا من البستانية التى غرسها عفواً فى ذلك المكان . أريد منها أن تروىها وتنمىها وتشاركنى فى رعايتها عن بينة . والكفيل بهذا كله — أن تفطن إلى حبي الوليد فلا تسخر ولا تنهر ، وأن تفطن إليه من غير حديث باللسان أو بادرة منى ياباها الاحتشام .

إنما أرجو منها إذا نظرت إليها أن تبادلنى النظر ، وإذا جلست إليها أن تستريح إلى ، وإذا قالت لها عيني « أحبك » قالت لى عينيها « أرق لك وأعطف عليك » أما القبلية العذرية النقية فلم تتسام إليها أمنيته فى تلك السن ، ولو تسامت ، لأوجب الحياء والحذر أن تدفن من توها فى بئر عميقة من الشجن الدفين ، وإذن سيكون حبنا شجواً لا يبين ، وشعراً لا ينطق ، ومتاعاً بقربها ألتذه فوق كل متاع ، حتى متاعى بأحراز الشهادة الابتدائية ، ونصوع إسمى فى الصحف بين أسماء الناجحين .

قصدت في ركاب والدتي إلى القرية المحبوبة ، فأنعشتني منها نسائم ما أظن
الأستاذ الصاوي وجد مثل أريجها في حدائق باريس ، ولا الأستاذ زكي مبارك وجد مثله
في حديقته بسنتريس . ذلك وبيوت القرية — عدا بيوتاً تعد على الأصابع ، — مبنية
من لبن نبي ، مسقوفة بفلق النخيل يعلوها قصب مضاف يغشاها ركام من قش وحطب ،
وعلى قوادم السطوح تقوم أطواف من تلك الأقراص المشهورة ، يتخذها أهل الريف
وقوداً للنار لا سماداً للمزارع . والمستنقعات والبعوض والذباب ، وموارد الماء القذر ،
هي بسمومها وأضرارها في قرية الأخوال كشأنها في قرية الآباء والأعمام .
غير أن شعاعة من ضياء الحب تسكن هذه القرية . والشعاع ينفذ الأوساخ
ولا يتسخ .

وإذا نشأت الحبيبة في هذا الدمن ، فكما تنشأ اللؤلؤة في الموضع المريض
من سمك الآلىء .

هذه هي — قرة العين التي لم تمتلئ منها إلا مرة منذ عام . يدي تنبض في يدها ،
ونظرتي تتصل بنظرتها ، وشفقتي تنبسان بشيء أريده تحية تسمعها الوالدتان والسيدات
الأخر . ولكن لساني ينعقد ، وأذني لا تسمع همسي ، وأحس إجماعاً في نفوس
الشاهدات على أن هذا « سلام عاشقين »

يا للهول ! « عاشقين » ! وفي الريف ! وفي هذا البيت القديم المحافظ ! وفي سننا
التافهة التي لا هي طفولة فتثير الضحك ، ولا هي شباب مكتمل ، فتثير الاهتمام . .
فإذا لم يكن هذا عشقاً بمعناه الكثيف فماذا هو ؟

هو حب بمعناه الرهيف النظيف ، وحب الجمال محمود بل مفروض في بدائع الفن ،
محمود بل مفروض في بدائع الطبيعة فكيف يُستكره فيما تصوغه يد الفنان الأكبر ،
من معجزات الحسن المجدد في بنات الجميل آدم والجميلة حواء !
على أن والدتها وخالي لم يكرها لى ولها أن تتحدث بالنهار وأن نسمر بالليل ،
مجتمعين بغيرنا أو منفردين .

وكذلك حاطتنا الأسرة بجو مهذب من الطمأنينة والثقة .

لقد احترموها واحترموني ، فاحترمت نفسها واحترمت نفسي . ولو كان لأهلها
أو أهلي أبصار كأبصار أهل الكشف ترى من وراء الحجب ، أو آذان كأذان سليمان
تسمع حديث النمل أو ماهو أخفى ، لما استطاعوا أن يحصوا على أو عليها في سنوات
حبنا العشر كلمة نائية أو حركة شائنة .

لقد كانت عبادة . . . عبادة لمن أبدع هذه الآية وأودعها سحرها العجيب .
ولم أكن أعبد فيها من أبدعها عن معرفة . إذ لم تكن فلسفتي في الزلفي
إليه تبارك جماله وحبه للجمال قد بلغت بعد هذه المرتبة .

وإنما عبده فيها عن غير روية ، كالبلابل تعبده حين تغرد ، وكالأشجار تعبده
حين تثمر ، وكالشمس تعبده حين تضيء . وإن من الملحين من يعبده عن غير قصد
كلما أخذته روعة رائع من خلقه في الأرض أو في السماء .

تسألني كيف كان جمالها وكيف كان سحرها ؟

أما جمالها فلو سألتني عنه في أوائل عهدي بحبها ، يوم لم أكن أعرف من
اللغة ألفاظ الخلد الأسيل ، والطرف الكحيل ، والشفة اللمياء ، والثغر النضيد ،
ويوم لم أكن أعرف أن الخصر النحيل والغصن الرطيب الريان ، في غير رهل
ولا ضمور — إذا اجتمعت لحساء سميت هيفاء ، ويوم لم أكن أعرف أن عينها
تشبه بالنرجس ، ودمعها بالؤلؤ ، وخدها بالورد ، وشفتها بالعناب ، وثغرها بالبرد —
فإذا بكت وعضت على شفتها أمطرت لؤلؤاً وسقت ورداً وعضت على العناب
بالبرد ، أقول لو سألتني عن جمال حبيبتى قبل أن يبلغ معجمي من اللغة هذا المبلغ —
لما أحررت جواباً ، أو لأجبتك « أحبا » — ولا أصف .

أما الآن وقد تبضعت من الألفاظ هذه البضاعة ، فهل تصرّ على أن أصف لك
فتاتي من ناحية الجمال ؟ أما تخشى أن تغرق في بحر خضم من اللفظ المحفوظ والقول
المكنوز ، وأن يحجب الوصف صورة كاذبة لحسن صادق ، لا شيء سوى كثرة ما تطفئ
الوسيلة التي هي البيان ، على الغاية التي هي الحقيقة ؟

حسبك أن تعلم أن شخصها كان وحدة من الحسن متناسقة ، لكل جارحة منها نصيبها السعيد من إسباغ الجمال على مجموعها المؤتلف ، ولو أخذك سحر عينيها لأنتك بسمتها بسحر مثله ، ولو أعجبك منها اعتدال الأنف ، لم تبخس فيها استدارة الأذن ، وإذا شغلك من جمالها جزء عن كل ، نادتك من الوجه كله صباحة ومن الجسم كله رشاقة ، وإذا نسيت في زحمة هذه المحاسن شيئاً ، هتف بك : أنا هنا فاذكرني .

وهي مع ذلك أكرم على نفسها من أن تتعمل إبراز المحاسن . ولو لم أرَ منها إلا عينيها وثغرها لكفى بهما فتنة .
أى لغة باطنة لغة النواظر ! وما الأسرار المطوية في هذه الألفاظ ! لو استطعنا لقضينا العمر في نجوى العيون ! ونجوانا — أجد لذتها ولا أستبين فحواها .
أ يكون للأرواح حوار في الحب ، ليس له لسان سوى سكون الطرف ، أو رموز اللحظ ، أو وميض الحدق .

وهذه الابتسامة الحلوة المسعدة المشقية ماسرها ؟ مسعدة لأن إشراقها يضيء الساعة ، مشقية لأن انطفاءها الوشيك نذير بأن لذات الحياة قصار .
ما أعذب تلك الأيام في السنين ، وأعذب تلك الساعات في الأيام .

الدهر يطوى الأيام ، والقلب يطوى العواطف ، شبت «عين» فتجاوزت نصف عقدها الثاني ، وبينى وبين الشهادة الثانوية عامان .
انقطعت «عين» عن الدراسة بحكم البيئة وضغط التقاليد ، وما كان أبوها يسمح لها بالبروز إلى المعاهد ، وقد اكتملت أنوثتها ، ونضجت الثمرة ، ودنا القطاف .
وأنا أحبها . . . وماذا بعد الحب الشريف إلا الزواج .
أبصر أهلها عن زواجها ست سنوات على الأقل ، حتى أتم دراساتي انوية وعالية !

محال . . . !

أطلق علوى وكال تكوينى وآمال مستقبلى لأتزوج الحبيبة « عين »
ماذا تكون يومئذ قيمتى عندها ، أو عند أهلها ، أو عند أهلى ، أو عند نفسى .

كبدى حرى من لواعج الشوق إلى « عين » .
إنى لا أزورها الآن إذا عدت إلى قريتى إلا قليلا .
إن فى عينها الحبيبتين أسى أحسه وأراه ، وفى ابتسامتها ذبولا يبكينى .
لهف نفسى من تصاريق القدر ، كانت حظوتى من حبها بمقدار حبي ، وإنها
لتحس بأنى طيف بدا فى أفقها ، فأفرح قلبها عشر سنوات ، ثم اختفى على كره منها
وكره منه ، ويل لأحلام الصبا من قسوة الحياة .

ليلة أمس . يا لحاك الله يا ليلة أمس . تناجى فيها الحبيبان نجواهما الأخيرة . . .
تحدثت الدموع فى هذا اللقاء ولم تتحدث الشفاه ولا العيون . تبادلوا الزفرات ولم يتبادلا
النظرات لأن الرأسين منكسان والطرفين منكسران .
طلقات البنادق تدوى فى « الدوار » على مقربة من بيت الحبيبة « المفقودة » .
وإنما تدوى حفاوة بعقد القران القاسى - قران « عين » بشيخ من ذوى الثراء فى إقليم بعيد .
ما أشد وجدى لفراق الحبيبة إلى الأبد .
وما أنبل والدة العزيزة « الراحلة » . رقت لى ولا بنتها فأذنت لنا فى هذا
الوداع الباكى .

والسيدات والخدم يحاولون أن يزغردن فتختنق حناجرهن لما يعترضها من شجا
الحزن للحب المحروم .

ستكون حظية الشيخ يضمها إلى حريمه كما يفعل الجبابة فى القرون الوسطى .
ستضمها أحضان شيخ تفنى أيامه ولا تفنى شهواته . ليس لمثله متاع سوى متاع الحيوان
حدّه فى الطعام أن يكتظ ، وحدّه فى الشهوات أن يموت .

وداعاً «يا عيني» المسكينة ، وداعاً يا حلم الصبا الغرير — ياظبية شاذنة قد احتواها
حيوان هرم .

خمس سنوات قضيتها في أوربا حافلة بالفوائد والمتع . عرفت من ألوان الحضارة
جديداً ورشفت من مناهل العلم عذبا . وأنا مع ذلك أحن إلى وطني حنين اليتيم
إلى أبويه . نيلنا الوفي سيد الأنهار وينبوع الحياة في وادينا الأمين . أرض بلادنا
السخية ، وحقوقها السندسية ، وشمس الشتاء فيها ، وضوء القمر . وبر والدتي وإشفاق
أبي ، وولاء إخوتي ، وعطف أهلي وعشيرتي . . والمسكينة «عين» في جماها المسلوب
وشبابها المنكوب !
كل أولئك مائل بين الجوامح في حلي وترحالي ، وهو حديث نفسي بالنهار
وأحلامها بالليل .

ماتت المسكينة «عين» ماتت مَيِّتَةً لم يمتها أحد من قبل ، وماأظن أن سيموتها
أحد من بعد .
عدت إلى مصر منذ شهر . وكان زوجها قد توفي قبل عودتي بقليل . فعكفت
على أطفالها الثلاثة في دار أبيهم ، حتى انتقلت أمها إلى رحمة الله أمس الأول .
وقصدنا إلى قرية الخوولة للتعزية . وعلتُ النفس بأن أرى « حلم » الصبا ،
فأعرب لها عن عزائي وشوقي ، عسى ذلك أن يخفف عنها البلاءين — بلاء الزواج
الممقوت ، وبلاء محنتها في أمها الراحلة .
فبعد أن قضيت في تعزية الرجال ساعة ، قصدت إلى الدار لأعزي السيدات
والحبيبة « المفقودة » .
توسطت جمعهن ، فاستقبلتني الخالات بالقبلات ، وأكثرهن لم يكن رأي من منذ
سفرى إلى الغرب .
وبينا أنا وهنَّ في ذلك ، إذا صوت غليظ تنبو عنه المسامع فالتفتُ فإذا سيدة

لا عهد لي بها بين نساء الأسرة ، ولا صواحبهن ممن أعرف . وهي لحمة الوجه لحمة
البدن إلى حد الإفراط . . . ثيابها ثياب الريفيات الأقحاح من ذلك السواد الصفيق
يتخذنه في غير فن ولا ذوق ، ولو عالجها الفن بالثياب المهدبة لاستعصى عليه بدنهما المكتل .
وحددت إليها النظر إمعاناً في العجب من هذا المخلوق الغليظ الصاخب ، فإذا
صوتها يزداد إرعاداً ، وإذا بالرعد يناديني . . . ألا تعرفني ياسى أحمد . . . أنا «عين» .

ألم تمت «عين» ! بلى ! مات فيها الإنسان فاستفحل الحيوان واستكرش .
رحمة الله على «عين» — برأ بالذكى الغالية ، وبالعلم العزيز .

الوصايا العشر للشباب^(١)

شباب كل أمة أملها الحبيب في يومها ، وعملها المائل في غدها . هم اليوم غرس ونبات ، وهم غداً شجر وثمر .

والنبته الصالحة ، والشجرة الفارعة ، والثمرة السليمة اليانعة ، لا تجود بها الطبيعة عفواً بلارعاية ولا تعهد . كذلك حقل الشباب في كل أمة ، تتولاه البيوت والمدارس والمعاهد — أو يجب أن تتولاه — منذ الطفولة إلى أن يستتم العقل رشده ، والجسم نموه ، والخلق أهبطه لميدان الحياة .

لكن فرقاً أصيلاً يميز نبتة الطفل والصبي والفتى من نبتة القمح والشعير مثلاً ، أو نبتة النخيل والأعناب . وذلك الفرق الأصيل كمين في خصائص النفس البشرية . وأهم خصائصها نعمة الوعي الذي يمكنها من إدراك نفسها وإدراك ما حولها . .

فهل لنا بعد هذا التمهيد أن ننصح ؟

وهل لنا أن نخص شبابنا المأمول بنصائح عشر لو أساغتها النفوس ، وتمثلتها القلوب ، وانعقدت عليها الغرائم الفتية ، لبنوا لبلادهم مجداً جديداً ، وكانوا خير جيل يعتز به النيل ؟

١ — إحياء النزاهة :

أدوى أدوائنا في عصرنا الحاضر إيثار صارخ لمصلحة الذات على مصلحة الجماعة . فهذا رجل يطلب المال ، وهذا آخر يطلب السلطان من أى سبيل يواتيه ، حلال أو حرام ، خسيس أو شريف ، حتى أوشكت النزاهة أن تكون « ققيداً قومياً » يبكيه المواطنون بدمع سخين . فمن لإنقاذ مصر من هذا الخطر الداهم غير حماسة الشباب للكرامة والشرف ؟

٢ - تجنب المخدر القومى :

ومن أدوائنا الدوية إقبال الشباب على هذا المخدر القومى المشهور — أعنى وظائف الحكومة — وأقول « المخدر » وأعنى ما أقول ، فالفتى الذى يفيض حيوية ونشاطا ، يجب أن تأبى له همته الجلوس بضع ساعات فى الديوان ، وقضاء سائر النهار وطائفة من الليل فى نوم الأصيل ، ثم فى سلوة المقهى ، ثم فى سهرة المساء ، سادراً بين عبث القول وعبث العمل .

على هذا الأسلوب لا تنهض الأمة بشبابها ولا ينهض الشباب بأمتة .

٣ - حياة الكفاف الحر :

أهْبُ أيها الشاب الأبى بزملائك وأترابك . قل لهم إن الحياة ليست كلها مرتبات وعلاوات ودرجات ، ومنافسة فى الأجر وفى المعاش فى ظلال الحكومات ، واطلب إليهم أن يخافتوا من أصواتهم فى هذا العراك الناشب بينهم حول وظائف المستقبل وألقاب المستقبل ومراتب المستقبل ، فمثل هذه المعارك لا عهد لأحد بها فى بلاد الشرق أو الغرب ، وبخاصة يوم تكون الأمة بأسرها فى شغل شاغل بقضيتها الكبرى عن قضايا الطوائف وطلاب المعاهد ، وفى طليعة الآملين العاملين هذا الشباب !

٤ - إحياء تجارتنا :

وهذه تجارتنا ليست جلها فى أيدينا ، وهى ميدان فسيح لجهود الشباب ، وليس يكفي أن نعضب من لافتات الخوانيت وبيوت الأعمال لأنها مكتوبة بالحروف الأجنبية ، فلو كتبت بالحروف العربية مضخمة مفخمة ، دون أن يعنى شبابنا بالجواهر وهو أن يجاهد جهاداً منسقاً مدروساً ليحل فى غده ، بعلمه وعمله ، محل أولئك ،

في مجال المنافسة الحرة ، لذهبت صيحات الشباب مع الريح ، ككل صياح لا يصحبه
أو يعقبه عمل مثمر .

سيقولون وأين رأس المال ؟ فنجيب : وكم كان رأس المال الذي نزلوا به ديارنا
يوم جاءوا أصفاراً فأصبحوا أرقاماً كباراً ؟

٥ — إحياء صناعتنا :

وصناعاتنا ضئيلة ، ولو عقد الشباب عزمه على أن تكون مصر في الغد بلداً
صناعياً ، لاستطاع . وإن حداداً أو نجاراً يبيعك سلعة متقنة بربح حلال ، لأرفع
منزلة عند الله والناس — أو عندي أنا على الأقل — من صاحب لقب ضخيم ،
في مكتب فخم ، لا يبيعك إلا جعجعة في غير طحنة ، وكلاماً في غير عمل . . فما
بالك بالشباب إذا عقد العزم على أن يكون جيلاً صناعياً ، لا يترك في أرض مصر
فلذة من معدن ، ولا قطرة من نפט ، ولا مسقط ماء في نهر ، إلا اتخذها أداة لإحياء
مصر الصناعية ؟ .

نريد للشباب أن يكون شباب تجارة وصناعة وزراعة ، لا شباب تناحر رخيص
على وظائف قد يكسب أضعاف أجرها سائق سيارة مأجورة .

٦ — وإحياء زراعتنا :

وزراعتنا ما زالت بحاجة إلى الترقية والتنويع ، وما زالت ضياعنا وحقولنا
بحاجة إلى الصناعات الزراعية التي بحت الأصوات في الدعوة إلى إحيائها
دون مجيب ! .

فهل للشباب أن ينهض هذه النهضة ؟ هل لولد الغنى الذي يملك مئات الأفدنة
ألا يحتقر عمل أبيه ، وأن يتوفر على إتقانه وتنظيمه والزيادة فيه ! وهل ينصرف عن
تفضيل المدينة ولهوها ، أو ندوتها وديوانها ، على تنمية ثروته ، وتعهد عماله وعشيرته ،
والارتفاع بريف مصر إلى الحدائق والجنت التي يسمو إليها الريف في بلاد الغرب !

٧ — حياة الأفرام :

إنما يبلغ شبابتنا ما نريده له من قوة النفس وكمال النضج يوم يؤثر العمل الحرّ الشريف ، ولو كان عرقاً يتفصد منه الجبين ، وسعيّاً تدمى له الأقدام ، على حياة الترف الناعم والدعة المميّنة التي طالما أهلكت نفوساً وأودت بأمم . ولن يضطلع شبابتنا بأعباء غده ، وتبعات زمانه ، إلا إذا راض نفسه منذ اليوم على مجابهة الحياة في أخشن مسالكها ، وأوعر سبلها ، ليخرج من هذه الرياضة شديد المراس ، قوى العزم ، سريع المضاء .

٨ — وواللّكم العلم :

وإنما يبلغ الشباب ما نريده له من قوة النفس وكمال النضج ، يوم يغار على نصيب مصر من علوم العصر الحديث ، غيرته الأبية المحمودّة على نصيبها من السيادة والحرية ، ويوم ينادى بجلاء الجهل الممقوت نداءنا جميعاً بجلاء الاحتلال الممقوت . وما أريد بالجهل مجرد جهل القراءة والكتابة ، وإنما أريد تخلف علمائنا في كل فرع من فروع العلم الحديث ، الذي يطفر في كل ساعة طفرة ، عن نظرائهم في أوروبا وأمريكا . فها نحن أولاء نسمع كل يوم بكشف خطير لسر من أسرار الطبيعة ، أو عناصر المادة . وقصارى أهل التخصص من رجالنا أن يسمعوا بها كما نسمع ، أو ينقلوها إذا استطاعوا نقل تقليد ، لا نقل تجديد .

فهل يطمح شبابتنا من طلاب العلوم على اختلافها إلى أن يكونوا في غدهم طلائع بين الباحثين الكاشفين ، لا مجرد ذبول تابعين !

٩ — للحياة غاية :

وإنما يبلغ شبابتنا ما نريد له من قوة النفس ، وكمال النضج ، حين يؤمن بأن كل فتى وفتاة إنما يعيش في هذه الدنيا لغاية سامية . وهذه الغاية منوطة بك مما كتبت م — ١٤

أيها الفتى ، معهودة إليك أيتها الفتاة ، تلتمسان النور لوجدانكما لتضيئاً
ما حولكما ، وتلتمسان القوة والصحة لتفيعضا على ما حولكما صحة وقوة ، وتزدادان
على الأيام رقياً في النفس ، ونقاء في الضمير ، وقدرة على خدمة البلد الذي
بعثتما منه وفيه .

وعلى هذه الصورة لا تلوان في ذات نفسكما إلا على قدر إعلائكما
للعشيرة والوطن .

١٠ — استعينوا بالله وأعينوه :

أيها الشباب المصرى الكريم . إن أجدادكم من قدماء مصر عاشوا ألوف
السنين سادة الدنيا وأساتذتها بالعلم والفن والقوة البالغة الخيرة .

وإن آباءكم من العرب في صدر الإسلام بنوا مجدهم على الرجولة والأخلاق
وكبار المساعى . ثم أحيوا دولة العلم وأضاءوا ظلام القرون الوسطى في بلاد الغرب
وقد أطبقت عليها غواشى الجهالة .

واليوم يناديكم تاريخكم المجيد المزدوج : أن اتخذوا الفاروق لكم قائداً إلى عل ،
وإلى أمام . وما أجدر أمة يلتف جيلها الفتى الطموح ، بملكها الطموح الفتى —
ما أجدرها بالفلاح والتوفيق .

علمتني الحياة

علمتني الحياة قيمة ما يضيع من أيام الشباب ، ولو تحققت لي أمنية من قال : « ألا ليت الشباب يعود يوماً » — لما أخبرته بما فعل المشيب من توهين عظامي ، أو تعجيز حطامي عن أن أثب وثوب الأسد ، أو أن أطفر طفور الغزال . كلا ، لو يعود الشباب يوماً لما أخبرته بشيء من هذا ، ولا بأن المشيب قد نفر الحسان من تغصن سحنتي ، وانحناء قامتي ، بعد إذ كنت سمهري القد بهي الطلعة ، قذى لعيون الناظرين — من الحسد ، وقرّة لعيون الناظرات — من الفتنة ! لأنني أترك هذه الحقائق وأمثالها لصديقي فلان ، يذكرها لأيام الشباب إذا عاودته بعد خمسين عاماً من العمر الموفور إن شاء الله .

أما أنا فكنت أقول للشباب إذا عاد : مرحباً بالكنز النفيس الذي أضعت فيما مضى أكثره سُدّي ! لو كنت أعلم في شبابي الأول — ياشبابي « الثاني » — ما أحرزته الآن من التجارب والعبر ، لحصلت من العلوم والفنون ، وعودت نفسي من الخلال والشيم ، وأكسبت جسمي من العافية والصحة — ما حال بيني وبينه جهلي بأن أيام الشباب هي الدعائم التي عليها يقوم مستقبل أو كوخه ، وخصبه أو جرده ، وجلاله أو هوانه .

أجل ! لو علمت في شبابي الأول قيمة الثقافة ، لما أنفقت ما أنفقت في قراءة التافه المبتذل الذي إن لم يضر فلا ينفع . ولو أيقنت يومئذ بما أوقن به اليوم ، من أن حضارة العصر حضارة علم يتناول ذرات الأرض وأفلاك السماء ، وما بينهما ، بالتحليل والتحقيق والتدقيق ، حتى ليصبح البون الشاسع بين العالم والجاهل بأسرارها وطبائعها ، كالبون الشاسع بين الناس والقردة — لو أيقنت يومئذ بهذا إيقاني به اليوم ، لسلكت نفسي في زمرة طلاب العلوم ، أتعرف النبات والحيوان والإنسان ، وأتعرف

تلك الخفايا التي تضررها الطبيعة ، وفيها تكمن عظمة الأكون ، كما تضرر الأمهات أجنيتها ، وفيها تكمن عظمة الإنسان .

ولو عرفت يومئذ أن أكثر الفضائل عادات طيبة تتعودها أنفسنا في الصغر ، وأن الرذائل عادات سيئة ترسخ فينا بتكرار السيئات ، لحذرنا أول منكر نأتيه ، لأن انزلاقنا إليه أول مرة ، قد يغرينا للمرة الثانية ، ثم تكون كل ذلة أهون على النفس من سابقتها ، حتى تستحكم العادة ويعجز الخلاص .

ألا ليت الشباب يعود يوماً ، وتصحبني إليه تجاربي وعلمي بالحياة ، إذن لاستغفرته من جهلتي الأولى ، ومن طيشي الأولى ، ومن تقصيرتي الأولى في واجب ، ومن احتسائي لأول كأس ، إن أكن من الشاربين ، أو إشعالي لأول لفافة إن أكن من المدخنين !

إذن لصنعت نفسي من جديد صنعاً متيناً حصيناً ، تعظم به الأفراد وتعلو به الأمم .

وعلمتني الحياة أن أزن النجاح بوسائله ، لا بشمراته . هذا من أهل الثراء يملك الملايين ، وذاك من دنيا المناصب في « عليين » . لست أحفل بهذا ولا ذاك ، إلا أن تكون صفات نفسه — أعني محاسنها لا مساوئها — هي التي آتته ملايينه أو أحلت له منصبه . وإني لأرى الفقير الكريم فأحتفي به حفاوتي بالنفس الفاضلة ، وأرى الغني اللئيم الذي كسب ماله أو بعض ماله عن طريق يأبأها الضمير ، فأزوي عنه وجهي أو قلبي ، كما أزويه عن كومة من الذهب المسروق .

على أن من الناس ، بل قل : على أن أكثر الناس ، يكبرون صاحب المال من حيث هو صاحب مال . كعباد عجل الذهب على عهد هارون . . . وعندى أن عباد عجل « أيس » كانوا أقرب إلى الله من هؤلاء ، لأنهم كانوا يعبدون في العجل الحي مصدر الحياة والإحياء ، أما الآخرون فكانوا يعبدون معدناً جمداً أصم لا حياة فيه .

علمتني الحياة إذن أن أزن الناس بما تحتوى أنفسهم لا بما تملك أيديهم أو تحتوى

خزائهم . وليس ذلك حسداً لأهل الثراء ، أو جنوحاً إلى الشيوعية ، ولكنه تقديم للجوهر على العرض . والجوهر شرف نفسك ونبيل قلبك ، وتقصّيك وسائل الكسب النزيه في السر والعلانية ، حتى إذا نجحت وسائلك من طريق النزاهة والشرف ، وأحرزت من دنياك ما تبتغي ، عدت على مرافق بلادك ومفاقرها ، وأسهمت في عمرانها ومفاخرها ، بما يجعل ثروة شخصك ينبوع رخاء لبلادك ، ويجعل لنعمتك التي أنعم بها عليك جدك ودأبك — مصدر نعمة للمجتمع ، الذي لولاه ما كنت أنت ، ولا كانت لك ثروة أو عزة أو جاه ؟

ولقد يكون الفقر أحياناً رمزاً إلى الكرامة والشم . وذلك إذا عرّضت للفقير وجوه الكسب ، بل وجوه الثروة العريضة أحياناً فيأبأها ، لأن وسيلتها مشوبة بشبهات لا يطمئن إليها ضميره . هو فقير ، ولكنه آثر الفقر على الترف والسعة ، في خرج من الوجدان . هو الفقير الغني . والآخر هو الغني الفقير . يقول شكسبير : « ما المال ؟ عارية عابرة ، تكون اليوم في جيبك ، ثم تفارقه غداً إلى جيبى ثم تعدوه إلى جيب غيرى — دون أن يمس ذلك أنفسنا بسوء . أما الشرف ، فتلك هي الجوهرة التي إن فارقتنا يوماً فلن تعود » .

علمتني الحياة ، أن اتحسس في الناس معادن النفوس ، فمن كانت نفسه من خرف لم أقومها إلا بقيمة الخرف ، ولو كان جسمه وبيته وخدمه وحشمه من لؤلؤ وماس . وعلمتني الحياة أن أقيس أصحاب المناصب والراتب ، لابعاء الكراسي ولا بسعة النفوذ ، ولكن بعلو الهمم وسعة الأفق والتسامي عن الصغائر والحقارات .

وعلمتني الحياة أن الناس ضيقوا رحاب الحب ، حتى ضاقت بهم رحاب السعادة . في أكثر القصص التي يقرأها أبناء هذه الحضارة ، وفي أكثر المجلات والصحف ، وفي أكثر ما تشهده في المسارح وعلى الشاشة البيضاء في الشرق والغرب — حب وهيام ، وحب ودماء ، وحب ودموع ، وحب هازل ، وحب جاد — ولكن أكثره محصور في نداء الغريزة ، وفي إرضائها أو محاولة إرضائها بألف سبيل وسبيل

ولو أضاف سكان الأرض سكان المريخ، لأخذهم الدهش منا نحن أهل هذا الكوكب، ولظنوا حين يرون ما نرى من الاتجار بغريزة الجنس في أكثر ما نقرأ وما نشهد — أن أبناء حواء وآدم، لم يرثوا عن أبويهما سوى هذا الطراز من الحب البدائي، الذي لا فضل فيه للإنسان على حيوان.

نعم هو جزء حيوى من طبيعتنا، لكنه ليس كل طبيعتنا، وهو نوع من الحب العابر الموقوت، لكنه ليس كل الحب، ولا هو أبقي أنواعه وأنقائها وأصفاها. حب الأبوة والأمومة والبنوة — أين هو في هذا الخضم المصطخب، من النزعات البدنية الدنيا؟ إنه مغرق، أو يكاد يكون مغرقاً، في بحر لجى من الشهوات، في القصص وعلى المسارح والشاشة البيضاء أو السوداء؟

حب الإنسان للإنسان من حيث إنسانيته وإخاؤه. لا من حيث ذكوره أو أنوثته — وحب المواطن للمواطن والجار للجار والغنى للفقير والقوى للضعيف — حب الجمال في النور إذا محا الظلام، وفي الطبيعة إذا زانها الربيع، وفي المبدع الأعلى لبدائعه، وفي البدائع لمبدعها الأعلى!

أين الجداول والأنهار، والحب الشامل ذو القنوات، يجري بالعذب الفرات من الرحمة والعطف إلى كل قلب يتوجع وروح تظمأ؟

طغت عليه غريزة الجنس فكأنما الدنيا كلها ذكور ليس لهم إلا خصائص الذكور وأنثى ليس لهن سوى خصائص الإناث — أما صفات الإنسان المشتركة بينهما، المتسامية عن التفريق والتخصيص، فيكاد الناس يجعلونها فضولاً لا غناء فيه ولا حاجة إليه. لكن الحياة علمتني أن هذه الحضارة الحديثة إذا لم توسع رحاب حبها وترتفع بمستواه، دون غض من غريزة الجنس في نطاقها الكريم المشروع — فلن يزال الإنسان تعوزه السعادة بقدر ما يعوزه من آفاق الحب الروحي الرفيع.

(١) المزواج والمضرب عن الزواج

لعلكم تذكرون ما أريد بهذه المحات : أريد بها توجيه شيء من النظر والتفكير ، إلى بعض ما نشهد في حياتنا اليومية ، من أمور ، قد تبدو لنا هينات هينات ، لا تستحق حديث المتحدث ، ولا استماع السامع ، وهي في الحق جديرة بأكثر من الحديث وأكثر من السماع ، جديرة بالعناية مضاعفة ، والاهتمام جداً ، لأنها وثيقة الصلات ببناء المجتمع ، بعيدة الأثر في تقوية ضعفه ، وإضعاف قوته .

ولحائنا تتجه وجهة طالما لفتت إليها الأنظار ، وتناولتها الألسن والأقلام ، أعني موضوع الزواج ، لذلك أخشى أن تنبؤ أسماكم عنه ملالة وضجراً ، إلى أن تنفضوا فتصبروا قليلاً ، عسى أن تجدوا في غضون الحديث نفحة من طرافة وجدّة ، تذهب عنكم السأم ، وتجعل من هذه الدقائق ترويحاً وسمراً ، إلى ما قد يكون فيها ، من نفع وثمره .

منذ شهر أو بعض شهر ، بعث المحسنون من أهلى ، فى ريف مصر الكريم إلى منزلى بالقاهرة ، فتاة فى الثامنة عشرة من العمر ، كما تعين على خدمة البيت ، وقد علموا من أزمة الخدم فى المدائن ما تعلمون . والفتاة على شيء من وضاعة الوجه ، ونضارة الصبا . وهى ومثيلاتها بين الأسر ، ودائع طاهرة يجب أن تصان ، وأمانات فى الذم يجب أن ترعى . ففتاتنا إذا برزت فى بعض شأنها ، أو شؤون المنزل ، لم تخرج إلا ومعها زميلة ثقة ، تكبرها سنًا وتجربة . لكن حدث ذات يوم أن صحبت الفتاة طفلين صغيرين ، إلى متنزه يقع إزاء دارى ، ليس بينه وبينها سوى عرض الشارع ، وأرجو أن لا تبحتوا أهدان الطفلان من أبنائى ، أم من حفيدائى : على أن من قال « أغز الولد ولد الولد » لم يبالغ كثيراً . وينقضى يوم واحد على نزهة الفتاة ورفيقها الصغيرين ، ثم يزف إلينا نبأ تتلقاه الفتاة فى ظاهر من الحياء والخفر ، تحته باطن من السرور والتهى ، ذلك أن خاطباً يريد أن يخاطبها إلى ولى أمرها فى المدينة : أعنى محدثكم .

لعله خير ! نعم ، إن الفتاة لم يكتمل تدريبها على تعهد منزل . لكن لا بأس بما تعرف . إن لها معرفة بالطهي . وهي تفصل الثياب فتحسن ، وتكويها فتحسن ، ولها مراعاة على تجهيز المائدة والقيام بأمرها وعلى تنظيف الغرف ، وتنسيق الأثاث ، ولها فوق هذا كله تاج ثمين تزينه درتان : بساطة ونقاء ! .

قلنا لأنفسنا ، والله لو كان الخطب لها صالحاً ، وبها جديراً ، لآثرنا لها الهناء في دارها على العمل في دارنا ، ولأسهمنا في إسعادها بنصيب .

وضربت للخطب موعداً استقبلته فيه . جاء ومعه صاحب دكان قريب يبيعنا لفائف التبغ وأعواد الثقاب ، وما تحتويه في العادة متاجر الطباقي من ملحقات . قرئت الضيفين بفنجانين من القهوة وبدأت الاستجواب .

هو في أواخر عقده الرابع . يعمل في إحدى المكاتب الحكومية خارج الهيئة . مرتبه مع علاوة الإنصاف خمسة جنيهات . كانت له زوجة من بنات عمه رزق منها طفلاً ، وطلقها منذ أربعة أشهر ، فعادت إلى أهلها في الصعيد . إنه لا يخشى أن تتقاضاه نفقة لأن المطلقات من نساء الصعيد يابن مطالبة المطلقين بشيء من حقوقهن أو حقوق أطفالهن تعالياً وشماً . أما تعالیه هو وشمه هو فإني لم أسأله عنهما ، لأنني لم أرد إرهابه في داري . وإنما أردت أن أصرفه بالتي هي أحسن ، فطلبت إليه أن يوافيني بتاريخ مكتوب عن أصله وفصله ، واسم أقليمه وبلدته ، وما الذي حمله على خطبته . وفي الغد مررت بتاجر التبغ لأشتري ما أدرن ، فتقدم إلى شخص ، قال التاجر إنه من رجال البوليس السرى . تفضل رجل الدخائل والأسرار فأفضى إلى بمعلومات جديدة هي أن لذلك الخطب زوجة أخرى ، لا تزال في عصمته ، ولكنها غصبي لا تساكنه منذ عام ونصف عام . وإنما تطوع رجل الخفايا والأسرار بهذه الخدمة الخيرية حتى لا تقع الفتاة البريئة في فخ هذا المزواج المطلق . وهي في حمى رجل يعرف له حضرة المنقذ المتطوع من الصفات والخدمات كيت وكيت — فما كاد يسمع بأمر هذه الخطبة من حضرة التاجر ، حتى جد في البحث والتنقيب ، إلى أن عرف ما عرف ، وها هو ذا يبادرنى بالتقرير والتبليغ .

وفي اليوم التالي جاءني من حضرة الخطيب كتاب طويل جداً ، ضخمة الحروف مزخرف العبارة — بصرف النظر عن قواعد النحو وما إليه — وهو تاريخ مفصل لأسرته ونشأته . ناس طيبون من أواسط أهل الصعيد . ينتهي الخطاب بالعبارة الآتية :— « وأما من ناحية مخطوبتي ، فكيف وقع عليها اختياري نظراً لأنني « قاطناً » بجواركم ، دائماً أتردد بالمنتزه . ففي أحد الأيام كنت خارجاً من مسجد كذا بعد صلاة المغرب وإذا بهذه الفتاة تسب وتشتم أحد المارة بقلب قوى فعرفت أن أحد الشبان كان يغازلها فأيقنت أنها على جانب من العفة وليست من الفتيات الساقطات ، فسر قلبي لمثل هذه الفتاة ففكرت أن أقدم على سعادتكم لأحوز هذا العفاف النادر في مثل هذه الأيام التي اختلط فيها الحابل بالنابل وأصبح الناس لا يفكرون إلا في جمع المادة بأي طريق غير مشروع ، فلا حول ولا قوة إلا بك يا على يا عظيم وختاماً تفضلوا » — إلى آخره ! .

* * *

هذه طبقة العاجزين عن تبعات الزوجية ، وهم عليها يهجمون ، وبحقوقها يعبثون ، وفيها يسرفون . ولولا أن عددهم يتناقص ، وخطبهم يتضاءل ، بما ينتشر من أسباب الوعي والمعرفة في صفوف السواد لخشنا الخطر كل الخطر على مجتمعنا من هذا العبث الذي يقضي على كرامة الأبوة وحرمة الأمومة وبر البنين وعزة البنات . لكنه خطر آخذ في الزوال بحمد الله ، وآية ذلك ما نراه من إعراض المعاصرين عن تعدد الزوجات إلا في القليل النادر ، بهذا يشهد الإحصاء ، كما يشهد العيان بأن الفتى المستنير قل أن يقدم على الزواج في زماننا الحاضر ، إلا بعد تروية وتفكير ، وحساب عسير ، مادخله اليوم ؟ وماذا ينتظر أن يكون في الغد وما وسائل إنفاقه على البيت والخدم وعلى الزوج والولد ؟ . حتى أصبح خوفنا من غلو الشباب في التشاؤم والاحجام ، يزيد على خوفنا من غلوهم في التفاؤل والاقدام . بل إحجامهم ملحوظ بالفعل منذ سنوات ، حتى نجمت في مجتمعنا ناجمة رهيبة يسمونها أزمة الزواج لها أسباب كثيرة لكن أهمها وأكبرها لاريب ، مسألة اليسر والعسر . مسألة الوسائل والنفقات .

فإذا صح ذلك فما بال كثير من أبناء مصر المتقنين المرزوقين الوفورين القادرين على تكوين الأسر المثالية من زواج هنئ وعيش رغيد ، وذرية سليمة من الأمراض ما استطاعت العناية واستطاع الطب ، مبرأة من الجهل ما استطاع المربيات والمربون والمعلمات والمعلمون ، منزهة عن الصغائر والرذائل ، ما استطاعت البيئة العالية والمحيط الكريم ، ما بال هؤلاء القادرين على إسداء هذه اليد العظمى إلى الوطن بالزوجية الصالحة والأسرة النقية والذرية الزكية القوية ، ما بالهم لا يقدمون ؟ إنها تكون نعمة على مصر من حيث هي نعمة على أنفسهم . فلماذا لا يقدمون على خطبة الفتيات المثقفات من أهل البيوت الطيبة ، وهي تحصى بالألوف ؟ لا يفعلون لأنهم يجهلون تبعات الحياة ، إذا كان صاحبنا المطلق المزواج يجهل تبعات الزواج . بل جهلهم أشد إيذاء من جهل صاحبنا المسكين . ذلك بأن مسلكهم لو عم الدنيا لأورثها العقم والعدم . فأما مسلكه فلو عم الدنيا لأورثها نوعاً من الفوضى قد يصلحه مرّة الزمان ، وارتقاء الوعي والمعرفة .

إن التبعة التي غرستها الفطرة في كل كائن حي ، هي أن يستديم نوعه . تلك جبلة يستوى فيها أدنى الخلائق ، من ذوات الخلية الواحدة ، وأسمى خلق الله من رسل وملوك وعظماء . ولكنها في الحيوان الأدنى آلية جبرية . فأما في الإنسان فقد كرمتم بموهبة العقل والاختيار — فهل يكون العقل في الإنسان مصدر فنائه على حين تكون الغريزة في الحيوان مصدر بقاءه ؟ لو أخذ الناس كلهم أخذ هؤلاء المضرين عن الزواج لفنى الناس . لذلك نعود فنسألهم ماذا يحملهم على الإضراب عن نصيبهم في بناء مصر الحديثة ، بما يضر بون عن نصيبهم في انشاء الأسر المصرية الجديدة ؟ أيقولون ما قال أبو العلاء « هذا جناه أبي علي ، وما جنيت على أحد » — باطل في باطل . إن أبا العلاء لم يقل هذا القول ليتخذ أبناء القرن العشرين من خريجي جامعات مصر والغرب منهاجاً وديناً . لم يقله أبو العلاء إلا وهو ضائق بالدنيا ، يأس من بهجتها ، لعل في جسمه وعلل في نفسه . وليس أصحابنا بالمرضى ولا اليائسين بل يملأون الأرجاء ضجيجاً ومرحاً وطرّاً . ولم يقله أبو العلاء إلا وهو أشبه بالنسك

الزاهدين . وما بأصحابنا من زهد ولا نساك ولا ورع . أقول قولي هذا وأستثنى كل رجل
مسؤول له عذر قائم وحجة ناهضة . فقد يكون من القادرين على الزواج المسكين عنه
شقيق شقيق يقف حياته على إسعاد أخت له أيم ، أو أخ له يتيم ، وهو يخشى
إن تزوج أن تشوب سعادته شائبة — وذلك هو الإيثار في متناه .

إنما نريد من لا دافع له سوى الأثرة الرخيصة والمتاع المبتذل . نريد من يهرب
من احتمال التبعات وهو عليها قادر ، نريد من لا يرى نفسه جديراً بأن يكون والد
لمواطن مصري يملأ فراغه في أرض الكنانة بعد موته ، ويحيا فيها ، فيزيدها حياة ،
ويمدها بأسباب البقاء . يرفع راية النصر فيها يوم الجهاد ، وراية المجد والسؤدد
يوم السلام .

معد زغالول والخطابة

ربما كان الأستاذ محمد توفيق دياب أول من درس فن الإلقاء في بلاد الغرب من شبان مصر وقد مارسه هنا في جملة محاضرات أظهر فيها كفايته وتفوقه في الخطابة . وهو في هذا المقال يقفنا على بعض أسرار هذه الصناعة التي سنحتاج إليها كثيراً كلما تقدمنا في مضمار الحياة النيابية .

المحرر

إذا تحفزت الأمم للنهوض بعد الفتور ، أو ثار ثائرها حفاظاً وغيره على حقوقها وكرامتها بعد الخضوع ، فيومئذ تغلى القلوب غليان المراحل ، ويومئذ تنفتق الألسنة بالخطب الحارة تعمل في المظالم كالبراكين . وليس في التاريخ صفحة من نهضات الشعوب أو ثوراتها إلا وفيها من آثار الخطباء نور ونار : نور الهداية إلى الحق والإقناع بوجوبه : ونار الحماسة للحق والاستبسال في سبيله . يومئذ تتعلق مصائر الأمم بالسنة الخطباء فلا يصدها عن الغاية أحياناً سوى قوة من البطش الغشوم — ولكن إلى حين .

ولقد كانت مصر في فترة أو شبه فترة حتى سنة ١٩١٩ ، فكانت الخطابة كذلك في فترة أو شبه فترة . وإنما كان الصوت الذي يتردد صداه في الأرجاء بين حين وحين هو صوت المرحوم مصطفى كامل باشا . لكنه على قدرته الخطابية وفؤاده المتأجج لم يبلغ مراده ، لأن رجة الحرب الكبرى لم تكن قد هزت مصر تلك الهزة العنيفة التي أيقظتها من سباتها منزعجة . فلما أيقظتها الكارثة العالمية تفتحت عيونها تنظر ما حولها من دماء سالت أبحراً في سبيل الحرية وإعزاز الإستقلال . هنالك أحست مصر أنها أمة ويجب أن تكون كالأمم : أنها شقية ويجب أن تكون سعيدة ، أنها مستعبدة ويجب أن تكون حرة ، أنها تعامل معاملة القصر المملوكين ويجب أن يعترف لها العالم وانجلترا ببلوغ الرشد والإستقلال .

شعور عام بلغ من الحرارة درجة الغليان . ولا بد لهذا الشعور الملهب من أسفة فصيحة عضبة — وقد كان — تعددت المنابر وانطلق المداره وانبرى الشباب والشيوخ

والعذارى من ربّات الحدور والعقائل من مكنونات القصور — انبرى هؤلاء جميعاً
يخطبون الجماهير في الجامع والحفلات، وفي الميادين العامة أيام المظاهرات القومية
الكبرى، فكانت أصوات الأوانس من طالبات المدارس تختلط بعقار الشبان من
طلاب الأزهر والمدارس الثانوية والعالية. وكان لكل قرية خطباء من أبنائها،
ولكل مصنع خطباء من عماله، ولكل هيئة من هيآت مصر أفئدة تفور والسنة تقول.
لكن منذ يكون خطيب مصر الأكبر؟ منذ ينبغي أن يكون صوته فوق
الأصوات وقلبه مداد القلوب، وبيانه الخطابي مثلاً للبيان؟ كل الناس يخطب وكلهم
يتفصح. لكنهم في ضعفهم وقوتهم سواسية. ليس يمتاز بعضهم من بعض بميزة بارزة
تخضع لها الرقاب. والوقت وقت ثورة شاملة. ويجب لكي تنجح أن يرتفع صوت
هائل يسمعه أبناء مصر فيتأثرون به وينقادون إلى الغرض الأسمى. تلك هي القيادة
العليا، قيادة القلب العظيم المستقل، والصوت الذي إذا علا علت معه الآمال وقويت
العزائم واشتد الكفاح. منذ يكون خطيب مصر الأكبر في يوم محنتها الكبرى؟
كان سعد رئيس الوفد منذ بداية الثورة. فكان طبيعياً أن تتجه إليه الأبصار
حين اشتدت الحاجة إلى خطيب عظيم. كيف لا والوفد لسان الأمة وسعد لسان الوفد.
نظرية سليمة. لكن ... لكن هل يحققها بالفعل سعد إذا التفّت عليه الحافل
وأحاط به ألوف السامعين المتلهفين العطاش إلى الحماسة والإلهام ... من يدري؟ ثم عاد
سعد من أوروبا وعودته الأولى. واستقبلته الأمة بما لم تستقبل به أحداً من الملوك
أو القياصرة فيما نقل إلينا التاريخ. ومنذ بلغ الثغر وغادر السفينة والتفت به عشرات
الألوف من المستقبلين، لم يعد سعد رئيس الوفد فحسب، بل انعقدت له فوق زعامته
السياسية زعامة نفسية أخرى هي أبقى وأمتن. زعامة الخطيب العبقري الفذ، زعامة
العاطفة القوية الجبارة تنقاد لها عواطف السامعين، زعامة النفس الحساسة الفوّارة،
يبكي السامعون لبكائها، ويضحكون لضحكها، ويشورون لثورتها، حتى ليهون
عليهم بذل الحياة راضين.

لكن كيف انطوى هذا السر العظيم في جوانح هذا الشيخ العظيم حتى

سنة ١٩١٩ ؟ نعم لقد كانت محامياً ممتازاً ومستشاراً ممتازاً ووزيراً ممتازاً ووكيلاً للجمعية التشريعية ممتازاً فصيح العبارة قوى المهجوم قوى الدفاع . بيد أن هذا البعد الشاسع الذى يفصل اليوم بينه وبين كل قائل وخطيب فى العالم العربى لم يكن مشهوداً قبل أيام الثورة . فأين كانت موهبته الكبرى التى امتلك بها نفوس ألوف الألوف من مواطنيه .

كانت قوة كمينه أثارها محنة الوطن . كانت سراجاً ينقصه الثقاب ليشتعل وينير . وقد كانت الثورة القومية ثقاباً لهذا السراج فاشتعل وأنار . وهل تبدو الكواكب وضاءة إلا فى الليلة الظلماء ؟ كم من عظماء تمخضت عنهم حوادث التاريخ فحاة . ولم يكن العالم من قبل يقدر عظمتهم قدرها الحق .

فإذا سألتنى أن أصف لك خطابته وعوامل سحرها وخلابتها فقد كلفتنى شططا ذلك هو موضع الإعجاز فى المواهب النادرة . إنك لتحس آثارها الفعالة فى نفسك ثم لا تستطيع إلى وصف كنهها سبيلاً . على أنى أحاول أن أنقل إليك بعض خواجى وأحاسيسى حين أسمع هذا الخطيب العظيم وأراه ماثلاً على المنبر .

أحس أن سبعين عاماً من تجارب الزمان وعبره ، وحلوه ومره ، تخاطبنى . وتخاطبنى على لسان من ؟ على لسان شيخ يعلوه المشيب والجلالة . وتكاد تحشع له أعواد المنابر ! كباراً . وأحس أن هذه الشخصية لا تلقى إلى أقوالاً من اللفظ ولكن قطعاً من الروح ، من روح غنية بالذكاء والفطنة ، غنية بالشعور والعاطفة ، غنية بالعزيمة وشدة البأس . ثم أحس أن هذه الروح قد أوتيت من وسائل الخطيب ما لم يؤته أحد ممن رأيت . وجهه قد ارتسمت فيه مخائل القوة وأقصى درجات الثقة بالنفس ، وقامة مع هذه السن معتدلة لا تنحنى للأيام ، وإشارة باليدين فى مواطن التوكيد أو الاستعانة على أداء الغرض لم أشهد مثلها سداداً وحسن دلالة . وقد يومئ بالإيماء فتجىء أبلغ من الجمل ذات الطنين والرنين . وصوت ... ! ياله من صوت ! قوى فى حنان . عميق دون أن يكون أجوف . مرتفع إذا شاء دون أن يكون حاداً يحز فى الأذان . صوت مرن فى الدرجة القصوى من المرونة . يعلوبه ويهبط ويوسع

من حجمه ويضيق كما تشاء له عواطفه ومعانيه دون تعمل ولا قصد . كالموسيقار الذي به
يجرى قوسه على أوتار القيثارة فيروعك بالمطرب والمُعجب دون أن يتكلف لذلك
جهداً . وإن سعداً ليتكلم فتحس أن خلجات فؤادك متصلة بنبرات صوته . ذلك
أن نبرات صوته متصلة بخلجات فؤاده . وخلجات فؤاده صادرة عن عواطف حية
قوية بين سارة تسر السامعين ، وحزينة تحزنهم ، وثائرة تثيرهم ، فلا ممسك لحفاظهم
إلا هو !

وهل بهذا الوصف المقتضب أزعج أنى وقفت القارىء على سر هذه الموهبة
التي أودعها الله سعداً . كلا ولن أستطيع مهما أطلت . تلك المواهب لطائف ربانية
قبل كل شيء . هي موهبة معنوية خفية قبلها لفظاً يصاغ أو يداً تومىء أو صوتاً
ينخفض ويرتفع . هي نار مقدسة ونور مقدس . وتلك الوديعة الربانية هي التي تلهم
سعداً رصف الفاظه هذا الرصف البليغ يباهه وهو يخطب ، فتنبعث منه العبارات
جزلة متينة يأخذ بعضها برقاب بعض . ويأخذك وقعها إلى حيث يريد خطيب العربية
الأعظم غير منازع .

أما بعد فمعدرة إلى حضرة صاحب الهلال . لقد تفضل فدعاني إلى كتابة شيء
في العدد الممتاز من مجلته عن الخطابة والخطباء في مصر . فإذا بي قد كتبت شيئاً يسيراً
وعن خطيب واحد . ولكن ماذا تقول يا سيدي إذا كان هذا الخطيب الواحد يكاد
يكون هو الخطابة كلها في مصر لعهدنا الحاضر ؟

الإحسان

سيداتى وسادتى : —

حدثكم صديقى الأستاذ مصطفى عبد الرازق^(٢) عن صلة الإحسان بالحسن والجمال ، وعن صلته بالحب ، وعن إحسان الفرد وإحسان الجماعة . فاسمحوا لى بأن أتناول الموضوع من ناحية أخرى قد تبدو غريبة لأول وهلة ، لأنها غير مطروقة ، أو هى دعوى تحتاج إلى شىء من الإثبات .

إنى أدعى ، أنى أزعم ، بل إنى أقرر أن ما يناله المحسن من إحسانه ، أعظم شأنًا مما يبذله . وسأضرب لحضراتكم أمثالا لعل فيها دليلا أو شبه دليل على ما أدعى لكننى أبدأ بمثل قد يحسبه بعض حضراتكم تافهاً وما هو بتافه : وإذا كان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فهل أستحي أنا أن أضرب مثلا حيواناً فوق البعوضة درجات لا تحصى . أريد تلك الهرة الصغيرة العرجاء التى لقيها أطفالى فى بعض الطريق بمصر الجديدة منذ شهرين . وأكبر ظنى أنكم لا تعرفون قصتها . . إذن أستاذنكم فأقصها عليكم لأن لها اتصالا بالمعنى الذى أقصده .

عاد أطفالى ذات يوم من المدرسة يحملون قطعة . قلت يا بنى ما بالكم تحملون هذه المخلوقة ولا حاجة بنا إليها . قالوا يا أبانا إنها صغيرة مسكينة صادفناها فى الطريق لا نستطيع حراكا . وكأن ضربة قاسية أصابت يدها فلا تحركها إلا فى ألم . وزيد أن نتعهدنا فنواسيها ونغذوها حتى تصح ويعاودها النشاط . قلت مرحباً بضيفكم الصغير فاصنعوا ما تشاءون . فما زالوا بها تغذية وتديلا حتى شفيت يدها وامتلا جسمها وعادت لا تستطيع السكون من شدة المراح بعد أن كانت لا تستطيع الحركة . وأحببهم وأحبوها وأصبحت وأمست لهم سلوة ورفيقاً .

والآن أسائل نفسى ما بذل الأطفال لهذه الهرة ؟ وماذا كسبوا ؟ بذلوا لها فتاتاً

(١) محاضرة ألقى فى طنطا سنة ١٩٢٧

(٢) حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكرم شيخ الجامع الأزهر « الآن »

من فضول ما يأكلون . فإن بالغوا في السخاء اختصوها بشطر مما يصيبون ما أقله وما أتفه . ولكن ماذا كسبوا ؟ لم يكسبوا مالا . ولم يكسبوا من هذه القطة الخرساء حمداً مسموعاً ولا ثناء ، وإن كان عرفان الجميل يفيض من عينيها ولاء وحباً ، وإن كانت تسمح أقدام الأطفال بنحديها غلواً في الحب ، وتجعل أصابعهم بين أسنانها الحادة تداعبها كما يداعب الطفل الرضيع ثدي أم حنون . لكن ماذا كسب الأطفال ؟ أمجرد ولاء القطة ؟ ما لهذا أقصد . لقد كسبوا شيئاً هو فوق هذا بكثير . لقد كسبوا معنى من معاني الإنسانية لم يعرفوه من قبل .

كانوا من قبل يقصرون حبهم على أمهم وأبيهم وأختهم وأخيهم ومن إليهم من ذوى القربى والعشراء . أما الآن فقد اتسعت قلوبهم لحب جديد . إن الطفل يحب أباه حباً مصحوباً بالهيبة والإعجاب . ويجب أمه حباً مصحوباً بذكرى عطفها وحديها في كل حين . ويجب خالته أو عمته لأنها تخصه بالخلوى والقبالات كلما زارته . لكن هذه الهرة ! لقد علمته شيئاً جديداً . علمته أن يحب مخلوقاً ضعيفاً لا يملك له ضرراً ولا نفعاً . علمته أول درس : كيف ينبغي أن تمنح القوة على الضعف . كان الطفل حيال أمه أو أبيه ضعيفاً يحب قوياً . أما الآن حيال هذه الهرة فهو قوى يحب ضعيفاً . ومحبة الضعيف للقوى أشبه ما تكون بالعبادة . أما محبة القوى للضعيف فهي الإحسان . بذل الأطفال فتاتاً من الطعام لهذا الحيوان المسكين فكسبوا علماً بقدرتهم على أن ينفعوه أو يضرروه ، أن ينفعوه بالتغذية أو يضرروه بالحرمان ، فأثروا نفعه على ضره . وهذا فوز للجانب الأسمى من نفوسهم الناشئة . كانوا حتى الآن مجرد رعية . أما منذ الآن فقد أصبحوا رعاة ولو لقطة ، رعاة أى هداة ومرشدين إلى منابت الكلال والمرعى الخصب . رعاة بالمعنى الذى يجب أن يفهمه المحسنون . أصبح أطفالى رعاة لأنهم أخذوا يرعون الضعيف ويحنون على العجاء ، ومن أشبه أباه فما ظلم « تصفيق وضحك » سيداتى وساداتى :

لا تخطئوا فهم ما أريد . إنما أبوقى لأطفالى أبوة جثمانية ، وأنا أريد أنهم وجميع المحسنين فى أقطار الأرض يشبهون المحسن الأعظم والمصدر الأول لكل خير مما كتبت م — ١٥

وكل جميل ، تلك الأبوة الروحية الشاملة لكل شيء ، تلك الربانية الكبرى ، الله ، هو الذى أعنى حين أقول « من أشبه أباه من المحسنين فما ظلم »

خبرونى سيداتى وسادتى . لماذا يولد طفل الإنسان شديد العجز ، ويظل فى عجزه أعواماً ؟ لماذا يظل عاجزاً عن النهوض شهوراً طويلة ، عاجزاً عن دفع الأذى وتحصيل الرزق سنين ؟ ذلك فى حين أن أطفال الحيوان والطير بل أطفال الحشرات والهوام تولد مستقلة أو عما قريب تستقل . ألم يكن الله قادراً ، أو الطبيعة ، أو ما شئت فسم تلك القوة المدبرة الكبرى ، ألم تكن قادرة على أن تخلق أطفال الإنسان وفيهم من الكفاية والغناء ما لهذه الخلائق الدنيا ؟ بلى كانت قادرة . لكنها لو فعلت لانعدمت عناصر الإنسانية فى مهدها الأول ، لانعدمت عاطفة الأبوة والأمومة . وهى التى تلين القلوب الغليظة وتشقق الأحجار الآدمية الصلدة فيخرج منها ماء العطف والحنان .

أى شرير قاتل لا تفتر شفته عن بسملة الاغتباط والشفقة حين يبشر بمولد طفله المنتظر ؟ أى فقيرة تاعسة لا تستقبل جنينها الوليد بذراعين مبسوطتين بالأمل والمحبة ومزيج من القبلات والدموع ! إن هذا المهد الذى يحوى الطفل الصغير ، إن هذه الأرجوحة التى يحف بها الأبنان يهزان فيها الطفل مداعبين ذات اليمين وذات الشمال تلك المناغاة وهذا الترقيص ، وتلك اللغة الرقيقة التى تصطنعها الأم فى لثغة محبوبة تحاكي بها صغيرها وهى تحاوره ، وآلامها حين يمرض ، وشغلها الشاغل حين يغيب ، وابتهاجها حين ينمو ويتزعرع ، واهتمام الوالد برعاية بنييه ، وسعادته حين يسعدون وشقاؤه حين يشقون — كل هذا وما فى معناه إنما هو المدرسة الأولية التى تتعلم فيها الإنسانية أول درس من دروس الإحسان .

ولماذا تعنى الطبيعة أو الخالق كل هذه العناية بريضة الناس على الإحسان ؟ لأنه أول بذرة يجب أن تنبت من بذور الروح ، لأنه النور الأولى التى يجب أن تفتح من أزاهير النفس الراقية . كأن الطبيعة قد فرغت أو كادت تفرغ من ترقية الجسم البشرى وتريد أن تشرع فى تنمية الروح البشرية . ونمو الروح هو اتساع وارتفاع .

اتساع في مدى الحياة النفسية بحيث تتصل مشاعري وعواطفى بحياة الآخرين ،
 بحيث أشاركهم في السراء والضراء . لأننى لا أحيأ فى شخصى وحده ولا لشخصى
 وحده . ولكن أحيأ فى أبناء نوعى كذلك وأحيأ لهم ، فإذا تأملت النفس الراقية لم تألم
 بقلب واحد ولكن بقلوب المتألمين جميعاً . وإذا سعدت النفس الراقية لم تسعد
 بقلب واحد ولكن بقلوب السعداء جميعاً . إنها نفس كريمة فسيحة الأرجاء واسعة
 النطاق أزالت ما بينها وبين غيرها من حجب . ولقد كانت فى أول أمرها ، كانت
 قبل هذه المرتبة بحاجة إلى أن تخرج من سجن الأنانية رويداً رويداً ، فخرجت
 من هذا السجن إلى روضة الأبوة والأمومة تنفخ فيها أول نسيمات المحبة ، ثم منها
 إلى حديقة الأهل والأقرباء تختصم بالعطف والإحسان ، ثم منها إلى بستان القوم
 والعشيرة تشمل بالمحبة والإحسان كل إخوانها فى القومية . ثم منها إلى وادى الانسانية
 الفسيح لا تفرق فى محبتها وإحسانها بين إنسان وإنسان ولا لون ولون ولا دين ودين
 ثم منه إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فيها تسمو النفس عن الشهوات ولا تجد
 للحياة لذة إلا فى المبرات ، ولا ينبض القلب إلا نبضات الحب للكائنات كلها من شجر
 ونبات وزهرة ضاحكة وقطرة متحدرة وفلك دائر وقر ونجوم وشمس وغيوم — ذلك
 أن هذه النفس قد بلغت أوجها وقاربت كمالها ، وصارت ربانية تحس الحياة الإلهية
 تسرى فى كل شىء وتصل كل شىء بكل شىء . فمثل هذه النفس تشفق أن تدوس
 النملة السارية وتشفق أن تهصر الفصن الرطيب . ومثل هذه النفس تبلغ من عاطفة
 الإحسان مبلغ الملائكة الذين هم صنائع الله سخرهم للخير دون سواه . تلك النفس
 قد أصبحت شعاعة لامعة من شمس الروح الأعظم ، وجدولا صافياً من كوثر الروح
 العذب : شعاعة أينما اتجهت طهرت وأضاءت ، وجدولا أينما جرى روى وأحيأ .
 سيداتى وسادتى :

هذه مرتبة عالية جداً ترد الطرف وهو حسير ، وأرجو ألا أكون قد أدخلت
 على قلبى أو قلوبكم اليأس من بلوغها ولو طال منا العمر . على أنه مهما يتعذر الكمال
 علينا فلا أقل من أن نحاول القرب منه قدر المستطاع . بين إحسانى إلى ولدى وهو

أدنى مراتب الإحسان لأنى مدفوع إليه بفعل الغريزة ، بين ذلك وبين الإحسان المطلق من كل قيد ، الشامل لكل أنواع الخلائق ، بين هذين الطرفين مراحل لا تعد ولا تحصى . وكل يد بيضاء نسديها تخطو بنا نحو كمالنا المنشود خطوة . والذي نبذله فى سبيل هذه الخطوة نحو الكمال شئء تافه بالقياس إلى الكسب الروحى الذى نجنه .

إن الطبيب الذى يرد إلى الكفيف بصره قد بذل نصف ساعة ، ولم يبذل من مهارته شيئاً بل زادها تمكيناً ، لكنه ازداد يقيناً بأنه جندى من جنود النور . إن المنقذ الذى نجى من الغرق صبياً مشرفاً قد أنفق بعض وقته و بلبل بعض ثيابه ، وقد يكون استهدف لبعض الخطر ، لكنه خرج من اليم وبين يديه نفس زكية نجها من الموت فكأنما تضاعفت فى نفسه هو عزة الحياة .

والعريان الذى تكسوه ثوبا سوف يذوب ثوبه لأنه من نسيج يبلى ، أما نشوة السرور التى داخلتك حين رأيت هذا العريان كاسياً ، فآثرها لن يزول لأنها من نسيج الروح ، ونسيج الروح لا يبلى . والدرهم الذى تلقيه فى يد المقعد والعاجز ، والدواء الذى تشتريه للمريض ، والرسوم المدرسية التى تدفعها لليتيم ، والقماط تشتريه للطفل الوليد لا يجد أبواه ثمن القماط ، والكفن تشتريه لشيخ كبير عانى الحياة الدنيا مائة عام ولم يخرج منها بثمن الكفن — ما قيمته المادية إذا قيست براحة الضمير ، وإذا قيست بعاطفة الإخاء والرحمة التى أجدها بين أضعالى — برداً وسلاماً — كلما أحسنت ! أجل أيها السادة ! ما أهون المال إلى جنب اللذة النفسية التى يجدها المحسنون حين الإحسان . ولا عجب ، فإن تجفيف العبرات من عين اليتيم فى يوم عيد ، يساوى أكثر من درهم أو دينار ! وإن ابتسامة الشكر تضىء ثغر المريض المعوز لأشد إسهاداً للنفس الحساسة من كل مباهج الغنى والنعيم .

سيداتى وسادتى :

لقد سمعتم من صديق الأستاذ أن جماعات الإحسان أقوى على الإحسان وأكفل لدوامه من الأفراد . وإن لكم فى مدينة طنطا الزاهرة لجماعتين للإحسان كريمتين

إحداها جماعة السيدات والأخرى جماعة الرجال . فطوبى لسيدات طنطا المحسنات
وطوبى لرجالها المحسنين ، وإن خيراً تكفله أياديهم البيضاء لا بد باق ومتضاعف
مع الأيام .

رقم	اسم	رقم	اسم	رقم	اسم	رقم	اسم
٢	سيدة	١٣	سيدة	٢	سيدة	٢١	سيدة
٧	سيدة	٢٣	سيدة	٧	سيدة	١٦	سيدة
١١	سيدة	٢٣	سيدة	١١	سيدة	٢١	سيدة
١٥	سيدة	٢٥	سيدة	٢	سيدة	٢١	سيدة
٢٥	سيدة	٥٢	سيدة	٥٦	سيدة	٧١	سيدة
٥٢	سيدة	٢٢	سيدة	٨	سيدة	٣٠	سيدة
٢٢	سيدة	٧٣	سيدة	٦	سيدة	٩٠	سيدة
٧٣	سيدة	٨٥٦	سيدة	٨١	سيدة	٨٠	سيدة
٨٥٦	سيدة	٧١	سيدة	٨١	سيدة	٥١	سيدة
٧١	سيدة	٢٠١	سيدة	٢٠١	سيدة	١١	سيدة
٢٠١	سيدة	٧٠١	سيدة	٧٠١	سيدة	٧١	سيدة
٧٠١	سيدة	٧٣١	سيدة	٧٣١	سيدة	٧٢	سيدة
٧٣١	سيدة	٨٣١	سيدة	٨	سيدة	٥٠	سيدة
٨٣١	سيدة	٢٧١	سيدة	٢٧١	سيدة	٢٠	سيدة
٢٧١	سيدة	٥٠٢	سيدة	٥٠٢	سيدة	٨٠	سيدة
٥٠٢	سيدة	٧١٦	سيدة	٧١٦	سيدة	١١	سيدة
٧١٦	سيدة	٧	سيدة	٧	سيدة	٥١	سيدة

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	١٦	تنتفخ	تنتفخ	٤١	٦	أم رمح	أو رمح
٢	٢١	احفادك	حفداؤك	٤٦	٧	إحيا	أحيا
٤	٩	تزداد	تزداد	٤٦	١١	عزيت	غربت
١٤	١٩	الوظائف	اللطفائف	٥١	٦	بالعاقبة	بالعافية
١٥	١٧	احوال	أصول	٥٢	٢٠	رقيق	رفيق
١٧	٠٤	الانفاق	الاتقان	٦٥	٨	إخواتك	أخواتك
١٨	٠٣	تبيض	تبيضان	٦٦	٢	نستحذى	نستحذى
١٨	٠٩	نوقن من أن	نوقن بأن	٦٧	٩٠٨	ايامك	زمانك
١٩	١٤	لاتغنى	لاتغنى	٧٨	١٧	إخواتنا	أخواتنا
٢٠	١١	تقيد	تقييد	١٠٢	١٤	من	في
٢١	١٢	طلعتها	طليعتها	١٠٧	١٣	والترفيه	والترفيه
٢٢	٢٣	وقفهاؤه	وقفهاؤه	١٦٧	٨	نفسى	نفسه
٢٧	٠٥	من جرائم	في جرائم	١٦٨	١٤	معان	تدمعان
٣١	٠٦	حيال	صيال	١٧٦	—	الشرطة الأخيرة لاغية	الشرطة الأخيرة لاغية
٣٥	٠٨	من تثقيف	في تثقيف	٢٠٠	١٠	هذا	هذه
٣٨	١١	فنفعت	فنفعت	٢١٣	٧	ولمحاتنا	ولمحاتنا هذه
٤٠	١٠	أوفر	أضعف				

فهرست اللہجات

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
٩٨	عهد مصر الجديد	(١)	نفحة مشكورة
١٠٠	القنابل الديموقراطية		(بقلم أنطون الجمیل باشا)
١٠٢	اعرني سمعك يا جون بول	(و)	إلى القارئ الكريم (مقدمة)
١٠٦	جلاء تام — ولكن شركة	١	بأى ميزان تزن الحياة
١١٠	حقنا الكامل لا ينتقص	١٤	ثروتنا الخلقية
١١٦	موعظة الأقوياء	٢٠	تطور الصحافة المصرية
١١٨	في طريق الهدى	٣١	ذكرى محمد محمود باشا
١٢٤	إذا صحت العزائم	٣٥	عناصر الإيمان في قلوب الشباب
١٢٦	معضلة المرتبات	٤٦	الأخلاق والمجتمع
١٢٨	ماذا ضرني سجنى	٥٢	الحرب في قريتنا
١٣٥	معنى حرية المرأة	٥٦	أمراض المدنية وأعراضها
١٣٨	الشهادة الدراسية والرجل	٥٨	صبراً يا مصر
١٤١	أيها العام الماضي وداعاً	٦٠	مصر الفتية بين أغلالها ومطامحها
١٤٤	القرية في ظلام	٦٧	١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨
١٤٦	ماذا يشربون	٦٩	مرحباً شمس السلام
١٤٨	الشاعرية والأناث	٧٣	أهذا جزاء مصر ؟
١٥٠	مآتمنا	٧٧	هل تنام الجامعة العربية ... ؟
١٥٢	الوطنية الفاضلة	٨١	قال الملائكان
١٥٤	ياشاويش	٨٤	هذه الرؤوس
١٥٧	الصغائر المزعجة	٨٨	إلى الضمير البريطاني
١٦١	البرلمان المأمول	٩٠	الغد المأمول
١٦٤	نخر النيابة	٩٢	عزاء ورجاء
١٦٧	العاطفة المتبخرة	٩٤	رسالتنا في المؤتمر
١٦٩	القناعة فضيلة	٩٦	متى تضىء شمسنا

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
٢٠٦	الوصايا العشر للشباب	١٧١	فرح عظيم
٢٠٩	علمتى الحياة	١٧٣	النكتة اللاذعة
٢١٣	المزواج والمضرب عن الزواج	١٧٥	تربية الأخلاق فى المنازل
٢٢٠	سعد زغول والخطابة	١٨٦	تربية الأخلاق فى المدارس
٢٢٤	الإحسان	١٩٨	الحب المفقود
٢٠٦	الوصايا العشر للشباب	١٧١	فرح عظيم
٢٠٩	علمتى الحياة	١٧٣	النكتة اللاذعة
٢١٣	المزواج والمضرب عن الزواج	١٧٥	تربية الأخلاق فى المنازل
٢٢٠	سعد زغول والخطابة	١٨٦	تربية الأخلاق فى المدارس
٢٢٤	الإحسان	١٩٨	الحب المفقود

15 OCT 1987



15 OCT 1987



الثن ٤٠ صاغاً - بتخفيض ٥٠ ملياً

AC
106
D59
v.1